سلسلة نصوص تراثية للباحثين (٤٤٨)

التفنن في الكلام

عند الطاهر بن عاشور

في تفسيره

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٣هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

https://t.me/dralhoshan تليجرام

"المقدمة الثالثة في صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأي ونحوه

إن قلت أتراك بما عددت من علوم التفسير تثبت أن تفسيرا كثيرا للقرآن لم يستند إلى مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه، وتبيح لمن استجمع من تلك العلوم حظا كافيا وذوقا ينفتح له بهما من معاني القرآن ما ينفتح عليه، أن يفسر من آي القرآن بما لم يؤثر عن هؤلاء، فيفسر بمعان تقتضيها العلوم التي يستمد منها علم التفسير، وكيف حال التحذير الواقع في الحديث الذي

رواه الترمذي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»

،

وفي رواية: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»

. والحديث الذي

رواه أبو داود والترمذي والنسائي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»

وكيف محمل ما روي من تحاشي بعض السلف عن التفسير بغير توقيف؟ فقد روي عن أبي بكر الصديق أنه سأل عن تفسير الأب في قوله: وفاكهة وأبا [عبس: ٣١] فقال: «أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأيي» ويروى عن سعيد بن المسيب والشعبي إحجامهما عن ذلك.

قلت: أراني كما حسبت أثبت ذلك وأبيحه، وهل اتسعت التفاسير وتفننت مستنبطات معاني القرآن إلا بما رزقه الذين أوتوا العلم من فهم في كتاب الله؟ وهل يتحقق قول علمائنا «إن القرآن لا تنقضي عجائبه» إلا بازدياد المعاني باتساع التفسير؟ ولولا ذلك لكان تفسير القرآن مختصرا في ورقات قليلة. وقد قالت عائشة: «ما كان رسول الله يفسر من كتاب الله إلا آيات معدودات علمه جبريل إياهن» كما تقدم في المقدمة الثانية.

ثم لو كان التفسير مقصورا على بيان معاني مفردات القرآن من جهة العربية لكان التفسير نزرا، ونحن نشاهد كثرة أقوال السلف من الصحابة، فمن يليهم في تفسير آيات القرآن وما أكثر ذلك الاستنباط برأيهم وعلمهم. قال الغزالي والقرطبي: لا يصح أن يكون كل ما قاله الصحابة في التفسير مسموعا من النبي صلى الله عليه وسلم لوجهين: أحد هما أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يثبت عنه من التفسير إلا تفسير آيات قليلة وهي ما تقدم عن عائشة. الثاني أنهم اختلفوا

في التفسير على وجوه مختلفة لا يمكن الجمع بينها." (١)

"قلت: حد الإعجاز مطابقة الكلام لجميع مقتضى الحال، وهو لا يقبل التفاوت، ويجوز مع ذلك أن يكون بعض الكلام المعجز مشتملا على لطائف وخصوصيات تتعلق بوجوه الحسن كالجناس والمبالغة، أو تتعلق بزيادة الفصاحة، أو بالتفنن مثل: أم تسألهم

خرجا فخراج ربك خير

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٨/١

[المؤمنون: ٧٢] . على أنه يجوز أن تكون إحدى القراءات نشأت عن ترخيص النبيء صلى الله عليه وسلم للقارىء أن يقرأ بالمرادف تيسيرا على الناس كما يشعر به حديث تنازع عمر مع هشام بن حكيم، فتروى تلك القراءة للخلف فيكون تمييز غيرها بسبب أن المتميزة هي البالغة البلاغة وأن الأخرى توسعة ورخصة، ولا يعكر ذلك على كونها أيضا بالغة الطرف الأعلى من البلاغة وهو ما يقرب من حد الإعجاز. وأما الإعجاز فلا يلزم أن يتحقق في كل آية من آي القرآن لأن التحدي إنما وقع بسورة مثل سور القرآن، وأقصر سورة ثلاث آيات فكل مقدار ينتظم من ثلاث آيات من القرآن يجب أن يكون مجموعه معجزا. تنبيه: أنا أقتصر في هذا التفسير على التعرض لاختلاف القراءات العشر المشهورة خاصة في أشهر روايات الراوين عن أصحابها لأنها متواترة، وإن كانت القراءات السبع قد امتازت على بقية القراءات بالشهرة بين المسلمين في أقطار الإسلام. وأبني أول التفسير على قراءة نافع برواية عيسى ابن مينا المدني الملقب بقالون لأنها القراءة المدنية إماما وراويا ولأنها التي يقرأ بها معظم أهل تونس. ثم أذكر خلاف بقية القراء العشرة خاصة.

والقراءات التي يقرأ بها اليوم في بلاد الإسلام من هذه القراءات العشر، هي قراءة نافع برواية قالون في بعض القطر التونسي وبعض القطر المصري وفي ليبيا، وبرواية ورش في بعض القطر التونسي وبعض القطر المصري وفي جميع القطر الجزائري وجميع المغرب الأقصى، وما يتبعه من البلاد والسودان. وقراءة عاصم برواية حفص عنه في جميع الشرق من العراق والشام وغالب البلاد المصرية والهند وباكستان وتركيا والأفغان. وبلغني أن قراءة أبي عمرو البصري يقرأ بها في السودان المجاور مصر.." (١)

"أن نظام مصر في زمن موسى إرسال المؤذنين والبريح بالإعلام بالأمور المهمة. ونعلم من قوله: قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة [يوسف: ١٠] أنهم كانوا يعلمون وجود الأجباب في الطرقات وهي آبار قصيرة يقصدها المسافرون للاستقاء منها. وقول يعقوب: وأخاف أن يأكله الذئب [يوسف: ١٣] أن بادية الشام إلى مصر كانت توجد بها الذئاب المفترسة وقد انقطعت منها اليوم.

وفيما ذكرنا ما يدفع عنكم هاجسا رأيته خطر لكثير من أهل اليقين والمتشككين وهو أن يقال: لماذا لم يقع الاستغناء بالقصة الواحدة في حصول المقصود منها؟ وما فائدة تكرار القصة في سور كثيرة؟ وربما تطرق هذا الهاجس ببعضهم إلى مناهج الإلحاد في القرآن. والذي يكشف لسائر المتحيرين حيرتهم على اختلاف نواياهم وتفاوت مداركهم أن القرآن- كما قلنا- هو بالخطب والمواعظ أشبه منه بالتآليف، وفوائد القصص تجتلبها المناسبات فتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريرا لها لأن سبق ذكرها إنما كان في مناسبات أخرى. كما لا يقال للخطيب في قوم، ثم دعته المناسبات إلى أن وقف خطيبا في مثل مقامه الأول فخطب بمعان تضمنتها خطبته السابقة: إنه أعاد الخطبة، بل إنه أعاد معانيها ولم يعد ألفاظ خطبته. وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابي. ثم تحصل معه مقاصد أخرى.

أحدها:

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٦٣/١

رسوخها في الأذهان بتكريرها.

الثاني:

ظهور البلاغة، فإن تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ فإذا جاء اللاحق منه إثر السابق مع تفنن في المعاني باختلاف طرق أدائها من مجاز أو استعارات أو كناية. وتفنن الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة باستعمال المترادفات مثل: ولئن رددت [الكهف: ٣٦] ، ولئن رجعت [فصلت: ٥٠] . وتفنن المحسنات البديعية المعنوية واللفظية ونحو ذلك كان من الحدود القصوى في البلاغة،

فذلك وجه من وجوه الإعجاز.

الثالث:

أن يسمع اللاحقون من المؤمنين في وقت نزول القرآن ذكر القصة التي كانت فاتتهم مماثلتها قبل إسلامهم أو في مدة مغيبهم، فإن تلقي القرآن عند نزوله أوقع في النفوس من تطلبه من حافظيه.." (١)

"من أهل اللسان فعلم ألا مبلغ بهم إلى التظاهر على الإتيان بمثل القرآن فيما عهده كل واحد من ذوق زميله.

هذا كله بحسب ما بلغت إليه قريحة كل واحد ممن سمع القرآن منهم من التفطن إلى نكت القرآن وخصائصه. ووراء ذلك نكت لا يتفطن إليها كل واحد، وأحسب أنهم تآمروا وتدارسوا بينهم في نواديهم أمر تحدي الرسول إياهم بمعارضة القرآن وتواصفوا ما اشتملت عليه بعض آياته العالقة بحوافظهم وأسماعهم من النكت والخصائص وأوقف بعضهم بعضا على ما لاح له من تلك الخصائص، وفكروا وقدروا وتدبروا فعلموا أنهم عاجزون عن الإتيان بمثلها إن انفردوا أو اجتمعوا، ولذلك سجل القرآن عليهم عجزهم في الحالتين فقال تارة: فأتوا بسورة من مثله [البقرة: ٢٣] وقال لهم مرة: لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا [الإسراء: ٨٨] فحالة اجتماعهم وتظاهرهم لم تكن مغفولا عنها بينهم ضرورة أنهم متحدون بها.

وهذه الناحية من هذه الجهة من الإعجاز هي أقوى نواحي إعجاز القرآن وهي التي يتحقق بها إعجاز أقصر سورة منه. وفي هذه الجهة ناحية أخرى وهي ناحية فصاحة اللفظ وانسجام النظم وذلك بسلامة الكلام في أجزائه ومجموعه مما يجز الثقل إلى لسان الناطق به، ولغة العرب لغة فصيحة وأهلها مشهورون بفصاحة الألسن. قال فخر الدين الرازي في «مفاتيح الغيب» : «إن المحاسن اللفظية غير مهجورة في الكلام الحكمي، والكلام له جسم وهو اللفظ وله روح وهو المعنى وكما أن الإنسان الذي نور روحه بالمعرفة ينبغي أن ينور جسمه بالنظامة، كذلك الكلام، ورب كلمة حكيمة لا تؤثر في النفوس لركاكة لفظها» .

وكان مما يعرض لشعرائهم وخطبائهم ألفاظ ولهجات لها بعض الثقل على اللسان، فأما ما يعرض للألفاظ فهو ما يسمى في علم الفصاحة بتنافر حروف الكلمة أو تنافر حروف الكلمات عند اجتماعها مثل: مستشزرات والكنهبل في معلقة

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٦٨/١

امرئ القيس، وسفنجة والحفيدد في معلقة طرفة، وقول القائل: وليس قرب قبر حرب قبر.

وقد سلم القرآن من هذا كله مع تفننه في مختلف الأغراض وما تقتضيه من تكاثر الألفاظ، وبعض العلماء أورد قوله تعالى: ألم أعهد إليكم [يس: ٦٠] وقوله: وعلى أمم ممن معك [هود: ٤٨]." (١)

"المشركين لما لم يجدوا بدا من إلحاق القرآن بصنف من أصناف كلامهم ألحقوه بأشبه

الكلام به فقالوا إنه شعر تقريبا للدهماء بما عهده القوم من الكلام الجدير بالاعتبار من حيث ما فيه من دقائق المعاني وأحكام الانتظام والنفوذ إلى العقول، فإنه مع بلوغه أقصى حد في فصاحة العربية ومع طول أغراضه وتفنن معانيه وكونه نثرا لا شعرا ترى أسلوبه يجري على الألسنة سلسا سهلا لا تفاوت في فصاحة تراكيبه، وترى حفظه أسرع من حفظ الشعر. وقد اختار العرب الشعر لتخليد أغراضهم وآدابهم لأن ما يقتضيه من الوزن يلجىء إلى التدريب على ألفاظ متوازنة فيكسبها ذلك التوازن تلاؤما فتكون سلسة على الألسن، فلذلك انحصر تسابق جياد البلاغة في الكلام المنظوم، وفحول الشعراء مع ذلك متفاوتون في سلاسة الكلام مع تسامحهم في أمور كثيرة اغتفرها الناس لهم وهي المسماة بالضرورات، بحيث لو كان لواحد من البشر أن يتكلف فصاحة لما يقوله من كلام ويعاود تنقيحه وتغيير نظمه بإبدال لكلمات أو بالتقديم لما حقه التأخير أو التأخير لما حقه التقديم، أو حذف أو زيادة، لقضى زمنا مديدا في تأليف ما يقدر بسورة من متوسط سور القرآن، ولما سلم مع ذلك من جمل يتعثر فيها اللسان. ولم يدع مع تلك الفصاحة داع إلى ارتكاب ضرورة أو تقصير في بعض ما تقتضيه البلاغة، فبنى نظمه على فواصل وقرائن متقاربة فلم تفته سلاسة الشعر ولم ترزح تحت قيود الميزان، فجاء القرآن كلاما منثورا ولكنه فاق في فصاحته وسلاسته على الألسنة وتوافق كلماته وتراكيبه في السلامة من أقل تنافر وتعثر على الألسنة. فكان كونه من النثر داخلا في إعجازه، وقد اشتمل القرآن على أنواع أساليب الكلام العربي وابتكر أساليب لم يكونوا يعرفونها وإن لذلك التنويع حكمتين داخلتين في الإعجاز: أولا هما ظهور أنه من عند الله إذ قد تعارف الأدباء في كل عصر أن يظهر نبوغ نوابغهم على أساليب مختلفة كل يجيد أسلوبا أو أسلوبين. الثانية أن يكون في ذلك زيادة التحدي المتحدين به بحيث لا يستطيع أحد أن يقول إن هذا الأسلوب لم تسبق لي معالجته ولو جاءنا بأسلوب آخر لعارضته.

نرى من أعظم الأساليب التي خالف بها القرآن أساليب العرب أنه جاء في نظمه بأسلوب جامع بين مقصديه وهما: مقصد الموعظة ومقصد التشريع، فكان نظمه يمنح بظاهره السامعين ما يحتاجون أن يعلموه وهو في هذا النوع يشبه خطبهم، وكان في مطاوي معانيه ما يستخرج." (٢)

"منه العالم الخبير أحكاما كثيرة في التشريع والآداب وغيرها، وقد قال في الكلام على بعضه: وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم [آل عمران: ٧] هذا من حيث ما لمعانيه من العموم والإيماء إلى العلل والمقاصد وغيرها.

ومن أساليبه ما أسميه بالتفنن وهو بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتنظير والتذليل والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبا لثقل تكرير الكلم، وكذلك الإكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٢/١

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٥/١

فهو في القرآن كثير، ثم الرجوع إلى المقصود فيكون السامعون في نشاط متجدد بسماعه وإقبالهم عليه، ومن أبدع أمثلة ذلك قوله: مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير [البقرة: ١٧- ٢٠] بحيث كان أكثر أساليب القرآن من الأساليب البديعة العزيز مثلها في شعر العرب وفي نثر بلغائهم من الخطباء وأصحاب بدائه الأجوبة. وفي هذا التفنن والتنقل مناسبات بين المنتقل منه والمنتقل إليه هي في منتهى الرقة والبداعة بحيث لا يشعر سامعه وقارئه بانتقاله إلا عند حصوله. وذلك التفنن مما يعين على استماع السامعين ويدفع سآمة الإطالة عنهم، فإن من أغراض القرآن استكثار أزمان قراءته كما قال تعالى: علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤا ما تيسر من القرآن [المزمل: ٢٠] فقوله ما تيسر يقتضي الاستكثار بقدر التيسر، وفي تناسب أقواله وتفنن أغراضه مجلبة لذلك التيسير وعون على التكثير.

نقل عن أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه «سراج المريدين» : «ارتباط آي القرآن بعضها مع بعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسعة المعاني منتظمة المباني، علم عظيم» ونقل الزركشي عن عز الدين بن عبد السلام: «المناسبة علم حسن ويشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، والقرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض» .." (١)

"إن المقام قد يقتضي شيئين متساويين أو أشياء متساوية فيكون البليغ مخيرا في أحدهما وله ذكرهما تفننا وقد وقع في القرآن كثير من هذا:

من ذلك قوله: وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا بواو العطف في سورة البقرة [٣٥] ، وقوله في الأعراف [١٩] فكلا بفاء التفريع وكلاهما مطابق للمقام فإنه أمر ثان وهو أمر مفرع على الإسكان فيجوز أن يحكى بكل من الاعتبارين، ومنه قوله في سورة البقرة [٥٨] : وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها وفي سورة الأعراف [١٦١] : وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها فعبر مرة

بادخلوا ومرة باسكنوا، وعبر مرة بواو العطف ومرة بفاء التفريع. وهذا التخالف بين الشيئين يقصد لتلوين المعاني المعادة حتى لا تخلو إعادتها عن تجدد معنى وتغاير أسلوب، فلا تكون إعادتها مجرد تذكير.

قال في «الكشاف» في تفسير قوله تعالى: قال (١) ربي يعلم القول في السماء والأرض في سورة الأنبياء [٤] : «ليس بواجب أن يجاء بالآكد في كل موضع ولكن يجاء بالوكيد تارة وبالآكد أخرى كما يجاء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره ليفتن الكلام افتنانا» .

ومنها اتساع أدب اللغة في القرآن. لم يكن أدب العرب السائر فيهم غير الشعر، فهو الذي يحفظ وينقل ويسير في الآفاق،

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١/١١٦

وله أسلوب خاص من انتقاء الألفاظ وإبداع المعاني، وكان غيره من الكلام عسير العلوق بالحوافظ، وكان الشعر خاصا بأغراض وأبواب معروفة أشهرها وأكثرها النسيب والحماسة والرثاء والهجاء والفخر، وأبواب أخر لهم فيها شعر قليل وهي الملح والمديح. ولهم من غير الشعر الخطب، والأمثال، والمحاورات: فأما الخطب فكانت تنسى بانتهاء المقامات المقولة فيها فلا يحفظ من ألفاظها شيء، وإنما يبقى في السامعين التأثر بمقاصدها زمانا قليلا للعمل به فتأثر المخاطبين بها جزئي ووقتي. وأما الأمثال فهي ألفاظ قصيرة يقصد منها الاتعاظ بمواردها، وأما المحاورات فمنها عادية لا يهتمون بما تتضمنه إذ ليست من الأهمية بحيث تنقل وتسير، ومنها محاورات نواد وهي المحاورات الواقعة في المجامع العامة والمنتديات وهي التي أشار إليها لبيد بقوله:

وكثيرة غرباؤها مجهولة ... ترجى نوافلها ويخشى ذامها

غلب تشذر بالذحول كأنها ... جن البدي رواسيا أقدامها

(١) في المطبوعة: إن بدل قال وهو خطأ.." (١)

"أنكرت باطلها وبؤت بحقهما ... عندي ولم يفخر علي كرامها

وتلك مثل مجامعهم عند الملوك وفي مقامات المفاخرات وهي نادرة الوقوع قليلة السيران وحيدة الغرض، إذ لا تعدو المفاخر والمبالغات فلا يحفظ منها إلا ما فيه نكتة أو ملحة أو فقرات مسجوعة مثل خطاب امرئ القيس مع شيوخ بني أسد. فجاء القرآن بأسلوب في الأدب غض جديد صالح لكل العقول، متفنن إلى أفانين أغراض الحياة كلها

معط لكل فن ما يليق به من المعاني والألفاظ واللهجة، فتضمن المحاورة والخطابة والجدل والأمثال (أي الكلم الجوامع) والقصص والتوصيف والرواية.

وكان لفصاحة ألفاظه وتناسبها في تراكيبه وترتيبه على ابتكار أسلوب الفواصل العجيبة المتماثلة في الأسماع وإن لم تكن متماثلة الحروف في الأسجاع، كان لذلك سريع العلوق بالحوافظ خفيف الانتقال والسير في القبائل، مع كون مادته ولحمته هي الحقيقة دون المبالغات الكاذبة والمفاخرات المزعومة، فكان بذلك له صولة الحق وروعة لسامعيه، وذلك تأثير روحاني وليس بلفظي ولا معنوي.

وقد رأيت المحسنات في البديع جاءت في القرآن أكثر مما جاءت في شعر العرب، وخاصة الجناس كقوله: وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

والطباق كقوله: كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير [الكهف: ١٠٤] وقد ألف ابن أبي الإصبع

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١/١١٨

كتابا في «بديع القرآن» . وصار لمجيئه نثرا أدبا جديدا غضا ومتناولا لكل الطبقات. وكان لبلاغته وتناسقه نافذ الوصول إلى القلوب حتى وصفوه بالسحر وبالشعر: أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون [الطور: ٣٠] .." (١)

"حاصل كلامهم، وللعرب في حكاية الأقوال اتساع مداره على الإحاطة بالمعنى دون التزام الألفاظ، فالإعجاز الثابت للأقوال المحكية في القرآن هو إعجاز للقرآن لا للأقوال المحكية.

ومن هذا القبيل حكاية الأسماء الواقعة في القصص فإن القرآن يغيرها إلى ما يناسب حسن مواقعها في الكلام من الفصاحة مثل تغيير شاول إلى طالوت، وتغيير اسم تارح أبي إبراهيم إلى آزر.

وكذلك التمثيل فقد كان في أدب العرب الأمثال وهي حكاية أحوال مرموز لها بتلك الجمل البليغة التي قيلت فيها أو قيلت لها المسماة بالأمثال، فكانت تلك الجمل مشيرة إلى تلك الأحوال، إلا أنها لما تداولتها الألسن في الاستعمال وطال عليها الأمد نسيت الأحوال التي وردت فيها ولم يبق للأذهان عند النطق بها إلا الشعور بمغازيها التي تقال لأجلها.

أما القرآن فقد أوضح الأمثال وأبدع تركيبها كقوله تعالى: مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف [إبراهيم: ١٨] وقوله: ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق [الحج: ٣١] وقوله: والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن إلى قوله: فما له من

نور

[النور: ٣٩] وقوله: والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه [الرعد: ١٤] .

لم يلتزم القرآن أسلوبا واحدا، واختلفت سوره وتفننت، فتكاد تكون لكل سورة لهجة خاصة، فإن بعضها بني على فواصل وبعضها ليس كذلك. وكذلك فواتحها منها ما افتتح بالاحتفال كالحمد، ويا أيها الذين آمنوا [البقرة: ١٠٤] ، والم ذلك الكتاب [البقرة: ١، ٢] ، وهي قريب مما نعبر عنه في صناعة الإنشاء بالمقدمات. ومنها ما افتتح بالهجوم على الغرض من أول الأمر نحو: الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم [محمد: ١] وبراءة من الله ورسوله [التوبة: ١] .

ومن أبدع الأساليب في كلام العرب الإيجاز وهو متنافسهم وغاية تتبارى إليها فصحاؤهم، وقد جاء القرآن بأبدعه إذ كان- مع ما فيه من الإيجاز المبين في علم المعاني- فيه إيجاز عظيم آخر وهو صلوحية معظم آياته لأن تؤخذ منها معان متعددة كلها تصلح لها العبارة باحتمالات لا ينافيها اللفظ، فبعض تلك الاحتمالات مما يمكن اجتماعه، وبعضها إن كان فرض واحد منه يمنع من فرض آخر فتحريك الأذهان إليه وإخطاره بها يكفي في حصول المقصد من التذكير به للامتثال أو الانتهاء. وقد أشرنا إلى هذا في المقدمة التاسعة.." (٢)

"التي في أول الفاتحة من هاتين الصفحتين بأن تصير الفاتحة هكذا: (بسم الله الحمد لله إلخ) .

وأنا أرى في الاستدلال بمسلك الذوق العربي أن يكون على مراعاة قول القائلين بكون البسملة آية من كل سورة فينشأ من

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٩/١

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٢١/١

هذا القول أن تكون فواتح سور القرآن كلها متماثلة وذلك مما لا يحمد في كلام البلغاء إذ الشأن أن يقع التفنن في الفواتح، بل قد عد علماء البلاغة أهم مواضع التأنق فاتحة الكلام وخاتمته، وذكروا أن فواتح السور وخواتمها واردة على أحسن وجوه البيان وأكملها فكيف يسوغ أن يدعى أن فواتح سوره جملة واحدة، مع أن عامة البلغاء من الخطباء والشعراء والكتاب يتنافسون في تفنن فواتح منشآتهم ويعيبون من يلتزم في كلامه طريقة واحدة فما ظنك بأبلغ كلام.

وأما حجة مذهب الشافعي ومن وافقه بأنها آية من سورة الفاتحة خاصة فأمور كثيرة أنهاها فخر الدين إلى سبع عشرة حجة لا يكاد يستقيم منها بعد طرح المتداخل والخارج عن محل النزاع وضعيف السند أو واهيه إلا أمران: أحد هما أحاديث كثيرة منها ما

روى أبو هريرة أن النبيء عليه الصلاة والسلام قال: «فاتحة الكتاب سبع آيات أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم

وقول أم سلمة قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاتحة وعد: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين

آية. الثاني: الإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله.

والجواب: أما عن حديث أبي هريرة فهو لم يخرجه أحد من رجال الصحيح إنما خرجه الطبراني وابن مردويه والبيهقي فهو نازل عن درجة الصحيح فلا يعارض الأحاديث الصحيحة، وأما حديث أم سلمة فلم يخرجه من رجال الصحيح غير أبي داود وأخرجه أحمد بن حنبل والبيهقي، وصحيح بعض طرقه وقد طعن فيه الطحاوي بأنه رواه ابن أبي مليكة، ولم يثبت سماع ابن أبي مليكة من أم سلمة، يعني أنه مقطوع، على أنه روى عنها ما يخالفه، على أن شيخ الإسلام زكرياء قد صرح في «حاشيته على تفسير البيضاوي» بأنه لم يرو باللفظ المذكور وإنما روي بألفاظ تدل على أن بسم الله آية وحدها، فلا يؤخذ منه كونها من الفاتحة، على أن هذا يفضي إلى إثبات القرآنية بغير المتواتر وهو ما يأباه المسلمون.

وأما عن الإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله، فالجواب أنه لا يقتضي إلا أن البسملة قرآن وهذا لا نزاع فيه، وأما كون المواضع التي رسمت فيها في المصحف مما تجب قراءتها." (١)

"محتويات هذه السورة

هذه السورة مترامية أطرافها، وأساليبها ذات أفنان، قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقا لتلقيبها فسطاط القرآن، فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان، وعلى الناظر أن يترقب تفاصيل منها فيما يأتي لنا من تفسيرها، ولكن هذا لا يحجم بنا

عن التعرض إلى لائحات منها، وقد حيكت بنسج المناسبات والاعتبارات البلاغية من لحمة محكمة في نظم الكلام، وسدى متين من فصاحة الكلمات.

ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٤٢/١

يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم.
وكان أسلوبها أحسن ما يأتي عليه أسلوب جامع لمحاسن الأساليب الخطابية، وأساليب الكتب التشريعية، وأساليب التذكير والموعظة، يتجدد بمثله نشاط السامعين بتفنن الأفانين، ويحضر لنا من أغراضها أنها ابتدئت بالرمز إلى تحدي العرب المعاندين تحديا إجماليا بحروف التهجي المفتتح بها رمزا يقتضي استشرافهم لما يرد بعده وانتظارهم لبيان مقصده، فأعقب بالتنويه بشأن القرآن فتحول الرمز إيماء إلى بعض المقصود من ذلك الرمز له أشد وقع على نفوسهم فتبقى في انتظار ما يتعقبه من صريح التعجيز الذي سيأتي بعد قوله:
وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله [البقرة: ٢٣] . فعدل بهم إلى ذات جهة التنويه بفائق صدق هذا الكتاب وهديه، وتخلص إلى تصنيف الناس تجاه تلقيهم هذا الكتاب وانتفاعهم بهديه أصنافا أربعة (وكانوا قبل الهجرة صنفين) بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك التلقي. وإذ قد كان أخص الأصناف انتفاعا بهديه هم المؤمنين بالغيب المقيمين الصلاة- يعني المسلمين- ابتدئ بذكرهم، ولما كان أشد الأصناف عنادا وحقدا صنفا المشركين الصرحاء والمنافقين لف الفريقان لفا واحدا فقورعوا بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة، ثم خص بالإطناب صنف أهل النفاق تشويها لنفاقهم وإعلانا لدخائلهم ورد مطاعنهم، ثم كان خاتمة ما قرعت به أنوفهم صريح التحدي الذي رمز إليه بدءا تحديا يلجئهم إلى الاستكانة ويخرس ألسنتهم عن التطاول والإبانة، ويلقي في قرارات أنفسهم مذلة الهزيمة وصدق الرسول الذي تحداهم، فكان ذلك من رد." (١)

"تخالط بشاشته القلوب. فالإيمان بما سينزل في المستقبل حاصل بفحوى الخطاب وهي الدلالة الأخروية فإيمانهم بما سينزل مراد من الكلام وليس مدلولا للفظ الذي هو للماضي فلا حاجة إلى دعوى تغليب الماضي على المستقبل في قوله تعالى: بما أنزل والمراد ما أنزل وما سينزل كما في «الكشاف» .
وعدى الإنزال بإلى لتضمينه معنى الوصف فالمنزل إليه غاية للنزول والأكثر والأصل أنه يعدى بحرف على لأنه في معنى السقوط كقوله تعالى: نزل عليك الكتاب بالحق [آل عمران: ٣] وإذا أريد أن الشيء استقر عند المنزل عليه وتمكن منه قال تعالى: وأنزلنا عليكم المن والسلوى [البقرة: ٥٧] واختيار إحدى التعديتين تفنن في الكلام.
ثم إن فائدة الإتيان بالموصول هنا دون أن يقال: والذين يؤمنون بك من أهل الكتاب الدلالة بالصلة على أن هؤلاء كانوا آمنوا بما ثبت نزوله من الله على رسلهم دون تخليط بتحريفات صدت قومهم عن الدخول في الإسلام ككون التوراة لا تقبل النسخ وأنه يجيء في آخر الزمان من عقب إسرائيل من يخلص بني إسرائيل من الأسر والعبودية ونحو ذلك من كل ما لم ينزل في الكتب السابقة، ولكنه من الموضوعات أو من فاسد التأويلات ففيه تعريض بغلاة اليهود والنصارى الذين صدهم غلوهم في دينهم وقولهم على الله غير الحق عن اتباع النبيء صلى الله عليه وسلم.
وقوله: وبالآخرة هم يوقنون عطف صفة ثانية وهي ثبوت إيمانهم بالآخرة أي اعتقادهم بحياة ثانية بعد هذه الحياة، وإنما خص هذا الوصف بالذكر عند الثناء عليهم من بين بقية أوصافهم لأنه ملاك التقوى والخشية التي جعلوا موصوفين بها لأن

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٠٣/١

هذه الأوصاف كلها جارية على ما أجمله الوصف بالمتقين فإن اليقين بدار الثواب والعقاب هو الذي يوجب الحذر والفكرة فيما ينجي النفس من العقاب وينعمها بالثواب وذلك الذي ساقهم إلى الإيمان بالنبيء صلى الله عليه وسلم ولأن هذا الإيقان بالآخرة من مزايا أهل الكتاب من العرب في عهد الجاهلية فإن المشركين لا يوقنون بحياة ثانية فهم دهريون، وأما ما يحكى عنهم من

أنهم كانوا يربطون راحلة الميت عند قبره ويتركونها لا تأكل ولا تشرب حتى الموت ويزعمون أنه إذا حيي يركبها فلا يحشر راجلا." (١)

"ويسمونها البلية فذلك تخليط بين مزاعم الشرك وما يتلقونه عن المتنصرين منهم بدون تأمل.

والآخرة في اصطلاح القرآن هي الحياة الآخرة فإن الآخرة صفة تأنيث الآخر بالمد وكسر الخاء وهو الحاصل المتأخر عن شيء قبله في فعل أو حال، وتأنيث وصف الآخرة منظور فيه إلى أن المراد إجراؤه على موصوف مؤنث اللفظ حذف لكثرة استعماله وصيرورته معلوما وهو يقدر بالحياة الآخرة مراعاة لضده وهو الحياة الدنيا أي القريبة بمعنى الحاضرة، ولذلك يقال لها العاجلة ثم صارت الآخرة علما بالغلبة على الحياة الحاصلة بعد الموت وهي الحاصلة بعد البعث لإجراء الجزاء على الأعمال. فمعنى:

وبالآخرة هم يوقنون أنهم يؤمنون بالبعث والحياة بعد الموت.

واليقين هو العلم بالشيء عن نظر واستدلال أو بعد شك سابق ولا يكون شك إلا في أمر ذي نظر فيكون أخص من الإيمان ومن العلم. واحتج الراغب لذلك بقوله تعالى:

لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم [التكاثر: ٦، ٧] ولذلك لا يطلقون الإيقان على علم الله ولا على العلوم الضرورية وقيل: هو العلم الذي لا يقبل الاحتمال وقد يطلق على الظن القوي إطلاقا عرفيا حيث لا يخطر بالبال أنه ظن ويشتبه بالعلم الجازم فيكون مرادفا للإيمان والعلم.

فالتعبير عن إيمانهم بالآخرة بمادة الإيقان لأن هاته المادة، تشعر بأنه علم حاصل عن تأمل وغوص الفكر في طريق الاستدلال لأن الآخرة لما كانت حياة غائبة عن المشاهدة غريبة بحسب المتعارف وقد كثرت الشبه التي جرت المشركين والدهريين على نفيها وإحالتها، كان الإيمان بها جديرا بمادة الإيقان بناء على أنه أخص من الإيمان، فلإيثار يوقنون هنا خصوصية مناسبة لبلاغة القرآن، والذين جعلوا الإيقان والإيمان مترادفين جعلوا ذكر الإيقان هنا لمجرد **التفنن** تجنبا لإعادة لفظ يؤمنون بعد قوله:

والذين يؤمنون بما أنزل إليك.

وفي قوله تعالى: وبالآخرة هم يوقنون تقديم للمجرور الذي هو معمول يوقنون على عامله، وهو تقديم لمجرد الاهتمام مع رعاية الفاصلة، وأرى أن في هذا التقديم ثناء على هؤلاء بأنهم أيقنوا بأهم ما يوقن به المؤمن فليس التقديم بمفيد حصرا إذ لا يستقيم معنى الحصر هنا بأن يكون المعنى أنهم يوقنون بالآخرة دون غيرها، وقد تكلف

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٣٩/١

صاحب «الكشاف» وشارحوه لإفادة الحصر من هذا التقديم ويخرج الحصر عن تعلقه بذات المحصور فيه إلى تعلقه بأحواله وهذا غير معهود في الحصر.." (١)

"اعلم أن هذه طباع تنشأ عن النفاق أو تقارنه من حيث هو ولا سيما النفاق في الدين فقد نبهنا الله تعالى لمذام ذلك تعليما وتربية فإن النفاق يعتمد على ثلاث خصال وهي:

الكذب القولي، والكذب الفعلي وهو الخداع، ويقارن ذلك الخوف لأن الكذب والخداع إنما يصدران ممن يتوقى إظهار حقيقة أمره وذلك لا يكون إلا لخوف ضر أو لخوف إخفاق سعي وكلاهما مؤذن بقلة الشجاعة والثبات والثقة بالنفس وبحسن السلوك، ثم إن كل خصلة من هاته الخصال الثلاث الذميمة توكد هنوات أخرى، فالكذب ينشأ عن شيء من البله لأن الكاذب يعتقد أن كذبه يتمشى عند الناس وهذا من قلة الذكاء لأن النبيه يعلم أن في الناس مثله وخيرا منه، ثم البله يؤدي إلى الجهل بالحقائق وبمراتب العقول، ولأن الكذب يعود فكر صاحبه بالحقائق المحرفة وتشتبه عليه مع طول الاسترسال في ذلك حتى إنه ربما اعتقد ما اختلقه واقعا، وينشأ عن الأمرين السفه وهو خلل في الرأي وأفن في العقل، وقد أصبح علماء الأخلاق والطب يعدون الكذب من أمراض الدماغ.

وأما نشأة العجب والغرور والكفر وفساد الرأي عن الغباوة والجهل والسفه فظاهرة، وكذلك نشأة العزلة والجبن والتستر عن الخوف، وأما نشأة عداوة الناس عن الخداع فلأن عداوة الأضداد تبدأ من شعورهم بخداعه، وتعقبها عداوة الأصحاب لأنهم إذا رأوا تفنن ذلك الصاحب في النفاق والخداع داخلهم الشك أن يكون إخلاصه الذي يظهره لهم هو من المخادعة فإذا حصلت عداوة الفريقين تصدى الناس كلهم للتوقي منه والنكاية به، وتصدى هو للمكر بهم والفساد ليصل إلى مرامه، فرمته الناس عن قوس واحدة واجتنى من ذلك أن يصير هزأة للناس أجمعين.

وقد رأيتم أن الناشئ عن مرض النفاق والزائد فيه هو زيادة ذلك الناشئ أي تأصله وتمكنه وتولد مذمات أخرى عنه، ولعل تنكير (مرض) في الموضعين أشعر بهذا فإن تنكير الأول للإشارة إلى تنويع أو تكثير، وتنكير الثاني ليشير إلى أن المزيد مرض آخر على قاعدة إعادة النكرة نكرة.

وإنما أسندت زيادة مرض قلوبهم إلى الله تعالى مع أن زيادة هاته الأمراض القلبية من ذاتها لأن الله تعالى لما خلق هذا التولد وأسبابه وكان أمرا خفيا نبه الناس على خطر الاسترسال في النوايا الخبيثة والأعمال المنكرة، وأنه من شأنه أن يزيد تلك النوايا تمكنا." (٢)

"حين يجاذب نفوسهم جاذب الخير عند سماع مواعظ القرآن وإرشاده، وجاذب الشر من أعراق النفوس والسخرية بالمسلمين، بحال صيب من السماء اختلطت فيه غيوث وأنوار ومزعجات وأكدار، جاء على طريقة بلغاء العرب في التفنن في التشبيه وهم يتنافسون فيه لا سيما التمثيلي منه وهي طريقة تدل على تمكن الواصف من التوصيف والتوسع فيه.

وقد استقريت من استعمالهم فرأيتهم قد يسلكون طريقة عطف تشبيه على تشبيه كقول امرئ القيس في معلقته:

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١/٢٤٠

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١/٢٨١

أصاح ترى برقا أريك وميضه ... كلمع اليدين في حبي مكلل

يضيء سناه أو مصابيح راهب ... أمال السليط بالذبال المفتل

وقول لبيد في معلقته يصف راحلته:

فلها هباب في الزمام كأنها ... صهباء خف مع الجنوب جهامها

أو ملمع وسقت لأحقب لاحه ... طرد الفحول وضربها وكدامها (١)

وكثر أن يكون العطف في نحوه بأو دون الواو، وأو موضوعة لأحد الشيئين أو الأشياء فيتولد منها معنى التسوية وربما سلكوا في إعادة التشبيه مسلك الاستفهام بالهمزة

أي لتختار التشبيه بهذا أم بذلك وذلك كقول لبيد عقب البيتين السابق ذكرهما:

أفتلك أم وحشية مسبوعة ... خذلت وهادية الصوار قوامها (٢)

وقال ذو الرمة في تشبيه سير ناقته الحثيث:

وثب المسحج من عانات معقلة ... كأنه مستبان الشك أو جنب

---

(١) الهباب- بكسر الهاء- مصدر كالهبوب وهو النهوض والنشاط. والصهباء: السحابة المائل لونها للسواد. والجهام: السحاب لا مطر فيه وهو خفيف السير. والملمع: التي استبان حملها، وأراد الأتان ووسقت: حملت. والأحقب: هو حمار الوحش وقوله: لأحقب أي من أحقب. ولاحه:

غيره. وطرد الفحول: خصامها. والكدام- بكسر الكاف- العض.

(٢) المسبوعة: التي أكل السبع ولدها. وخذلت بمعنى تأخرت عن صواحبها في الرواح. والهادية المتقدمة. والصوار- بكسر الصاد- قطيع الغنم. والقوام- بكسر القاف- ما به يقوم الأمر أي تأخرت النعجة الوحشية ولم تهتد بمقدمة القطيع.." (١)

"ثم قال:

أذاك أم نمش بالوشي أكرعه ... مسفع الخد غاد ناشع شبب

ثم قال:

أذاك أم خاضب بالسي مرتعه ... أبو ثلاثين أمسى وهو منقلب (١)

وربما عطفوا بالواو كما في قوله تعالى: ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون [الزمر: ٢٩] الآية ثم قال: وضرب الله مثلا رجلين [النحل: ٧٦] الآية. وقوله:

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣١٥/١

ما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور [فاطر: ١٩- ٢١] الآية بل وربما جمعوا بلا عطف كقوله تعالى: حتى جعلناهم حصيدا خامدين [الأنبياء: ١٥] وهذه تفننات جميلة في الكلام البليغ فما ظنك بها إذا وقعت في التشبيه التمثيلي فإنه لعزته مفردا تعز استطاعة تكريره.

و (أو) عطفت لفظ (صيب) على الذي استوقد [البقرة: ١٧] بتقدير مثل بين الكاف وصيب. وإعادة حرف التشبيه مع حرف العطف المغني عن إعادة العامل، وهذا التكرير مستعمل في كلامهم وحسنه هنا أن فيه إشارة إلى اختلاف الحالين المشبهين كما سنبينه

وهم في الغالب لا يكررونه في العطف.

والتمثيل هنا لحال المنافقين حين حضورهم مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماعهم القرآن وما فيه من آي الوعيد لأمثالهم وآي البشارة، فالغرض من هذا التمثيل تمثيل حالة مغايرة للحالة التي مثلت في قوله تعالى: مثلهم كمثل الذي استوقد [البقرة: ١٧] بنوع إطلاق وتقييد.

فقوله: أو كصيب تقديره أو كفريق ذي صيب أي كقوم على نحو ما تقدم في قوله: كمثل الذي استوقد دل على تقدير قوم قوله: يجعلون أصابعهم في آذانهم وقوله:

---

(١) قوله: أذاك: الإشارة إلى حمار الوحش في الأبيات قبله، وهو الذي أراده بالمسحج. والمسحج: المكدوم وهو من الصفات الغالبة على حمار الوحش لأنه لا يخلو عن كدام في جلده من العراك مع الحمر، والنمش- بكسر الميم- الذي به النمش بفتحها وهو نقط بيض وسود، وأراد به الثور الوحشي. والوشي: التخطيط. والمسفع: الأسود. والشبب: المسن من ثيران الوحش. وقوله خاضب أراد ذكر النعام فإنه إذا أكل بقل الربيع احمرت ساقاه. والسي- بكسر السين وتشديد الياء- المستوي من الأرض. وأبو ثلاثين أي له ثلاثين فرخا وذلك عدد ما يبيض النعام. ومنقلب: راجع لفراخه فهو شديد السير.." (١)

[٢٠]"

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٠]

يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير (٢٠)

الأظهر أن تكون جملة: يجعلون حالا اتضح بها المقصود من الهيئة المشبه بها لأنها كانت مجملة، وأما جملة: يكاد البرق فيجوز كونها حالا من ضمير يجعلون، لأن بها كمال إيضاح الهيئة المشبه بها ويجوز كونها استئنافا لبيان حال الفريق عند البرق نشأ عن بيان حالهم عند الرعد. وجملة: كلما أضاء لهم مشوا فيه حال من (البرق) أو من ضمير (أبصارهم) لا غير،

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣١٦/١

وفي هذا تشبيه لجزع المنافقين من آيات الوعيد بما يعتري القائم تحت السماء حين الرعد والبرق والظلمات فهو يخشى استكاك سمعه ويخشى الصواعق حذر الموت ويعشيه البرق حين يلمع بإضاءة شديدة ويعمي عليه الطريق بعد انقطاع لمعانه. وقوله: كلما أضاء لهم تمثيل لحال حيرة المنافقين بحال حيرة السائرين في الليل المظلم المرعد المبرق. وقوله: والله محيط بالكافرين اعتراض للتذكير بأن المقصود التمثيل لحال المنافقين في كفرهم لا لمجرد التفنن في التمثيل. وقوله: ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم رجوع إلى وعيد المنافقين الذين هم المقصود من التمثيل فالضمائر التي في جملة ولو شاء الله راجعة إلى أصل الكلام، وتوزيع الضمائر دل عليه السياق. فعبر عن زواجر القرآن بالصواعق وعن انحطاط قلوب المنافقين وهي البصائر عن قرار نور الإيمان فيها بخطف البرق للأبصار، وإلى نحو من هذا يشير كلام ابن عطية نقلا عن جمهور المفسرين وهو مجاز شائع، يقال فلان يرعد ويبرق، على أن بناءه هنا على المجاز السابق يزيده قبولا، وعبر عما يحصل للمنافقين من الشك في صحة اعتقادهم بمشي الساري في ظلمة إذا أضاء له البرق، وعن إقلاعهم عن ذلك الشك حين رجوعهم إلى كفرهم بوقوف الماشي عند انقطاع البرق على طريقة التمثيل، وخلل ذلك كله بتهديد لا يناسب إلا المشبهين وهو." (١)

"ما أفاده الاعتراض بقوله: والله محيط بالكافرين وقوله: ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم فجاء بهذه الجمل الحالية والمستأنفة تنبيها على وجه الشبه وتقريرا لقوة مشابهة الزواجر وآيات الهدى والإيمان بالرعد والبرق في حصول أثري النفع والضر عنهما مع تفنن في البلاغة وطرائق الحقيقة والمجاز.

وجعل في «الكشاف» الجمل الثلاث مستأنفا بعضها عن بعض بأن تكون الأولى استئنافا عن جملة: أو كصيب [البقرة: ١٩] والثانية وهي: يكاد البرق مستأنفة عن جملة: يجعلون لأن الصواعق تستلزم البرق، والثالثة وهي: كلما أضاء لهم مشوا مستأنفة عن قوله: يكاد البرق والمعنى عليه ضعيف وهو في بعضها أضعف منه في بعض كما أشرنا إليه آنفا.

والجعل والأصابع مستعملان في حقيقتهما على قول بعض المفسرين لأن الجعل هو هنا بمعنى النوط، والظرفية لا تقتضي الإحاطة فجعل بعض الإصبع في الأذن هو جعل للإصبع فتمثل بعض علماء البيان بهذه الآية للمجاز الذي علاقته الجزئية تسامح ولذلك عبر عنه صاحب «الكشاف» بقوله هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها كقوله: فاغسلوا وجوهكم [المائدة: ٦] فاقطعوا أيديهما [المائدة: ٣٨] ومنه قولك مسحت بالمنديل، ودخلت البلد، وقيل ذلك مجاز في الأصابع، وقيل مجاز في الجعل ولمن شاء أن يجعله مجازا في الظرفية فتكون تبعية لكلمة (في) .

و (من) في قوله: من الصواعق للتعليل أي لأجل الصواعق إذ الصواعق هي علة جعل الأصابع في الآذان ولا ضير في كون الجعل لاتقائها حتى يقال يلزم تقدير مضاف نحو ترك واتقاء إذ لا داعي إليه، ونظير هذا قولهم سقاه من العيمة (بفتح العين وسكون الياء وهي شهوة اللبن) لأن العيمة سبب السقي والمقصود زوالها إذ المفعول لأجله هو الباعث وجوده على الفعل سواء كان مع ذلك غاية للفعل وهو الغالب أم لم يكن كما هنا.

والصواعق جمع صاعقة وهي نار تندفع من كهربائية الأسحبة كما تقدم آنفا. وقوله:

حذر الموت مفعول لأجله وهو هنا علة وغاية معا.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣١٩/١

ومن بديع هذا التمثيل أنه مع ما احتوى عليه من مجموع الهيئة المركبة المشبه بها حال المنافقين حين منازعة الجواذب لنفوسهم من جواذب الاهتداء وترقبها ما يفاض على نفوسهم من قبول دعوة النبيء وإرشاده مع جواذب الإصرار على الكفر وذبهم عن أنفسهم أن يعلق بها ذلك الإرشاد حينما يخلون إلى شياطينهم، هو مع ذلك قابل لتفريق التشبيه في." (١)

"يكن ما ذكر آنفا من سوء صنعهم حائلا دون إعادة إرشادهم والإقبال عليهم بالخطاب ففيه تأنيس لأنفسهم بعد أن هددهم ولامهم وذم صنعهم ليعلموا أن الإغلاظ عليهم ليس إلا حرصا على صلاحهم وأنه غني عنهم كما يفعله المربي الناصح حين يزجر أو يوبخ فيرى انكسار نفس مرباه فيجبر خاطره بكلمة لينة ليريه أنه إنما أساء إليه استصلاحا وحبا لخيره فلم يترك من رحمته لخلقه حتى في حال عتوهم وضلالهم وفي حال حملهم

إلى مصالحهم.

وبعد فهذا الاستئناس وجبر الخواطر يزداد به المحسنون إحسانا وينكف به المجرمون عن سوء صنعهم فيأخذ كل فريق من الذين ذكروا فيما سلف حظه منه. فالمقصود بالنداء من قوله: يا أيها الناس الإقبال على موعظة نبذ الشرك وذلك هو غالب اصطلاح القرآن في الخطاب بيا أيها الناس، وقرينة ذلك هنا قوله: فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون [البقرة: ٢٢] وافتتح الخطاب بالنداء تنويها به.

و (يا) حرف للنداء وهو أكثر حروف النداء استعمالا فهو أصل حروف النداء ولذلك لا يقدر غيره عند حذف حرف النداء ولكونه أصلا كان مشتركا لنداء القريب والبعيد كما في «القاموس» . قال الرضي في «شرح الكافية» : إن استعمال يا في القريب والبعيد على السواء ودعوى المجاز في أحدهما أو التأويل خلاف الأصل، وهو يريد بذلك الرد على الزمخشري إذ قال في «الكشاف» : «ويا حرف وضع في أصله لنداء البعيد ثم استعمل في مناداة من سها أو غفل وإن قرب تنزيلا له منزلة من بعد» وكذلك فعل في كتاب «المفصل» .

و (أي) في الأصل نكرة تدل على فرد من جنس اسم يتصل بها بطريق الإضافة، نحو أي رجل أو بطريق الإبدال نحو يا أيها الرجل، ومنه ما في الاختصاص كقولك لجليسك أنا كفيت مهمك أيها الجالس عندك وقد ينادون المنادى باسم جنسه أو بوصفه لأنه طريق معرفته أو لأنه أشمل لإحضاره كما هنا فربما يؤتى بالمنادى حينئذ نكرة مقصودة أو غير مقصودة، وربما يأتون باسم الجنس أو الوصف معرفا باللام الجنسية إشارة إلى تطرق التعريف إليه على الجملة تفننا فجرى استعمالهم أن يأتوا حينئذ مع اللام باسم إشارة إغراقا في تعريفه (١)

---

(١) علله كثير من النحويين بأنه لكراهية اجتماع حرفي تعريف، ورده الرضي بأنه لا يستنكر اجتماع حرفين في أحدهما من الفائدة ما في الآخر وزيادة كما في لقد، وقالوا يا هذا، ويا أنت. والذي يختار في تعليله أنه كراهية اجتماع أداتي تعريف وهما حرف النداء وأل المعرفة.." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٢٠/١

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٢٤/١

"لا جرم أن أقصى رغبة لهم في تلك المدة هي إظهار تكذيبه انتصارا لأنفسهم ولآلهتهم وتظاهرا بالنصر بين قبائل العرب كل هذا ثبت بالتواتر عند جميع الأمم المجاورة لهم من فرس وروم وقبط وأحباش.

ولا جرم أن القرآن قصر معهم مسافة المجادلة وهيأ لهم طريق إلزامه بحقية ما نسبوه إليه فأتاهم كتابا منزلا نجوما ودعاهم إلى المعارضة بالإتيان بقطعة قصيرة مثله وأن يجمعوا لذلك شهداءهم وأعوانهم نطق بذلك هذا الكتاب، كل هذا ثبت بالتواتر فإن هذا الكتاب متواتر بين العرب ولا يخلو عن العلم بوجوده أهل الدين من الأمم وإن اشتماله على طلب المعارضة ثابت بالتواتر المعلوم لدينا فإنه هو هذا الكتاب الذي آمن المسلمون قبل فتح مكة به وحفظوه وآمن به جميع العرب أيضا بعد فتح مكة فألفوه كما هو اليوم شهدت على ذلك الأجيال جيلا بعد جيل.

وقد كان هؤلاء المتحدون المدعوون إلى المعارضة بالمكانة المعروفة من أصالة الرأي واستقامة الأذهان، ورجحان العقول وعدم رواج الزيف عليهم، وبالكفاءة والمقدرة على التفنن في المعاني والألفاظ تواتر ذلك كله عنهم بما نقل من كلامهم نظما ونثرا وبما

اشتهر وتواتر من القدر المشترك من بين المرويات من نوادرهم وأخبارهم فلم يكن يعوزهم أن يعارضوه لو وجدوه على النحو المتعارف لديهم فإن صحة أذهانهم أدركت أنه تجاوز الحد المتعارف لديهم فلذلك أعرضوا عن المعارضة مع توفر داعيهم بالطبع وحرصهم لو وجدوا إليه سبيلا ثبت إعراضهم عن المعارضة بطريق التواتر إذ لو وقع مثل هذا لأعلنوه وأشاعوه وتناقله الناس لأنه من الحوادث العظيمة فعدلوا عن المعارضة باللسان إلى المحاربة والمكافحة، ثبت ذلك بالتواتر لا محالة عند أهل التاريخ وغيرهم.

وأيا ما جعلت سبب إعراضهم عن المعارضة من خروج كلامه عن طوق البشر أو من صرف الله أذهانهم عن ذلك فهو دليل على أمر خارق للعادة كان بتقدير من خالق القدر ومعجز البشر.

ووراء هذا كله دليل آخر يعرفنا بأن العرب بحسن فطرتهم قد أدركوا صدق الرسول وفطنوا لإعجاز القرآن وأنه ليس بكلام معتاد للبشر وأنهم ما كذبوا إلا عنادا أو مكابرة وحرصا على السيادة ونفورا من الاعتراف بالخطأ، ذلك الدليل هو إسلام جميع قبائل العرب." (١)

"إلى ذلك المعهود فجيء باللام، وهذا معنى قوله أو يراد أنهارها فعوض التعريف باللام من تعريف الإضافة، يريد أن المتكلم في مثل هذا المقام في حيرة بين أن يأتي بالأنهار معرفة بالإضافة للجنات وبين أن يعرفها بأل العهدية عهدا تقديريا واختير الثاني تفاديا من كلفة الإضافة وتنبيها على أن الأنهار نعمة مستقلة جديرة بأن لا يكون التنعم بها تبعا للتنعم بالجنات وليس مراده أن أل عوض عن المضاف إليه على طريقة نحاة الكوفة لأنه قد أباه في تفسير قوله تعالى: فإن الجحيم هي المأوى [النازعات: ٣٩] وإنما أراد أن الإضافة واللام متعاقبتان هنا وليس ذلك صالحا في كل موضع (١) على أني أرى مذهب

الكوفيين مقبولا وأنهم ما أرادوا إلا بيان حاصل المعنى من ذلك التعريف فإن تقدير المضاف إليه هو الذي جعل المضاف

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٤٨/١

المذكور كالمعهود فأدخلت عليه لام التعريف العهدي.

وعندي أن الداعي إلى التعريف هو **التفنن** لئلا يعاد التنكير مرة ثانية فخولف بينهما في اللفظ اقتناعا بسورة التعريف.

وقوله: من تحتها يظهر أنه قيد كاشف قصد منه زيادة إحضار حالة جري الأنهار إذ الأنهار لا تكون في بعض الأحوال تجري من فوق فهذا الوصف جيء به لتصوير الحالة للسامع لقصد الترغيب وهذا من مقاصد البلغاء إذ ليس البليغ يقتصر على مجرد الإفهام، وقريب من هذا قول النابغة يصف فرس الصائد وكلابه:

من حس أطلس تسعى تحته شرع ... كأن أحناكها السفلى مآشير

والتحت اسم لجهة المكان الأسفل وهو ضد الأعلى، ولكل مكان علو وسفل ولا يقتضي ذلك ارتفاع ما أضيف إليه التحت على التحت بل غاية مدلوله أنه بجهة سفله قال تعالى حكاية عن فرعون: وهذه الأنهار تجري من تحتي [الزخرف: ٥١] فلا حاجة إلى تأويل الجنة هنا بالأشجار لتصحيح التحت ولا إلى غيره من التكلفات.

---

(١) إشارة إلى التفرقة بين ما جوزه الزمخشري هنا وما منعه من مذهب الكوفيين، وذلك أن الكوفيين جوزوا جعل اللام عوضا عن المضاف إليه مطلقا، فعلى مذهبهم يصح أن تقول إذا لقيت زيدا." (١)

"واعلم أن نزول هذه الآيات ونحوها في بعض أهل الكتاب أو المشركين هو وعيد وتوبيخ للمشركين وأهل الكتاب وهو أيضا موعظة وذكرى للمؤمنين ليعلم سامعوه أن كل من شارك هؤلاء المذمومين فيما أوجب ذمهم وسبب وعيدهم هو آخذ بحظ مما نالهم من ذلك على حسب مقدار المشاركة في الموجب.

[٢٨]

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٨]

كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون (٢٨)

ثنى عنان الخطاب إلى الناس الذين خوطبوا بقوله آنفا: يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم [البقرة: ٢١] ، بعد أن عقب بأفانين من الجمل المعترضة من قوله: وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري [البقرة: ٢٥] إلى قوله:

الخاسرون [البقرة: ٢٧] .

وليس في قوله: كيف تكفرون بالله تناسب مع قوله: إن الله لا يستحيي أن

يضرب مثلا ما

[البقرة: ٢٦] وما بعده مما حكى عن الذين كفروا في قولهم: ماذا أراد الله بهذا مثلا [البقرة: ٢٦] حتى يكون الانتقال إلى الخطاب في قوله: تكفرون التفاتا، فالمناسبة بين موقع هاته الآية بعد ما قبلها هي مناسبة اتحاد الغرض، بعد استيفاء ما

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٥٥/١

تخلل واعترض.

ومن بديع المناسبة وفائق التفنن في ضروب الانتقالات في المخاطبات أن كانت العلل التي قرن بها الأمر بعبادة الله تعالى في قوله: يا أيها الناس اعبدوا ربكم [البقرة: ٢١] إلخ هي العلل التي قرن بها إنكار ضد العبادة وهو الكفر به تعالى في قوله هنا: كيف تكفرون بالله فقال فيما تقدم: الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون [البقرة: ٢١] الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء [البقرة: ٢٢] الآية وقال هنا: وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء

[البقرة: ٢٩] وكان ذلك مبدأ التخلص إلى ما سيرد من بيان ابتداء إنشاء نوع الإنسان وتكوينه وأطواره.

فالخطاب في قوله: تكفرون متعين رجوعه إلى (الناس) وهم المشركون لأن اليهود لم يكفروا بالله ولا أنكروا الإحياء الثاني.

و (كيف) اسم لا يعرف اشتقاقه يدل على حالة خاصة وهي التي يقال لها الكيفية نسبة إلى." (١)

"وقد أريد من هذه القصة إظهار مزية نوع الإنسان وأن الله يخص أجناس مخلوقاته وأنواعها بما اقتضته حكمته من الخصائص والمزايا لئلا يخلو شيء منها عن فائدة من وجوده في هذا العالم وإظهار فضيلة المعرفة، وبيان أن العالم حقيق بتعظيم من حوله إياه وإظهار ما للنفوس الشريرة الشيطانية من الخبث والفساد، وبيان أن الاعتراف بالحق من خصال الفضائل الملائكية، وأن الفساد والحسد والكبر من مذام ذوي العقول.

والقول في إعراب (إذ) كالقول الذي تقدم في تفسير قوله: وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة [البقرة: ٣٠].

وإظهار لفظ الملائكة ولفظ آدم هنا دون الإتيان بضميريهما كما في قوله: قالوا سبحانك [البقرة: ٣٢] وقوله: فلما أنبأهم [البقرة: ٣٣] لتكون القصة المعطوفة معنونة بمثل عنوان القصة المعطوف عليها إشارة إلى جدارة المعطوفة بأن تكون قصة مقصورة غير مندمجة في القصة التي قبلها.

وغير أسلوب إسناد القول إلى الله فأتي به مسندا إلى ضمير العظمة وإذ قلنا وأتى به في الآية السابقة مسندا إلى رب النبيء وإذ قال ربك [البقرة: ٣٠] للتفنن ولأن القول هنا تضمن أمرا بفعل فيه غضاضة على المأمورين فناسبه إظهار عظمة الآمر، وأما القول السابق بمجرد إعلام من الله بمراده ليظهر رأيهم، ولقصد اقتران الاستشارة بمبدأ تكوين الذات الأولى من نوع الإنسان المحتاج إلى التشاور فناسبه الإسناد إلى الموصوف بالربوبية المؤذنة بتدبير شأن المربوبين. وأضيف إلى ضمير أشرف المربوبين وهو النبيء صلى الله عليه وسلم كما تقدم عند قوله تعالى: وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة.

وحقيقة السجود طأطأة الجسد أو إيقاعه على الأرض بقصد التعظيم لمشاهد بالعيان كالسجود للملك والسيد والسجود للكواكب، قال تعالى: وخروا له سجدا [يوسف:

١٠٠] ، وقال لا تسجدوا للشمس ولا للقمر [فصلت: ٣٧] وقال الأعشى:

فلما أتانا بعيد الكرى ... سجدنا له وخلعنا العمارا

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٧٣/١

وقال أيضا:

يراوح من صلوات الملي ... ك طورا سجودا وطورا جؤارا

أو." (١)

"[سورة البقرة (٢) : الآيات ٣٨ إلى ٣٩]

قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٣٨) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٣٩)

كررت جملة قلنا اهبطوا فاحتمل تكريرها أن يكون لأجل ربط النظم في الآية القرآنية من غير أن تكون دالة على تكرير معناها في الكلام الذي خوطب به آدم فيكون هذا التكرير لمجرد اتصال ما تعلق بمدلول وقلنا اهبطوا [البقرة: ٣٦] وذلك قوله: بعضكم لبعض عدو [البقرة: ٣٦] وقوله: فإما يأتينكم مني هدى. إذ قد فصل بين هذين المتعلقين ما اعترض بينهما من قوله: فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم [البقرة: ٣٧] فإنه لو عقب ذلك بقوله: فإما يأتينكم مني هدى لم يرتبط كمال الارتباط ولتوهم السامع أنه خطاب للمؤمنين على عادة القرآن في التفنن فلدفع ذلك أعيد قوله: قلنا اهبطوا فهو قول واحد كرر مرتين لربط الكلام ولذلك لم يعطف قلنا لأن بينهما شبه كمال الاتصال لتنزل قوله: قلنا اهبطوا منها جميعا من قوله: وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو منزلة التوكيد اللفظي ثم بني عليه قوله: فإما يأتينكم مني هدى الآية وهو مغاير لما بني على قوله: وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ليحصل شيء من تجدد فائدة في الكلام لكي لا يكون إعادة اهبطوا مجرد توكيد ويسمى هذا الأسلوب في علم البديع بالترديد نحو قوله تعالى: لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب [آل عمران: ١٨٨] وإفادته التأكيد حاصلة بمجرد إعادة اللفظ (١) .

وقيل هو أمر ثاني بالهبوط بأن أهبط آدم من الجنة إلى السماء الدنيا بالأمر الأول ثم أهبط من السماء الدنيا إلى الأرض فتكون إعادة قلنا اهبطوا للتنبيه على اختلاف زمن القولين والهبوط وهو تأويل يفيد أن المراحل والمسافات لا عبرة بها عند المسافر ولأن ضمير منها المتعين للعود إلى الجنة لتنسق الضمائر في قوله: وكلا منها رغدا [البقرة: ٣٥]

---

(١) أردت بهذا أن أنبه على أن ما وقع في «الكشاف» أن اهبطوا الثاني تأكيد أراد به ما يقارب التأكيد وهو أنه يحصل من مجرد إعادة اللفظ. تقرير لمدلوله في الذهن وإن لم يكن المقصود من ذكره." (٢)

"بوقوع الفعل عسيرا أو بعدمه وعدم مقاربته» واعتذر في شرحه للتسهيل عن ذي الرمة في تغييره بيته بأنه غيره لدفع احتمال هذا الاستعمال.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤٢١/١

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤٤٠/١

وذهب قوم إلى أن كاد إن نفيت بصيغة المضارع فهي لنفي المقاربة وإن نفيت بصيغة الماضي فهي للإثبات وشبهته أن جاءت كذلك في الآيتين لم يكد يراها [النور: ٤٠] وما كادوا يفعلون وأن نفي الفعل الماضي لا يستلزم الاستمرار إلى زمن الحال بخلاف نفي المضارع. وزعم بعضهم أن قولهم ما كاد يفعل وهم يريدون أنه كاد ما يفعل إن ذلك من قبيل القلب الشائع.

وعندي أن الحق هو المذهب الثاني وهو أن نفيها في معنى الإثبات وذلك لأنهم لما وجدوها في حالة الإثبات مفيدة معنى النفي جعلوا نفيها بالعكس كما فعلوا في لو ولولا ويشهد لذلك مواضع استعمال نفيها فإنك تجد جميعها بمعنى مقاربة النفي لا نفي المقاربة ولعل ذلك من قبيل القلب المطرد فيكون قولهم ما كاد يفعل ولم يكد يفعل بمعنى كاد ما يفعل، ولا يبعد أن يكون هذا الاستعمال من بقايا لغة قديمة من العربية تجعل حرف النفي الذي حقه التأخير مقدما ولعل هذا الذي أشار إليه المعري بقوله: «جرت في لساني جرهم وثمود» ويشهد لكون ذلك هو المراد تغيير ذي الرمة بيته وهو من أهل اللسان وأصحاب الذوق، فإنه وإن كان من عصر المولدين إلا أنه لانقطاعه إلى سكنى باديته كان في مرتبة شعراء العرب حتى عد فيمن يحتج بشعره، وما كان مثله ليغير شعره بعد التفكر لو كان

لصحته وجه فما اعتذر به عنه ابن مالك في «شرح التسهيل» ضعيف. وأما دعوى المجاز فيه فيضعفها اطراد هذا الاستعمال حتى في آية لم يكد يراها فإن الواقف في الظلام إذا مد يده يراها بعناء وقال تأبط شرا «فأبت إلى فهم وما كدت آئبا» وقال تعالى: ولا يكاد يبين [الزخرف: ٥٢] . وإنما قال: وما كادوا يفعلون ولم يقل يذبحون كراهية إعادة اللفظ تفننا في البيان.

[٧٢، ٧٣]

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٧٢ إلى ٧٣]

وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون (٧٢) فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون (٧٣)

تصديره بإذ على طريقة حكاية ما سبق من تعداد النعم والألطاف ومقابلتهم إياها بالكفران والاستخفاف يومىء إلى أن هذه قصة غير قصة الذبح ولكنها حدثت عقب الأمر بالذبح." (١)

"المجاز حتى ساوى الحقيقة وصار غير محتاج إلى القرينة فآل اللفظ إلى الدلالة على القدر المشترك بالاستعمال لا بأصل الوضع وقد دل على ذلك العطف في قوله: أو أشد قسوة كما سيأتي.

وقوله: فهي كالحجارة تشبيه فرع بالفاء لإرادة ظهور التشبيه بعد حكاية الحالة المعبر عنها بقست لأن القسوة هي وجه الشبه ولأن أشهر الأشياء في هذا الوصف هو الحجر فإذا ذكرت القسوة فقد تهيأ التشبيه بالحجر ولذا عطف بالفاء أي إذا علمت أنها قاسية فشبهها بالحجارة كقول النابغة يصف الحجيج:

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٥٥٩/١

عليهن شعث عامدون لربهم ... فهن كأطراف الحني خواشع

وقد كانت صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر لأنها محسوسة فلذلك شبه بها، وهذا الأسلوب يسمى عندي تهيئة التشبيه وهو من محاسنه، وإذا تتبعت أساليب التشبيه في كلامهم تجدها على ضربين ضرب لا يهيأ فيه التشبيه وهو الغالب وضرب يهيأ فيه كما هنا والعطف بالفاء في مثله حسن جدا وأما أن يأتي المتكلم بما لا يناسب التشبيه فذلك عندي بعد مذموما.

وقد رأيت بيتا جمع تهيئة التشبيه والبعد عنه وهو قول ابن نباتة:

في الريق سكر وفي الأصداغ تجعيد ... هذا المدام وهاتيك العناقيد

فإنه لما ذكر السكر تهيأ التشبيه بالخمر ولكن قوله: تجعيد لا يناسب العناقيد.

فإن قلت لم عددته مذموما وما هو إلا كتجريد الاستعارة؟

قلت: لا لأن التجريد يجيء بعد تكرر الاستعارة وعلم بها فيكون تفننا لطيفا بخلاف ما يجيء قبل العلم بالتشبيه.

وقوله: أو أشد قسوة مرفوع على أنه خبر مبتدأ دل عليه قوله: فهي كالحجارة و (أو) بمعنى بل الانتقالية لتوفر شرطها وهو كون معطوفها جملة. وهذا المعنى متولد من معنى التخيير الموضوعة له (أو) لأن الانتقال ينشأ عن التخيير فإن القلوب بعد أن شبهت بالحجارة وكان الشأن يكون المشبه أضعف في الوصف من المشبه به يبنى على ذلك ابتداء التشبيه بما هو أشهر ثم عقب التشبيه بالترقي إلى التفضيل في وجه الشبه على حد قول ذي الرمة (١) :

---

(١) نسبه إليه ابن جني وقال البغدادي لم أجده في «ديوان ذي الرمة» .." (١)

"[سورة البقرة (٢) : آية ٨٣]

وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون (٨٣)

أعيد ذكر أحوال بني إسرائيل بعد ذلك الاستطراد المتفنن فيه، فأعيد الأسلوب

القديم وهو العطف بإعادة لفظ (إذ) في أول القصص. وأظهر هنا لفظ بني إسرائيل وعدل عن الأسلوب السابق الواقع فيه التعبير بضمير الخطاب المراد به سلف المخاطبين وخلفهم لوجهين: أحدهما أن هذا رجوع إلى مجادلة بني إسرائيل وتوقيفهم على مساويهم فهو افتتاح ثان جرى على أسلوب الافتتاح الواقع في قوله تعالى: يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم [البقرة: ٤٠] الآية. ثانيهما: أن ما سيذكر هنا لما كان من الأحوال التي اتصف بها السلف والخلف وكان المقصود الأول منه إثبات سوء صنيع الموجودين في زمن القرآن تعين أن يعبر عن سلفهم باللفظ الصريح ليتأتى توجيه الخطاب من بعد ذلك إلى المخاطبين حتى لا يظن أنه من الخطاب الذي أريد به أسلافهم على وزان وإذ نجيناكم من آل فرعون [البقرة: ٤٩] أو على وزان ثم اتخذتم العجل من بعده [البقرة: ٥١] .

وقوله: ميثاق بني إسرائيل أريد به أسلافهم لأنهم الذين أعطوا الميثاق لموسى على امتثال ما أنزل الله من التوراة كما قدمناه،

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٥٦٣/١

أو المراد بلفظ (بني إسرائيل) المتقدمون والمتأخرون، والمراد بالخطاب في توليتم خصوص من بعدهم لأنهم الذين تولوا فليس في الكلام التفات ما، وهو أولى من جعل ما صدق بني إسرائيل هو ما صدق ضمير توليتم وأن الكلام التفات.

وقوله: لا تعبدون إلا الله خبر في معنى الأمر ومجيء الخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر لأن الخبر مستعمل في غير معناه لعلاقة مشابهة الأمر الموثوق بامتثاله بالشيء الحاصل حتى إنه يخبر عنه. وجملة لا تعبدون مبدأ بيان للميثاق فلذلك فصلت وعطف ما بعدها عليها ليكون مشاركا لها في معنى البيانية سواء قدرت أن أو لم تقدرها أو قدرت قولا محذوفا.

وقوله: وبالوالدين إحسانا هو مما أخذ عليهم الميثاق به وهو أمر مؤكد لما دل عليه تقديم المتعلق على متعلقه وهما بالوالدين إحسانا وأصله وإحسانا بالوالدين، والمصدر بدل." (١)

"[٨٤- ٨٦]

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٨٤ الى ٨٦]

وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون (٨٤) ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون (٨٥) أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون (٨٦)

وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون (٨٤) ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان.

تفنن الخطاب هنا فجاء على نسق ما قبل الآية السابقة، إذ عبر هنا عن جميع بني إسرائيل بضمير الخطاب على طريق التغليب لأن المخاطبين حين نزول القرآن (١) هم المقصودون من هذه الموعظة أو على طريق تنزيل الخلف منزلة السلف كما تقدم، لأن الداعي للإظهار عند الانتقال من الاستطراد إلى بقية المقصود في الآية السابقة قد أخذ ما يقتضيه فعاد أسلوب الخطاب إلى ما كان عليه.

والقول في لا تسفكون كالقول في لا تعبدون إلا الله [البقرة: ٨٣] والسفك الصب. وإضافة الدماء إلى ضمير فاعل تسفكون اقتضت أن مفعول تسفكون هو دماء السافكين وليس المراد النهي عن أن يسفك الإنسان دم نفسه أو يخرج نفسه من داره لأن مثل هذا مما يزع المرء عنه وازعه الطبيعي فليس من شأن الشريعة الاهتمام بالنهي عنه، وإنما المراد أن لا يسفك أحد دم غيره ولا يخرج غيره من داره على حد قوله تعالى: فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم [النور: ٦١] أي فليسلم بعضكم على بعض.

فوجه إضافة الدماء إلى ضمير السافكين أن هذه الأحكام المتعلقة بالأمة أو القبيلة يكون مدلول الضمائر فيها مجموع

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٥٨٢/١

الناس، فإذا تعلقت أحكام بتلك الضمائر من إسناد أو مفعولية أو إضافة أرجع كل إلى ما يناسبه على طريقة التوزيع وهذا كثير في استعمال القرآن ونكتته الإشارة إلى أن المغايرة في حقوق أفراد الأمة مغايرة صورية وأنها راجعة إلى شيء واحد وهو المصلحة الجامعة أو المفسدة الجامعة، ومثله قوله تعالى: لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل [البقرة: ١٨٨] ومن هذا القبيل قول الحماسي الحارث بن وعلة الذهلي:

قومي هم قتلوا أميم أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي

فلئن عفوت لأعفون جللا ... ولئن سطوت لأوهنن عظمي

يريد أن سهمه إذا أصاب قومه فقد أضر بنفسه وإلى هذا الوجه أشار ابن عطية وسماه اللف في القول، أي الإجمال المراد به التوزيع، وذهب صاحب «الكشاف» إلى أنه من تشبيه الغير بالنفس لشدة اتصال الغير بالنفس في الأصل أو الدين فإذا قتل المتصل به نسبا أو دينا

---

(١) في المطبوعة (القراءات) .." (١)

"ومن إطلاق الوجه على الذات قوله تعالى: ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام [الرحمن: ٢٧] . وأطلق الوجه على الحقيقة تقول جاء بالأمر على وجهه أي على حقيقته قال الأعشى:

وأول الحكم على وجهه ... ليس قضاء بالهوى الجائر

ووجوه الناس أشرافهم ويجوز أن يكون (أسلم) بمعنى أخلص مشتقا من السلامة أي جعله سالما ومنه ورجلا سلما لرجل [الزمر: ٢٩] .

وقوله: وهو محسن جيء به جملة حالية لإظهار أنه لا يغني إسلام القلب وحده ولا العمل بدون إخلاص بل لا نجاة إلا بهما ورحمة الله فوق ذلك إذ لا يخلو امرؤ عن تقصير.

وجمع الضمير في قوله: ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون اعتبارا بعموم (من) كما أفراد الضمير في قوله: وجهه لله وهو محسن اعتبارا بإفراد اللفظ وهذا من تفنن العربية لدفع سآمة التكرار.

[١١٣]

[سورة البقرة (٢) : آية ١١٣]

وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون (١١٣)

معطوف على قوله: وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى [البقرة:

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٥٨٥/١

١١١] لزيارة بيان أن المجازفة دأبهم وأن رمي المخالف لهم بأنه ضال شنشنة قديمة فيهم فهم يرمون المخالفين بالضلال لمجرد المخالفة، فقديما ما رمت اليهود النصارى بالضلال ورمت النصارى اليهود بمثله فلا تعجبوا من حكم كل فريق منهم بأن المسلمين لا يدخلون الجنة، وفي ذلك إنحاء على أهل الكتاب وتطمين لخواطر المسلمين ودفع الشبهة عن المشركين بأنهم يتخذون من طعن أهل الكتاب في الإسلام حجة لأنفسهم على مناوأته وثباتا على شركهم.

والمراد من القول التصريح بالكلام الدال فهم قد قالوا هذا بالصراحة حين جاء وفد نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم أعيان دينهم من النصارى (١) فلما بلغ مقدمهم

---

(١) نجران بفتح النون وسكون الجيم قبيلة من عرب اليمن كانوا ينزلون قرية كبيرة تسمى نجران بين اليمن واليمامة وهم على دين النصرانية ولهم الكعبة اليمانية المشهورة وهي كنيستهم التي ذكرها الأعشى في شعره. وقد وفد منهم على النبيء صلى الله عليه وسلم في ستين رجلا عليهم اثنا عشر نقيبا ورئيسهم السيد وهو عبد المسيح. وأمين الوفد العاقب واسمه الأيهم وكان وفودهم في السنة الثانية من الهجرة.." (١)

"بأحوالهم الكثيرة خيرها وشرها عقب قوله: وأنهم إليه راجعون [البقرة: ٤٦] فذكر مثل هاته الجملة هناك كذكر المطلوب في صناعة المنطق قبل إقامة البرهان وذكرها هنا كذكر النتيجة في المنطق عقب البرهان تأييدا لما تقدم وفذلكة له وهو من ضروب رد العجز على الصدر.

وقد أعيدت هذه الآية بالألفاظ التي ذكرت بها هنا لك للتنبيه على نكتة التكرير للتذكير ولم يخالف بين الآيتين إلا من الترتيب بين العدل والشفاعة فهنالك قدم ولا يقبل منها شفاعة [البقرة: ٤٨] وأخر ولا يؤخذ منها عدل [البقرة: ٤٨] وهنا قدم ولا يقبل منها عدل وأخر لفظ الشفاعة مسندا إليه تنفعها وهو تفنن والتفنن في الكلام تنتفي به سآمة الإعادة مع حصول المقصود من التكرير. وقد حصل مع التفنن نكتة لطيفة إذ جاءت الشفاعة في الآية السابقة مسندا إليها المقبولية فقدمت على العدل بسبب نفي قبولها ونفي قبول الشفاعة لا يقتضي نفي أخذ الفداء فعطف نفي أخذ الفداء للاحتراس، وأما في هذه الآية فقدم الفداء لأنه أسند إليه المقبولية ونفي قبول الفداء لا يقتضي نفي نفع الشفاعة فعطف نفي نفع الشفاعة على نفي قبول الفداء للاحتراس أيضا.

والحاصل أن الذي نفي عنه أن يكون مقبولا قد جعل في الآيتين أولا وذكر الآخر بعده. وأما نفي القبول مرة عن الشفاعة ومرة عن العدل فلأن أحوال الأقوام في طلب الفكاك عن الجناة تختلف، فمرة يقدمون الفداء فإذا لم يقبل قدموا الشفعاء، ومرة يقدمون

الشفعاء فإذا لم تقبل شفاعتهم عرضوا الفداء.

وقوله: ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة مراد منه أنه لا عدل فيقبل ولا شفاعة شفيع يجدونه فتقبل شفاعته لأن دفع الفداء متعذر وتوسط الشفيع لمثلهم ممنوع إذ لا يشفع الشفيع إلا لمن أذن الله له. قال ابن عرفة فيكون نفي نفع الشفاعة

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٦٧٥/١

هنا من باب قوله:

على لا حب لا يهتدي بمناره (١) يريد أنها كناية عن نفي الموصوف بنفي صفته الملازمة

---

(١) قائله امرؤ القيس، وقبله:

وإني زعيم إن رجعت مملكا ... بسير ترى منه الفرانق أزدرا

على لا حب إلخ ... ... إذا سافه العوذ الديا في جرجرا

القرانق بضم الفاء وكسر النون هو الذي يدل صاحب البريد. وأزدرا أفعل تفضيل لغة في أصدرا قرىء بها قوله تعالى: يومئذ يصدر الناس أشتاتا [الزلزلة: ٤] . اللاحب: الطريق الواسع.

والمنار: العلامة. وسافه: شده. والديافي منسوب إلى دياف- بكسر الدال- قرية تنسب لها كرام الإبل. وجرجرا: أي صوت.

والمعنى أنه يعدانه إذا رجع ليعيدن السير في طريق صعبة المسالك.

وفي «شرح التفتازاني على المفتاح» في باب الإيجاز والإطناب ذكر أول هذا البيت هكذا:

سدا بيديه ثم أج بسيره ... على لاحب ... إلخ.

قال وهو في وصف ظليم وسدا بمعنى مد وهو مجاز عن السرعة. وأج الظليم إذا جرى وسمع له حفيف.." (١)

"والمراد من تطهير البيت ما يدل عليه لفظ التطهير من محسوس بأن يحفظ من القاذورات والأوساخ ليكون المتعبد فيه مقبلا على العبادة دون تكدير، ومن تطهير معنوي

وهو أن يبعد عنه ما لا يليق بالقصد من بنائه من الأصنام والأفعال المنافية للحق كالعدوان والفسوق، والمنافية للمروءة كالطواف عريا دون ثياب الرجال والنساء.

وفي هذا تعريض بأن المشركين ليسوا أهلا لعمارة المسجد الحرام لأنهم لم يطهروه مما يجب تطهيره منه قال تعالى: وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون [الأنفال: ٣٤] وقال: يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس [التوبة: ٢٨] .

والطائفون والعاكفون والراكعون والساجدون أصناف المتعبدين في البيت من طواف واعتكاف وصلاة، وهم أصناف المتلبسين بتلك الصفات سواء انفردت بعض الطوائف ببعض هذه الصفات أو اجتمعت الصفات في طائفة أو طوائف، وذلك كله في الكعبة قبل وضع المسجد الحرام، وهؤلاء هم إسماعيل وأبناؤه وأصهاره من جرهم وكل من آمن بدين الحنيفية من جيرانهم.

وقد جمع الطائف والعاكف جمع سلامة، وجمع الراكع والساجد جمع تكسير، **تفننا** في الكلام وبعدا عن تكرير الصيغة أكثر من مرة بخلاف نحو قوله: مسلمات مؤمنات قانتات تائبات [التحريم: ٥] الآية، وقوله: إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات [الأحزاب: ٣٥] الآية، وقال ابن عرفة «جمع الطائفين والعاكفين جمع سلامة لأنه أقرب إلى لفظ الفعل بمنزلة

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٦٩٨/١

يطوفون أي يجددون الطواف للإشعار بعلة تطهير البيت وهو قرب هذين من البيت بخلاف الركوع والسجود فإنه لا يلزم أن يكونا في البيت ولا عنده فلذلك لم يجمع جمع سلامة» ، وهذا الكلام يؤذن بالفرق بين جمع السلامة وجمع التكسير من حيث الإشعار بالحدوث والتجدد، ويشهد له كلام أبي الفتح ابن جني في «شرح الحماسة» عند قول الأحوص الأنصاري:

فإذا تزول تزول عن متخمط ... تخشى بوادره على الأقران

قال أبو الفتح: «جاز أن يتعلق على ببوادر، وإن كان جمعا مكسرا والمصدر إذا كسر بعد بتكسيره عن شبه الفعل، وإذا جاز تعلق المفعول به بالمصدر مكسرا نحو «مواعيد عرقوب أخاه» كان تعلق حرف الجر به أجوز» . فصريح كلامه أن التكسير يبعد ما هو بمعنى الفعل عن شبه الفعل.." (١)

"وخولف بين الركوع والسجود زيادة في التفنن وإلا فإن الساجد يجمع على سجد إلا أن الأكثر فيهما إذا اقترنا أن يخالف بين صيغتيهما قال كثير:

لو يسمعون كما سمعت كلامها ... خروا لعزة ركعا وسجودا

وقد علمتم من النحو والصرف أن جمع فاعل على فعول سماعي فمنه شهود وهجوع وهجود وسجود.

ولم يعطف السجود على (الركع) لأن الوصفين متلازمان ولو عطف لتوهم أنهما وصفان مفترقان.

[١٢٦]

[سورة البقرة (٢) : آية ١٢٦]

وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير (١٢٦)

عطف على وإذ جعلنا البيت مثابة [البقرة: ١٢٥] لإفادة منقبة ثالثة لإبراهيم عليه السلام في استجابة دعوته بفضل مكة والنعمة على ساكنيها إذا شكروا، وتنبيه ثالث لمشركي مكة يومئذ ليتذكروا دعوة أبيهم إبراهيم المشعرة بحرصه على إيمانهم بالله واليوم الآخر حتى خص من ذريته بدعوته المؤمنين فيعرض المشركون أنفسهم على الحال التي سألها أبوهم فيتضح لهم أنهم على غير تلك الحالة، وفي ذلك بعث لهم على الاتصاف بذلك لأن للناس رغبة في الاقتداء بأسلافهم وحنينا إلى أحوالهم، وفي ذلك كله تعريض بهم بأن ما يدلون به من النسب لإبراهيم ومن عمارة المسجد الحرام ومن شعائر الحج لا يغني عنهم من الإشراك بالله، كما عرض بالآيات قبل ذلك باليهود والنصارى وذلك في قوله هنا: ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير وبه تظهر مناسبة ذكر هذه المنقبة عقب قوله تعالى: وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا [البقرة: ١٢٥] .

واسم الإشارة في قوله: هذا بلدا مراد به الموضع القائم به إبراهيم حين دعائه وهو المكان الذي عليه امرأته وابنه وعزم على

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٧١٢/١

بناء الكعبة فيه إن كان الدعاء قبل البناء، أو الذي بني فيه الكعبة إن كان الدعاء بعد البناء، فإن الاستحضار بالذات مغن عن الإشارة الحسية." (١)

"في قوله: قل بل ملة إلخ فلكونه جوابا مواليا لقولهم: كونوا هودا [البقرة: ١٣٥] بضمير الجمع فعلم أنه رد عليهم بلسان الجميع، وأما في قوله الآتي:

قل أتحاجوننا فلأنه بعد أن أفرد قل جمع الضمائر في أتحاجوننا، وربنا، ولنا، وأعمالنا، ونحن، ومخلصون، فانظر بدائع النظم في هاته الآيات ودلائل إعجازها.

وقدم الإيمان بالله لأنه لا يختلف باختلاف الشرائع الحق، ثم عطف عليه الإيمان بما أنزل من الشرائع.

والمراد بما أنزل إلينا القرآن، وبما عطف عليه ما أنزل على الأنبياء والرسل من وحي وما أوتوه من الكتب، والمعنى أنا آمنا بأن الله أنزل تلك الشرائع، وهذا لا ينافي أن بعضها نسخ بعضا، وأن ما أنزل إلينا نسخ جميعها فيما خالفها فيه، ولذلك قدم وما أنزل إلينا للاهتمام به، والتعبير في جانب بعض هذه الشرائع بلفظ (أنزل) وفي بعضها بلفظ (أوتي) تفنن لتجنب إعادة اللفظ الواحد مرارا، وإنما لم يفرد أحد الفعلين ولم تعطف متعلقاته بدون إعادة الأفعال تجنبا لتتابع المتعلقات فإنه كتتابع الإضافات في ما نرى.

والأسباط تقدم ذكرهم آنفا.

وجملة لا نفرق بين أحد منهم حال أو استئناف كأنه قيل كيف تؤمنون بجميعهم فإن الإيمان بحق بواحد منهم، وهذا السؤال المقدر ناشيء عن ضلالة وتعصب حيث يعتقدون أن الإيمان برسول لا يتم إلا مع الكفر بغيره وأن تزكية أحد لا تتم إلا بالطعن في غيره، وهذه زلة في الأديان والمذاهب والنحل والأحزاب والأخلاق كانت شائعة في الأمم والتلامذة فاقتلعها الإسلام، قال أبو علي بن سينا في «الإشارات» ردا على من انتصر في الفلسفة لأرسطو وتنقص أفلاطون «والمعلم الأول وإن كان عظيم المقدار لا يخرجنا الثناء عليه إلى الطعن في أساتيذه» .

وهذا رد على اليهود والنصارى إذا آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمن جاء بعدهم، فالمقصود عدم التفرقة بينهم في الإيمان ببعضهم، وهذا لا ينافي اعتقاد أن بعضهم أفضل من بعض.

وأحد أصله وحد بالواو ومعناه منفرد وهو لغة في واحد ومخفف منه وقيل هو صفة مشبهة فأبدلت واوه همزة تخفيفا ثم صار بمعنى الفرد الواحد فتارة يكون بمعنى ما ليس بمتعدد وذلك." (٢)

"وأن الله سميع عليم عطف على قوله: بأن الله لم يك مغيرا أي ذلك بأن الله يعلم ما يضمره الناس وما يعملونه ويعلم ما ينطقون به فهو يعاملهم بما يعلم منهم. وذكر صفة سميع قبل صفة عليم يومئ إلى أن التغيير الذي أحدثه المعرض بهم متعلق بأقوالهم وهو دعوتهم آلهة غير الله تعالى.

[٥٤]

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٧١٣/١

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٧٣٩/١

[سورة الأنفال (٨) : آية ٥٤]

كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين (٥٤)

تكرير لقوله: كدأب آل فرعون المذكور قبله لقصد التأكيد والتسميع، تقرير للإنذار والتهديد، وخولف بين الجملتين تفننا في الأسلوب، وزيادة للفائدة، بذكر التكذيب هنا بعد ذكر الكفر هناك، وهما سببان للأخذ والإهلاك كما قدمناه آنفا.

وذكر وصف الربوبية هنا دون الاسم العلم لزيادة تفظيع تكذيبهم، لأن الاجتراء على الله مع ملاحظة كونه ربا للمجترئ، يزيد جراءته قبحا لإشعاره بأنها جراءة في موضع الشكر، لأن الرب يستحق الشكر.

وعبر بالإهلاك عوض الأخذ المتقدم ذكره ليفسر الأخذ بأنه آل إلى الإهلاك، وزيد

الإهلاك بيانا بالنسبة إلى آل فرعون بأنه إهلاك الغرق.

وتنوين كل للتعويض عن المضاف إليه، أي: وكل المذكورين، أي آل فرعون والذين من قبلهم.

[٥٥- ٥٧]

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٥٥ إلى ٥٧]

إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون (٥٥) الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون (٥٦) فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون (٥٧)

استئناف ابتدائي انتقل به من الكلام على عموم المشركين إلى ذكر كفار آخرين هم الذين بينهم بقوله: الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم الآية. وهؤلاء عاهدوا." (١)

"و «ما أخذ» هو مال الفداء، والخير منه هو الأوفر من المال بأن ييسر لهم أسباب الثروة بالعطاء من أموال الغنائم وغيرها. فقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس بعد إسلامه من فيء البحرين. وإنما حملنا الخير على الأفضل من المال لأن ذلك هو الأصل في التفضيل بين شيئين أن يكون تفضيلا في خصائص النوع، ولأنه عطف عليه قوله: ويغفر لكم وذلك هو خير الآخرة المترتب على الإيمان، لأن المغفرة لا تحصل إلا للمؤمن.

والتذييل بقوله: والله غفور رحيم للإيماء إلى عظم مغفرته التي يغفر لهم، لأنها

مغفرة شديد الغفران رحيم بعباده، فمثال المبالغة وهو غفور المقتضي قوة المغفرة وكثرتها، مستعمل فيهما باعتبار كثرة المخاطبين وعظم المغفرة لكل واحد منهم.

وقرأ الجمهور من الأسرى - بفتح الهمزة وراء بعد السين- مثل أسرى الأولى، وقرأها أبو عمرو، وأبو جعفر من الأسارى- بضم الهمزة وألف بعد السين وراءه- فورود هما في هذه الآية تفنن.

[٧١]

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤٦/١٠

[سورة الأنفال (٨) : آية ٧١]

وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم (٧١)

الضمير في يريدوا عائد إلى من في أيديكم من الأسرى. وهذا كلام خاطب به الله رسوله صلى الله عليه وسلم اطمئنانا لنفسه، وليبلغ مضمونه إلى الأسرى، ليعلموا أنهم لا يغلبون الله ورسوله. وفيه تقرير للمنة على المسلمين التي أفادها قوله: فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا [الأنفال: ٦٩] ، فكل ذلك الإذن والتطييب بالتهنئة والطمأنة بأن ضمن لهم، إن خانهم الأسرى بعد رجوعهم إلى قومهم ونكثوا عهدهم وعادوا إلى القتال، بأن الله يمكن المسلمين منهم مرة أخرى، كما أمكنهم منهم في هذه المرة، أي: أن ينووا من العهد بعدم العود إلى الغزو خيانتك، وإنما وعدوا بذلك لينجوا من القتل والرق، فلا يضركم ذلك، لأن الله ينصركم عليهم ثاني مرة. والخيانة نقض العهد وما في معنى العهد كالأمانة.." (١)

"الهوادة في قتالهم، وهي قوله: كيف يكون للمشركين عهد [التوبة: ٧] وقوله:

كيف وإن يظهروا عليكم [التوبة: ٨] وقوله يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم [التوبة: ٨] وقوله: وأكثرهم فاسقون [التوبة: ٨] وقوله: اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا [التوبة: ٩] وقوله: لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة [التوبة: ١٠] وقوله: وأولئك هم المعتدون [التوبة: ١٠] وقوله: إنهم لا أيمان لهم [التوبة: ١٢] .

فكانت جملة ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم تحذيرا من التراخي في مبادرتهم بالقتال.

ولفظ ألا يحتمل أن يكون مجموع حرفين: هما همزة الاستفهام، و (لا) النافية، ويحتمل أن يكون حرفا واحدا للتحضيض، مثل قوله تعالى: ألا تحبون أن يغفر الله لكم [النور: ٢٢] . فعلى الاحتمال الأول يجوز أن يكون الاستفهام إنكاريا، على انتفاء مقاتلة المشركين في المستقبل، وهو ما ذهب إليه البيضاوي، فيكون دفعا لأن يتوهم

المسلمون حرمة لتلك العهود. ويجوز أن يكون الاستفهام تقريريا، وهو ظاهر ما حمله عليه صاحب «الكشاف» ، تقريرا على النفي تنزيلا لهم منزلة من ترك القتال فاستوجب طلب إقراره بتركه، قال في «الكشاف» : ومعناه الحض على القتال على سبيل المبالغة، وفي «مغني اللبيب» أن ألا التي للاستفهام عن النفي تختص بالدخول على الجملة الاسمية، وسلمه شارحاه، ولا يخفى أن كلام «الكشاف» ينادي على خلافه.

وعلى الاحتمال الثاني أن يكون ألا حرفا واحدا للتحضيض فهو تحضيض على القتال. وجعل في «المغني» هذه الآية مثالا لهذا الاستعمال على طريقة المبالغة في التحذير ولعل موجب هذا التفنن في التحذير من التهاون بقتالهم مع بيان استحقاقهم إياه:

أن كثيرا من المسلمين كانوا قد فرحوا بالنصر يوم فتح مكة ومالوا إلى اجتناء ثمرة السلم، بالإقبال على إصلاح أحوالهم وأموالهم، فلذلك لما أمروا بقتال هؤلاء المشركين كانوا مظنة التثاقل عنه خشية الهزيمة، بعد أن فازوا بسمعة النصر، وفي قوله عقبه أتخشونهم ما يزيد هذا وضوحا.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٨١/١٠

أما نكثهم أيمانهم فظاهر مما تقدم عند قوله تعالى: إلا الذين عاهدتم من المشركين [التوبة: ٤]- وقوله- إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم [التوبة:
٤] الآية. وذلك نكثهم عهد الحديبية إذ أعانوا بني بكر على خزاعة وكانت خزاعة من جانب عهد المسلمين كما تقدم.." (١)

"في الجاهلية، وهذا يقتضي عدم التفرقة في ضمائر التأنيث بين فيهاو فيهن وأن الاختلاف بينهما في الآية تفنن وظلم النفس هو فعل ما نهى الله عنه وتوعد عليه، فإن فعله إلقاء بالنفس إلى العذاب، فكان ظلما للنفس قال تعالى: ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله [النساء: ٦٤] الآية وقال: ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه
[النساء: ١١٠] .
والأنفس تحتمل أنها أنفس الظالمين في قوله: فلا تظلموا أي لا يظلم كل واحد نفسه. ووجه تخصيص المعاصي في هذه الأشهر بالنهي: أن الله جعلها مواقيت للعبادة، فإن لم يكن أحد متلبسا بالعبادة فيها فليكن غير متلبس بالمعاصي، وليس النهي عن المعاصي فيها بمقتض أن المعاصي في غير هذه الأشهر ليست منهيا عنها، بل المراد أن المعصية فيها أعظم وأن العمل الصالح فيها أكثر أجرا، ونظيره قوله تعالى: ولا فسوق ولا جدال في الحج [البقرة: ١٩٧] فإن الفسوق منهي عنه في الحج وفي غيره.
ويجوز أن يكون الظلم بمعنى الاعتداء، ويكون المراد بالأنفس أنفس غير الظالمين، وإضافتها إلى ضمير المخاطبين للتنبيه على أن الأمة كالنفس من الجسد على حد قوله تعالى: فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم [النور: ٦١] ، أي على الناس الذين فيها على أرجح التأويلين في تلك الآية، وكقوله: إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم [آل عمران:
١٦٤] والمراد على هذا تأكيد حكم الأمن في هذه الأشهر، أي لا يعتدي أحد على آخر بالقتال كقوله تعالى: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام [المائدة:
٩٧] وإنما يستقيم هذا المعنى بالنسبة لمعاملة المسلمين مع المشركين فيكون هذا تأكيدا لمنطوق قوله: فسيحوا في الأرض أربعة أشهر [التوبة: ٢] ولمفهوم قوله: فإذا انسلخ
الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين
[التوبة: ٥] وهي مقيدة بقوله: فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم [التوبة: ٧] وقوله: الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم
[البقرة: ١٩٤] . ولذلك لا يشكل الأمر بمقاتلة الرسول عليه الصلاة والسلام هوازن أياما من ذي القعدة لأنهم ابتدأوا بقتال المسلمين قبل دخول الأشهر الحرم، فاستمرت الحرب إلى أن دخلوا في شهر ذي القعدة، وما كان ليكف القتال عند

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٣٢/١٠

مشارفة هزيمة المشركين وهم بدأوهم أول مرة، وعلى هذا المحمل يكون حكم هذه الآية قد انتهى بانقراض المشركين من بلاد العرب بعد سنة الوفود.." (١)

"وفعل المضي في قوله: وعد الله إما لأنه إخبار عن وعد تقدم في آي القرآن قصد من الإخبار به التذكير به لتحقيقه، وإما أن يكون قد صيغ هذا الوعد بلفظ المضي على طريقة صيغ العقود مثل بعت وتصدقت، لكون تلك الصيغة معهودة في الالتزام الذي لا

يتخلف. وقد تقدم نظيره آنفا في قوله: وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم [التوبة: ٦٨] .

والإظهار في مقام الإضمار دون أن يقال: وعدهم الله: لتقريرهم في ذهن السامع ليتمكن تعلق الفعل بهم فضل تمكن في ذهن السامع.

وتقدم الكلام على نحو قوله: جنات تجري من تحتها الأنهار عند قوله تعالى:

وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار في سورة البقرة [٢٥] .

وعطف ومساكن طيبة في جنات عدن على جنات للدلالة على أن لهم في الجنات قصورا ومساكن طيبة، أي ليس فيها شيء من خبث المساكن من الأوساخ وآثار علاج الطبخ ونحوه نظير قوله: ولهم فيها أزواج مطهرة [البقرة: ٢٥] .

و (العدن) : الخلد والاستقرار المستمر، فجنات عدن هي الجنات المذكورة قبل، فذكرها بهذا اللفظ من الإظهار في مقام الإضمار مع التفنن في التعبير والتنويه بالجنات، ولذلك لم يقل: ومساكن طيبة فيها.

وجملة: ورضوان من الله أكبر معطوفة على جملة وعد الله المؤمنين.

والرضوان- بكسر الراء- ويجوز ضمها. وكسر الراء لغة أهل الحجاز، وضمها لغة تميم.

وقرأه الجمهور- بكسر الراء- وقرأه أبو بكر عن عاصم بضم الراء ونظيره بالكسر قليل في المصادر ذات الألف والنون. وهو مصدر كالرضى وزيادة الألف والنون فيه تدل على قوته، كالغفران والشكران.

والتنكير في رضوان للتنويع، يدل على جنس الرضوان، وإنما لم يقرن بلام تعريف الجنس ليتوسل بالتنكير إلى الإشعار بالتعظيم فإن رضوان الله تعالى عظيم.." (٢)

"وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرب نزول هذه الآية. ولعل من حكمة الإعلام بهذا الجهاد تهيئة المسلمين لجهاد كل قوم ينقضون عرى الإسلام وهم يزعمون أنهم مسلمون، كما فعل الذين منعوا الزكاة وزعموا أنهم لم يكفروا وإنما الزكاة حق الرسول في حياته، وما ذلك إلا نفاق من قادتهم اتبعه دهماؤهم، ولعل هذه الآية كانت سببا في انزجار معظم المنافقين عن النفار وإخلاصهم الإيمان كما ورد في قصة الجلاس بن سويد. وكان قد كفى الله شر متولي كبر النفاق عبد الله بن أبي بن سلول بموته فكان كل ذلك كافيا عن إعمال الأمر بجهادهم في هذه الآية وكفى الله المؤمنين القتال [الأحزاب: ٢٥] .

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٠/١٨٦

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٠/٢٦٤

وهذه الآية تدل على التكفير بما يدل على الكفر من قائله أو فاعله دلالة بينة، وإن لم يكن أعلن الكفر.

واغلظ عليهم أمر بأن يكون غليظا معهم. والغلظة يأتي معناها عند قوله:

وليجدوا فيكم غلظة في هذه السورة [١٢٣] .

وإنما وجه هذا الأمر إلى الرسول- عليه الصلاة والسلام- لأنه جبل على الرحمة

فأمر بأن يتخلى عن جبلته في حق الكفار والمنافقين وأن لا يغضي عنهم كما كان شأنه من قبل.

وهذه الآية تقتضي نسخ إعطاء الكفار المؤلفة قلوبهم على الإسلام وإنما يبقى ذلك للداخلين في الإسلام حديثا.

وجملة: وبئس المصير تذييل. وتقدم نظيره مرات. والمأوى ما يأوي إليه المرء من المكان، أي يرجع إليه.

والمصير المكان الذي يصير إليه المرء، أي يرجع فالاختلاف بينه وبين المأوى بالاعتبار، والجمع بينهما هنا تفنن." (١)

"ليصلي عليه، فلما قام رسول الله وثبت إليه فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا وكذا، كذا وكذا أعدد عليه قوله، فتبسم رسول الله وقال: «أخر عني يا عمر» فلما أكثرت عليه قال: «إني خيرت فاخترت، لو أعلم أني لو زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها» . قال: فصلى عليه رسول الله ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة ولا تصل على أحد منهم مات أبدا إلى قوله: وهم فاسقون قال: فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله والله ورسوله أعلم اه»

. وفي رواية أخرى فلم يصل رسول الله على أحد منهم بعد هذه الآية حتى قبض صلى الله عليه وسلم وإنما صلى عليه وأعطاه قميصه ليكفن فيه إكراما لابنه عبد الله وتأليفا للخزرج.

وقوله: منهم صفة أحد. وجملة مات صفة ثانية ل أحد.

ومعنى ولا تقم على قبره لا تقف عليه عند دفنه لأن المشاركة في دفن المسلم حق على المسلم على الكفاية كالصلاة عليه فترك النبيء صلى الله عليه وسلم الصلاة عليهم وحضور دفنهم إعلان بكفر من ترك ذلك له.

وجملة: إنهم كفروا بالله ورسوله تعليلية ولذلك لم تعطف وقد أغنى وجود (إن) في أولها عن فاء التفريع كما هو الاستعمال.

والفسق مراد به الكفر فالتعبير ب فاسقون عوض (كافرون) مجرد تفنن. والأحسن أن يفسر الفسق هنا بالخروج عن الإيمان بعد التلبس به، أي بصورة الإيمان فيكون المراد من الفسق معنى أشنع من الكفر.

وضمائر إنهم كفروا وماتوا وهم فاسقون عائد إلى أحد لأنه عام لكونه نكرة في سياق النهي والنهي كالنفي. وأما وصفه بالإفراد في قوله مات فجرى على لفظ الموصوف لأن أصل الصفة مطابقة الموصوف.." (٢)

"ثانيها: أن هذه الآية عطف فيها الأولاد على الأموال بدون إعادة حرف النفي، وفي الآية السالفة أعيدت (لا) النافية، ووجه ذلك أن ذكر الأولاد في الآية السالفة لمجرد التكملة والاستطراد إذ المقام مقام ذم أموالهم إذ لم ينتفعوا بها فلما كان ذكر الأولاد تكملة كان شبيها بالأمر المستقل فأعيد حرف النفي في عطفه، بخلاف مقام هذه الآية فإن أموالهم

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٦٧/١٠

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٨٥/١٠

وأولادهم معا مقصود تحقيرهما في نظر المسلمين.

ثالثها: أنه جاء هنا قوله: إنما يريد الله أن يعذبهم بإظهار أن دون لام، وفي الآية السالفة إنما يريد الله ليعذبهم [التوبة: ٥٥] بذكر لام التعليل وحذف (أن) بعدها وقد اجتمع الاستعمالان في قوله تعالى: يريد الله ليبين لكم- إلى قوله- والله يريد أن يتوب عليكم في سورة النساء [٢٦، ٢٧] . وحذف حرف الجر مع (أن) كثير. وهنالك قدرت أن بعد اللام وتقدير (أن) بعد اللام كثير. ومن محاسن التأكيد الاختلاف في اللفظ وهو **تفنن** على أن تلك اللام ونحوها قد اختلف فيها فقيل هي زائدة، وقيل: تفيد التعليل.

وسماها بعض أهل اللغة (لام أن) ، وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى: يريد الله ليبين لكم في سورة النساء [٢٦] .

رابعها: أنه جاء في هذه الآية أن يعذبهم بها في الدنيا وجاء في الآية السالفة في الحياة الدنيا [التوبة: ٥٥] ونكتة ذلك أن الآية السالفة ذكرت حالة أموالهم في حياتهم فلم تكن حاجة إلى ذكر الحياة. وهنا ذكرت حالة أموالهم بعد مماتهم لقوله: ولا تصل على أحد منهم مات أبدا [التوبة: ٨٤] فقد صاروا إلى حياة أخرى وانقطعت حياتهم الدنيا وأصبحت حديثا.

وبقية تفسير هذه الآية كتفسير سالفتها.

[٨٦]

[سورة التوبة (٩) : آية ٨٦]

وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين (٨٦)

هذا عطف غرض على غرض قصد به الانتقال إلى تقسيم فرق المتخلفين عن الجهاد من المنافقين وغيرهم وأنواع معاذيرهم ومراتبها في القبول. دعا إليه الإغلاظ." (١)

"والمعية في قوله: معكم مجازية مستعملة في الإشراك في مطلق الانتظار.

[٢١]

[سورة يونس (١٠) : آية ٢١]

وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون (٢١)

لما حكى تمرد المشركين بين هنا أنهم في ذلك لاهون ببطرهم وازدهائهم بالنعمة والدعة فأنساهم ما هم فيه من النعمة أن يتوقعوا حدوث ضده **فتفننوا** في التكذيب بوعيد الله أفانين الاستهزاء، كما قال تعالى: وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا [المزمل: ١١] .

وجاء الكلام على طريقة الحكاية عن حالهم، والملقى إليه الكلام هو النبيء صلى الله عليه وسلم والمؤمنون. وفيه تعريض بتذكير الكفار بحال حلول المصائب بهم لعلهم يتذكرون، فيعدوا عدة الخوف من حلول النقمة التي

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٨٧/١٠

أنذرهم بها في قوله فانتظروا [يونس: ٢٠] كما

في الحديث: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»

. فالمراد ب الناس الناس المعهودون المتحدث عنهم بقرينة السياق على الوجهين المتقدمين في قوله تعالى: وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه [يونس: ١٢] .

وقد قيل: إن الآية تشير إلى ما أصاب قريشا من القحط سبع سنين بدعاء النبيء صلى الله عليه وسلم ثم كشف الله عنهم القحط وأنزل عليهم المطر، فلما حيوا طفقوا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكيدون له. والقحط الذي أصاب قريشا هو المذكور في سورة الدخان. وقد أنذروا فيها بالبطشة الكبرى. وقال ابن عباس: هي بطشة يوم بدر. فتكون هذه الآية قد نزلت بعد انقراض السبع السنين التي هي كسني يوسف وبعد أن حيوا، فتكون قد نزلت بعد سنة عشر من البعثة أو سنة إحدى عشرة.

والإذاقة: مستعملة في مطلق الإدراك استعارة أو مجازا، كما تقدم في قوله:

ليذوق وبال أمره في سورة العقود." (١)

"عن الجمع في صلة (من) الثانية هو **التفنن** وكراهية إعادة صيغة الجمع لثقلها لا سيما بعد أن حصل فهم المراد، أو لعل اختلاف الصيغتين للمناسبة مع مادة فعلي (يستمع) و (ينظر) .

ففعل (ينظر) لا تلائمه صيغة الجمع لأن حروفه أثقل من حروف (يستمع) فيكون العدول استقصاء لمقتضى الفصاحة. [٤٤]

[سورة يونس (١٠) : آية ٤٤]

إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون (٤٤)

تذييل، وشمل عموم الناس المشركين الذين يستمعون ولا يهتدون وينظرون ولا يعتبرون. والمقصود من هذا التذييل التعريض بالوعيد بأن سينالهم ما نال جميع الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسل الله. وعموم الناس الأول على بابه وعموم الناس الثاني مراد به خصوص الناس الذين ظلموا أنفسهم بقرينة الخبر. وإنما حسن الإتيان في جانب هؤلاء بصيغة العموم تنزيلا للكثرة منزلة الإحاطة لأن ذلك غالب حال الناس في ذلك الوقت.

وهذا الاستدراك أشعر بكلام مطوي بعد نفي الظلم عن الله، وهو أن الله لا يظلم الناس بعقابه من لم يستوجب العقاب ولكن الناس يظلمون فيستحقون العقاب، فصار المعنى أن الله لا يظلم الناس بالعقاب ولكنهم يظلمون أنفسهم بالاعتداء على ما أراد منهم فيعاقبهم عدلا لأنهم ظلموا فاستوجبوا العقاب.

وتقديم المفعول على عامله لإفادة تغليطهم بأنهم ما جنوا بكفرهم إلا على أنفسهم وما ظلموا الله ولا رسله فما أضروا بعملهم

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٣٢/١١

إلا أنفسهم.

وقرأ الجمهور بتشديد نون لكن ونصب الناس. وقرأ حمزة والكسائي وخلف بتخفيف النون ورفع الناس.." (١)

"[سورة يونس (١٠) : آية ٤٥]

ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين (٤٥)

عطف على: ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم [يونس: ٢٨] عطف القصة على القصة عودا إلى غرض من الكلام بعد تفصيله وتفريعه وذم المسوق إليهم وتقريعهم فإنه لما جاء فيما مضى ذكر يوم الحشر إذ هو حين افتضاح ضلال المشركين ببراءة شركائهم منهم أتبع ذلك بالتقريع على عبادتهم الأصنام مع وضوح براهين الوحدانية لله تعالى. وإذ كان القرآن قد أبلغهم ما كان يعصمهم من ذلك الموقف الذليل لو اهتدوا به

أتبع ذلك بالتنويه بالقرآن وإثبات أنه خارج عن طوق البشر وتسفيه الذين كذبوه وتفننوا في الإعراض عنه واستوفي الغرض حقه عاد الكلام إلى ذكر يوم الحشر مرة أخرى إذ هو حين خيبة أولئك الذين كذبوا بالبعث وهم الذين أشركوا وظهر افتضاح شركهم في يوم الحشر فكان مثل رد العجز على الصدر.

وانتصب يوم على الظرفية لفعل خسر. والتقدير: وقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله يوم نحشرهم، فارتباط الكلام هكذا: وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون وقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله يوم نحشرهم. وتقديم الظرف على عامله للاهتمام لأن المقصود الأهم تذكيرهم بذلك اليوم وإثبات وقوعه مع تحذيرهم ووعيدهم بما يحصل لهم فيه.

ولذلك عدل عن الإضمار إلى الموصولية في قوله: قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله دون قد خسروا، للإيماء إلى أن سبب خسرانهم هو تكذيبهم بلقاء الله وذلك التكذيب من آثار الشرك فارتبط بالجملة الأولى، وهي جملة: ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم إلى قوله: وضل عنهم ما كانوا يفترون [يونس: ٢٨- ٣٠] .

وقرأ الجمهور نحشرهم بنون العظمة، وقرأه حفص عن عاصم بياء الغيبة، فالضمير يعود إلى اسم الجلالة في قوله قبله: إن الله لا يظلم الناس شيئا [يونس: ٤٤] .." (٢)

"وجملة: إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون صفة ل (أجل) ، أي

أجل محدود لا يقبل التغير. وقد تقدم الكلام على نظيرها في سورة الأعراف.

وإذا في هذه الآية مشربة معنى الشرط، فلذلك اقترنت جملة عاملها بالفاء الرابطة للجواب معاملة للفعل العامل في (إذا) معاملة جواب الشرط.

[٥٠، ٥١]

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٥٠ إلى ٥١]

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٨٠/١١

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٨١/١١

قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون (٥٠) أثم إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون (٥١)

هذا جواب ثان عن قولهم: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين [يونس: ٤٨] باعتبار ما يتضمنه قولهم من الوعد بأنهم يؤمنون إذا حق الوعد الذي توعدهم به، كما حكي عنهم في الآية الأخرى وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا إلى قوله: أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا [الإسراء: ٩٠- ٩٢] ، وهذا الجواب إبداء لخلل كلامهم واضطراب استهزائهم، وقع هذا الأمر بأن يجيبهم هذا الجواب بعد أن أمر بأن يجيبهم بقوله: قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله [يونس: ٤٩] ، وهذا الجواب واقع موقع التسليم الجدلي بعد أن يجاب المخطئ بالإبطال. وحاصل هذا الجواب إن قدر حصول ما سألتم تعيين وقته ونزول كسف من السماء بكم أو نحوه ماذا يحصل من فائدة لكم في طلب تعجيل حصوله إذ لا تخلون عن أن تكونوا تزعمون أنكم تؤمنون حينئذ فذلك باطل لأن العذاب يعاجلكم بالهلاك فلا يحصل إيمانكم. وهذا كما قال بعض الواعظين: نحن نريد أن لا نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت.

ووقع في خلال هذا الجواب تفنن في تخييل التهويل لهذا العذاب الموعود بقوله:

إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا تخييلا يناسب تحقق وقوعه فإن هاذين الوقتين لا يخلو." (١)

"ولك أن تجعل معنى فعل فكذبوه الاستمرار على تكذيبه مثل فعل آمنوا في

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله [النساء: ١٣٦] ، فتكون الفاء لتفريع حصول ما بعدها على حصول ما قبلها. وأما الفاء التي في جملة: فنجيناه فهي للترتيب والتعقيب، لأن تكذيب قومه قد استمر إلى وقت إغراقهم وإنجاء نوح- عليه السلام- ومن اتبعه. وهذا نظم بديع وإيجاز معجز إذ رجع الكلام إلى التصريح بتكذيب قومه الذي لم يذكر قبل بل أشير له ضمنا بقوله: إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي [يونس: ٧١] الآية، فكان كرد العجز على الصدر. ثم أشير إلى استمراره في الأزمنة كلها حتى انتهى بإغراقهم، فذكر إنجاء نوح وإغراق المكذبين له، وبذلك عاد الكلام إلى ما عقب مجادلة نوح الأخيرة قومه المنتهية بقوله: وأمرت أن أكون من المسلمين [يونس: ٧٢] فكان تفننا بديعا في النظم مع إيجاز بهيج.

وتقدم ذكر إنجائه قبل ذكر الإغراق الذي وقع الإنجاء منه للإشارة إلى أن إنجاءه أهم عند الله تعالى من إغراق مكذبيه، ولتعجيل المسرة للمسلمين السامعين لهذه القصة.

والفلك: السفينة، وتقدم عند قوله تعالى: والفلك التي تجري في البحر في سورة البقرة [١٦٤] .

والخلائف: جمع خليفة وهو اسم للذي يخلف غيره. وتقدم عند قوله تعالى: إني جاعل في الأرض خليفة في سورة البقرة [٣٠] . وصيغة الجمع هنا باعتبار الذين معه في الفلك تفرع على كل زوجين منهم أمة.

وتعريف قوم نوح بطريق الموصولية في قوله: وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا للإيماء إلى سبب تعذيبهم بالغرق، وأنه التكذيب

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١/١٩١

بآيات الله إنذارا للمشركين من العرب ولذلك ذيل بقوله: فانظر كيف كان عاقبة المنذرين، أي المنذرين بالعذاب المكذبين بالإنذار.." (١)

"والطبع: الختم. وهو استعارة لعدم دخول الإيمان قلوبهم. وتقدم في قوله تعالى:
ختم الله على قلوبهم في سورة البقرة [٧] .
والاعتداء: افتعال من عدا عليه، إذا ظلمه، فالمعتدين مرادف الظالمين، والمراد به المشركون لأن الشرك اعتداء فإنهم كذبوا الرسول فاعتدوا على الصادقين بلمزهم بالكذب وقد جاء في نظير هذه الآية من سورة الأعراف [١٠١] كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين (١) فهذا التحالف للتفنن في حكاية هذه العبرة في الموضعين.
[٧٥]

[سورة يونس (١٠) : آية ٧٥]
ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين (٧٥)
ثم للتراخي الرتبي لأن بعثة موسى وهارون- عليهما السلام- كانت أعظم من بعثة من سبقهما من الرسل، وخصت بعثة موسى وهارون بالذكر لأنها كانت انقلابا عظيما وتطورا جديدا في تاريخ الشرائع وفي نظام الحضارة العقلية والتشريعية فإن الرسل الذين كانوا قبل موسى إنما بعثوا في أمم مستقلة، وكانت أديانهم مقتصرة على الدعوة إلى إصلاح العقيدة، وتهذيب النفوس، وإبطال ما عظم من مفاسد في المعاملات، ولم تكن شرائع شاملة لجميع ما يحتاج إليه من نظم الأمة وتقرير حاضرها ومستقبلها.
فأما بعثة موسى فقد أتت بتكوين أمة، وتحريرها من استعباد أمة أخرى إياها، وتكوين وطن مستقل لها، وتأسيس قواعد استقلالها، وتأسيس جامعة كاملة لها، ووضع نظام سياسة الأمة، ووضع ساسة يدبرون شؤونها، ونظام دفاع يدفع المعتدين عليها من
الأمم، ويمكنها من اقتحام أوطان أمم أخرى، وإعطاء كتاب يشتمل على قوانين حياتها الاجتماعية من كثير نواحيها، فبعثة موسى كانت أول مظهر عام من مظاهر الشرائع لم يسبق له نظير في تاريخ الشرائع ولا في تاريخ نظام الأمم،

---

(١) في المطبوعة (كذلك نطبع على قلوب الكافرين) وهو خطأ. [.....]." (٢)

"ينتظر من ذلك ضد ما يحصل لهم، فالمعية في أصل الانتظار لا في الحاصل بالانتظار. و (مع) حال مؤكدة. ومن المنتظرين خبر (إن) ومفاده مفاد (مع) إذ ما صدق المنتظرين هم المخاطبون المنتظرون.
وثم ننجي رسلنا عطف على جملة: فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا لأن مثل تلك الأيام يوم عذاب. ولما كانوا مهددين

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٤٣/١١

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٤٦/١١

بعذاب يحل بموضع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عجل الله البشارة للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأنه ينجيهم من ذلك العذاب بقدرته كما أنجى الرسل من قبله.

وجملة: كذلك حقا علينا ننج المؤمنين تذييل. والإشارة ب كذلك إلى

الإنجاء المستفاد من ثم ننجي.

وحقا علينا جملة معترضة لأن المصدر بدل من الفعل، أي حق ذلك علينا حقا.

وجعله الله حقا عليه تحقيقا للتفضل به والكرامة حتى صار كالحق عليه.

وقرأ الجمهور ننجي المؤمنين بفتح النون الثانية وتشديد الجيم على وزان ننجي رسلنا. وقرأ الكسائي، وحفص عن عاصم ننجي المؤمنين بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم من الإنجاء. فالمخالفة بينه وبين نظيره الذي قبله تفنن، والمعنى واحد.

وكتب في المصحف ننج المؤمنين بدون ياء بعد الجيم على صورة النطق بها للاتقاء الساكنين.." (١)

"[سورة هود (١١) : آية ٦]

وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين (٦)

عطف على جملة: يعلم ما يسرون وما يعلنون [هود: ٥] . والتقدير: وما من دابة إلا يعلم مستقرها ومستودعها، وإنما نظم الكلام على هذا الأسلوب تفننا لإفادة التنصيص على العموم بالنفي المؤكد ب (من) ، ولإدماج تعميم رزق الله كل دابة في الأرض في أثناء إفادة عموم علمه بأحوال كل دابة، فلأجل ذلك أخر الفعل المعطوف لأن في التذكير بأن الله رازق الدواب التي لا حيلة لها في الاكتساب استدلالا على أنه عليم بأحوالها، فإن كونه رازقا للدواب قضية من الأصول الموضوعة المقبولة عند عموم البشر، فمن أجل ذلك جعل رزق الله إياها دليلا على علمه بما تحتاجه.

والدابة في اللغة: اسم لما يدب أي يمشي على الأرض غير الإنسان.

وزيادة في الأرض تأكيد لمعنى دابة في التنصيص على أن العموم مستعمل في حقيقته.

والرزق: الطعام، وتقدم في قوله تعالى: وجد عندها رزقا [آل عمران: ٣٧] .

والاستثناء من عموم الأحوال التابع لعموم الذوات والمدلول عليه بذكر رزقها الذي هو من أحوالها.

وتقديم على الله قبل متعلقه وهو رزقها لإفادة القصر، أي على الله لا على غيره، ولإفادة تركيب على الله رزقها معنى أن الله تكفل برزقها ولم." (٢)

"يدعوهم إلى استماع القرآن فيعرضون لأنهم يكرهون أن يسمعوه. قال تعالى: يل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها

[الجاثية: ٨] وقال: وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون [فصلت: ٢٦] لأنهم لو سمعوا ووعوا لاهتدوا لأن الكلام المسموع مشتمل على تركيب الأدلة ونتائجها فسماعه كاف في حصول الاهتداء.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٩٩/١١

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٥/١٢

والإبصار المنفي هو النظر في المصنوعات الدالة على الوحدانية، أي ما كانوا يوجهون أنظارهم إلى المصنوعات توجيه تأمل واعتبار بل ينظرون إليها نظر الغافل عما فيها من الدقائق، ولذلك لم يقل هنا: وما كانوا يستطيعون أن يبصروا، لأنهم كانوا يبصرونها ولكن مجرد الإبصار غير كاف في حصول الاستدلال حتى يضم إليه عمل الفكر بخلاف السمع في قوله: ما كانوا يستطيعون السمع.

ويجوز أن تكون الجملة حالا ل (أولياء) ، وسوغ كونها حالا من النكرة أن النكرة وقعت في سياق النفي. والمعنى: أنهم جعلوها آلهة لهم في حال أنها لا تستطيع السمع ولا الإبصار.

وإعادة ضمير جمع العقلاء على الأصنام على هذا الوجه منظور فيه إلى أن المشركين اعتقدوها تعقل، ففي هذا الإضمار مع نفي السمع والبصر عنها ضرب من التهكم بهم.

والإتيان بأفعال الكون في هذه الجمل أربع مرات ابتداء من قوله: أولئك لم يكونوا معجزين إلى قوله وما كانوا يبصرون لإفادة ما يدل عليه فعل الكون من تمكن الحدث المخبر به فقوله: لم يكونوا معجزين آكد من: لا يعجزون وكذلك أخواته.

والاختلاف بين صيغ أفعال الكون إذ جاء أولها بصيغة المضارع والثلاثة بعده بصيغة الماضي لأن المضارع المجزوم بحرف (لم) له معنى المضي فليس المخالفة منها إلا **تفننا**.." (١)

"فتعين هنا أن يكون العطف من مقول نوح- عليه السلام- لا من حكاية الله عنه. ثم يجوز أن يكون تنبيها على اتصال النداءات بعضها ببعض، وأن أحدها لا يغني عن الآخر، ولا يكون ذلك من قبيل الوصل لأن النداء افتتاح كلام فجملته ابتدائية وعطفها إذا عطفت مجرد عطف لفظي. ويجوز أن يكون ذلك **تفننا** عربيا في الكلام عند تكرر النداء استحسانا للمخالفة بين التأكيد والمؤكد. وسيجيء نظير هذا قريبا في قصة هود- عليه السلام- وقصة شعيب- عليه السلام-.

ومنه ما وقع في سورة المؤمن [٣٠- ٣٣] في قوله: وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ثم قال: وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار [غافر: ٣٨- ٤١] . فعطف (ويا قوم) تارة وترك العطف أخرى.

وأما مع اختلاف الوصف المنادى به فقد جاء العطف وهو أظهر لما في اختلاف وصف المنادى من شبه التغاير كقول قيس بن عاصم، وقيل حاتم الطائي:

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ... ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد

فقوله: (ويا بنة ذي البردين) عطف نداء على نداء والمنادى بهما واحد.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٧/١٢

لما أظهر لهم نوح- عليه السلام- أنه يجبرهم على إيمان يكرهونه انتقل إلى تقريبهم من النظر في نزاهة ما جاءهم به، وأنه لا يريد نفعا دنيويا بأنه لا يسألهم على ما جاء به مالا يعطونه إياه، فماذا يتهمونه حتى يقطعون بكذبه.." (١)

"والإنشاء: الإيجاد والإحداث، وتقدم في قوله تعالى: وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين في الأنعام [٦] .

وجعل الخبرين عن الضمير فعلين دون: هو منشئكم ومستعمركم لإفادة القصر، أي لم ينشئكم من الأرض إلا هو، ولم يستعمركم فيها غيره.

والإنشاء من الأرض خلق آدم من الأرض لأن إنشاءه إنشاء لنسله، وإنما ذكر تعلق خلقهم بالأرض لأنهم كانوا أهل غرس وزرع، كما قال في سورة الشعراء [١٤٦- ١٤٨] أتتركون في ما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ولأنهم كانوا ينحتون من جبال الأرض بيوتاويبنون في الأرض قصورا، كما قال في الآية الأخرى:

وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا [الأعراف: ٧٤] ،

فكانت لهم منافع من الأرض تناسب نعمة إنشائهم من الأرض فلأجل منافعهم في الأرض قيدت نعمة الخلق بأنها من الأرض التي أنشئوا منها، ولذلك عطف عليه واستعمركم فيها.

والاستعمار: الإعمار، أي جعلكم عامرينها، فالسين والتاء للمبالغة كالتي في استبقى واستفاق. ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع لأن ذلك يعد تعميرا للأرض حتى سمي الحرث عمارة لأن المقصود منه عمر الأرض.

وفرع على التذكير بهذه النعم أمرهم باستغفاره والتوبة إليه، أي طلب مغفرة أجرامهم، والإقلاع عما لا يرضاه من الشرك والفساد. ومن تفنن الأسلوب أن جعلت هذه النعم علة لأمرهم بعبادة الله وحده بطريق جملة التعليل، وجعلت علة أيضا للأمر بالاستغفار والتوبة بطريق التفريع.

وعطف الأمر بالتوبة بحرف التراخي للوجه المتقدم في قوله: ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه [هود: ٥١] في الآية المتقدمة.." (٢)

"والمريب: اسم فاعل من أراب إذا أوقع في الريب، يقال: رابه وأرابه بمعنى،

ووصف الشك بذلك تأكيد كقولهم: جد جده.

[٦٣]

[سورة هود (١١) : آية ٦٣]

قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير (٦٣)

جواب عن كلامهم فلذلك لم تعطف جملة قال وهو الشأن في حكاية المحاورات كما تقدم غير مرة.

وابتداء الجواب بالنداء لقصد التنبيه إلى ما سيقوله اهتماما بشأنه.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٥٤/١٢

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٠٨/١٢

وخاطبهم بوصف القومية له للغرض الذي تقدم في قصة نوح.
والكلام في قوله: أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة كالكلام على نظيرها في قصة نوح.
وإنما يتجه هنا أن يسأل عن موجب تقديم منه على رحمة هنا، وتأخير من عنده [هود: ٢٨] عن رحمة [هود: ٢٨] في قصة نوح السابقة.
فالجواب لأن ذلك مع ما فيه من **التفنن** بعدم التزام طريقة واحدة في إعادة الكلام المتماثل، هو أيضا أسعد بالبيان في وضوح الدلالة ودفع اللبس. فلما كان مجرور (من) الابتدائية ظرفا وهو (عند) كان صريحا في وصف الرحمة بصفة تدل على الاعتناء الرباني بها وبمن أوتيها. ولما كان المجرور هنا ضمير الجلالة كان الأحسن أن يقع عقب فعل آتاني ليكون تقييد الإيتاء بأنه من الله مشير إلى إيتاء خاص ذي عناية بالمؤتى إذ لولا ذلك لكان كونه من." (١)
"نهيهم عن أن يجعلوا الشقاق سببا للإعراض عن النظر في دعوته، فيوقعوا أنفسهم في أن يصيبهم عذاب مثل ما أصاب الأمم قبلهم فيحسبوا أنهم يمكرون به بإعراضهم وما يمكرون إلا بأنفسهم.
ولقد كان فضح سوء نواياهم الداعية لهم إلى الإعراض عن دعوته عقب إظهار حسن نيته مما دعاهم إليه بقوله: وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت [هود: ٨٨] مصادفا محز جودة الخطابة إذ رماهم بأنهم يعملون بضد ما يعاملهم به.
وجملة وما قوم لوط منكم ببعيد في موضع الحال من ضمير النصب في قوله:
أن يصيبكم والواو رابطة الجملة. ولمعنى الحال هنا مزيد مناسبة لمضمون جملتها إذ اعتبر قرب زمانهم بالمخاطبين كأنه حالة من أحوال المخاطبين.
والمراد بالبعد بعد الزمن والمكان والنسب، فزمن لوط- عليه السلام- غير بعيد في زمن شعيب- عليه السلام-، والديار قريبة من ديارهم، إذ منازل مدين عند عقبة أيلة مجاورة معان مما يلي الحجاز، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت وكان مدين بن إبراهيم- عليهما السلام- وهو جد القبيلة المسماة باسمه، متزوجا بابنة لوط.
وجملة واستغفروا ربكم عطف على جملة لا يجرمنكم شقاقي.
وجملة إن ربي رحيم ودود تعليل الأمر باستغفاره والتوبة إليه، وهو تعليل لما
يقتضيه الأمر من رجاء العفو عنهم إذا استغفروا وتابوا.
وتفنن في إضافة الرب إلى ضمير نفسه مرة وإلى ضمير قومه أخرى لتذكيرهم بأنه ربهم كيلا يستمروا على الإعراض وللتشرف بانتسابه إلى مخلوقيته.
والرحيم تقدم.." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١١/١٢
(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٤٧/١٢

"يكون تفريعا على قوله تعالى: فاستقم كما أمرت [هود: ١١٢] والآية تفريع على الأمر بالاستقامة والنهي عن الطغيان وعن الركون إلى الذين ظلموا، إذ المعنى: ولا تكونوا كالأمم من قبلكم إذ عدموا من ينهاهم عن الفساد في الأرض وينهاهم عن تكذيب الرسل فأسرفوا في غلوائهم حتى حل عليهم غضب الله إلا قليلا منهم، فإن تركتم ما أمرتم به كان حالكم كحالهم، ولأجل هذا المعنى أتي بفاء التفريع لأنه في موقع التفصيل والتعليل لجملة فاستقم كما أمرت [هود: ١١٢] وما عطف عليها كأنه قيل: وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم فلولا كان منهم بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلى آخره، أي فاحذروا أن تكونوا كما كانوا فيصيبكم ما أصابهم، وكونوا مستقيمين ولا تطغوا ولا تركنوا إلى الظالمين وأقيموا الصلاة، فغير نظم الكلام إلى هذا الأسلوب الذي في الآية لتفنن فوائده ودقائقه واستقلال أغراضه مع كونها آئلة إلى غرض يعممها. وهذا من أبدع أساليب الإعجاز الذي هو كرد العجز على الصدر من غير تكلف ولا ظهور قصد.

ويقرب من هذا المعنى

قول النبيء صلى الله عليه وسلم: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»

. و (لولا) حرف تحضيض بمعنى (هلا) . وتحضيض الفائت لا يقصد منه إلا تحذير غيره من أن يقع فيما وقعوا فيه والعبرة بما أصابهم.

والقرون: الأمم. وتقدم في أول الأنعام.

والبقية: الفضل والخير. وأطلق على الفضل البقية كناية غلبت فسارت مسرى الأمثال لأن شأن الشيء النفيس أن صاحبه لا يفرط فيه.

وبقية الناس: سادتهم وأهل الفضل منهم، قال رويشد بن كثير الطائي:

إن تذنبوا ثم تأتيني بقيتكم ... فما علي بذنب منكم فوت." (١)

"سوء العذاب. فكان مضمون جملة ويذبحون هنا مقصودا بالعد كأنه صنف آخر غير سوء العذاب اهتماما بشأنه، فعطفه من عطف الخاص على العام. وعلى

كلا النظمين قد حصل الاهتمام بهذا العذاب المخصوص بالذكر، فالقرآن حكى مراد كلام موسى- عليه السلام- من ذكر العذاب الأعم وذكر الأخص للاهتمام به، وهو حاصل على كلا النظمين. وإنما حكاه القرآن في كل موضع بطريقة تفننا في إعادة القصة بحصول اختلاف في صورة النظم مع الحفاظ على المعنى المحكي، وهو ذكر سوء العذاب مجملا، وذكر أفظع أنواعه مبينا.

وأما عطف جملة ويستحيون نساءكم في الآيات الثلاث فلأن مضمونها باستقلاله لا يصلح لبيان سوء العذاب، لأن استحياء النساء في ذاته نعمة ولكنه يصير من العذاب عند اقترانه بتذبيح الأبناء، إذ يعلم أن مقصودهم من استحياء النساء استرقاقهن وإهانتهن فصار الاستحياء بذلك القصد تهيئة لتعذيبهن. ولذلك سمي جميع ذلك بلاء.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٨٣/١٢

وأصل البلاء: الاختبار. والبلاء هنا المصيبة بالشر، سمي باسم الاختبار لأنه اختبار لمقدار الصبر، فالبلاء مستعمل في شدة المكروه من تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه على طريقة المجاز المرسل. وقد شاع إطلاق هذا بصيغة اسم المصدر بحيث يكاد لا يطلق إلا على المكروه. وما ورد منه مستعملا في الخير فإنما ورد بصيغة الفعل كقوله: ونبلوكم بالشر والخير فتنة [سورة الأنبياء: ٣٥] ، وقوله: ونبلوا أخباركم [سورة محمد: ٣١] .

وتقدم في نظيرها من سورة البقرة.

وجعل هذا الضر الذي لحقهم واردا من جانب الله لأن تخليه آل فرعون لفعل ذلك وعدم إلطافه ببني إسرائيل يجعله كالوارد من الله وهو جزاء على نبذ بني إسرائيل دينهم الحق الذي أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب- عليهم السلام- واتباههم دين القبط وعبادة آلهتهم.

واختيار وصف الرب هنا للإيماء إلى أنه أراد به صلاح مستقبلهم وتنبيههم لاجتناب عبادة الأوثان وتحريف الدين كقوله: وإن عدتم عدنا [سورة الإسراء: ٨] .." (١)

"وضمير يبعثون للبشر المعلومين من تركيب خلق آدم- عليه السلام-، وأنه يكون له نسل ولا سيما حيث خلقت زوجه حينئذ فإن ذلك يقتضي أن يكون منهما نسل.

وعبر عن يوم البعث ب يوم الوقت المعلوم تفننا تفاديا من إعادة اللفظ قضاء لحق حسن النظم، ولما فيه من التعليم بأن الله يعلم ذلك الأجل. فالمراد: المعلوم لدينا.

ويجوز أن يراد المعلوم للناس أيضا علما إجماليا.

وفيه تعريض بأن من لم يؤمنوا بذلك اليوم من الناس لا يعبأ بهم فهم كالعدم.

وهذا الإنظار رمز إلهي على أن ناموس الشر لا ينقضي من عالم الحياة الدنيا وأن نظامها قائم على التصارع بين الخير والشر والأخيار والأشرار، قال تعالى:

بل نقذف بالحق على الباطل [سورة الأنبياء: ١٨] وقال: كذلك يضرب الله الحق والباطل [سورة الرعد: ١٧] . فلذلك لم يستغن نظام العالم عن إقامة قوانين العدل والصلاح وإيداعها إلى الكفاة لتنفيذها والذود عنها.

وعطفت مقولات هذه الأقوال بالفاء لأن كل قول منها أثاره الكلام الذي قبله فتفرع عنه.

[٣٩، ٤٠]

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٣٩ إلى ٤٠]

قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين (٣٩) إلا عبادك منهم المخلصين (٤٠)

الباء في بما أغويتني للسببية، و (ما) موصولة، أي بسبب إغوائك إياي، أي بسبب أن خلقتني غاويا فسأغوي الناس.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٩٢/١٣

واللام في لأزينن لام قسم محذوف مراد بها التأكيد، وهو القسم المصرح به في قوله: قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين [سورة ص: ٨٢] .." (١)

"لكل باب فريق يدخل منه، أو لكل طبقة من النار قسم من أهل النار مقسوم على طبقات أقسام النار.

واعلم أن هذه الأقوال التي صدرت من الشيطان لدى الحضرة القدسية هي انكشاف لجبلة التطور الذي تكيفت به نفس إبليس من حين أبى من السجود وكيف تولد كل فصل من ذلك التطور عما قبله حتى تقومت الماهية الشيطانية بمقوماتها كاملة عند ما صدر منه قوله: لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين [سورة الحجر: ٣٩، ٤٠] ، فكلما حدث في جبلته فصل من تلك الماهية صدر منه قول يدل عليه فهو شبيه بنطق الجوارح بالشهادة على أهل الضلالة يوم الحساب.

وأما الأقوال الإلهية التي أجيبت بها أقوال الشيطان فمظهر للأوامر التكوينية التي قدرها الله تعالى في علمه لتطور أطوار إبليس المقومة لماهية الشيطنة، وللألطاف التي قدرها الله لمن يعتصم بها من عباده لمقاومة سلطان الشيطان. وليست تلك الأقوال كلها بمناظرة بين الله وأحد مخلوقاته ولا بغلبة من الشيطان لخالقه، فإن ضعفه تجاه عزة خالقه لا يبلغ به إلى ذلك.

[٤٥- ٤٨]

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٤٥ إلى ٤٨]

إن المتقين في جنات وعيون (٤٥) ادخلوها بسلام آمنين (٤٦) ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين (٤٧) لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين (٤٨)

استئناف ابتدائي، انتقال من وعيد المجرمين إلى بشارة المتقين على عادة القرآن في **التفنن**.

والمتقون: الموصوفون بالتقوى. وتقدمت عند صدر سورة البقرة.." (٢)

"وعبر بآل لوط- عليه السلام- لأنهم نزلوا في منزلة بين أهله فجاءوا آله وإن كان المقصود بالخطاب والمجيء هو لوط.

وتولى لوط- عليه السلام- تلقيهم كما هو شأن كبير المنزل ولكنه وجدهم في شكل غير معروف في القبائل التي كانت تمر بهم فألهم إلى أن لهم قصة غريبة ولذلك قال لهم:

إنكم قوم منكرون، أي لا تعرف قبيلتكم. وتقدم عند قوله تعالى: نكرهم في سورة هود [٧٠] .

وقد أجابوه بما يزيل ذلك إذ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون إضرابا عن قوله: إنكم قوم منكرون وإبطالا لما ظنه من كونهم من البشر الذين لم يعرف قبيلتهم فلا يأمنهم أن يعاملوه بما يضره.

وعبر عن العذاب ب «ما كانوا فيه يمترون» إيماء إلى وجه بناء الخبر وهو التعذيب، أي بالأمر الذي كان قومك يشكون

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤٩/١٤

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٥٤/١٤

في حلوله بهم وهو العذاب، فعلم أنهم ملائكة.
والمراد بالحق الخبر الحق، أي الصدق، ولذلك ذيل بجملة وإنا لصادقون.
وقوله: قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون حكاية لخطاب الملائكة لوطا- عليه السلام- لمعنى عباراتهم محولة إلى نظم عربي يفيد معنى كلامهم في نظم عربي بليغ، فبنا أن نبين خصائص هذا النظم العربي:
فإعادة فعل أتيناك بعد واو العطف مع أن فعل أتيناك مرادف لفعل جئناك دون أن يقول: وبالحق، يحتمل أن يكون للتأكيد اللفظي بالمرادف. والتعبير في أحد الفعلين بمادة المجيء وفي الفعل الآخر بمادة الإتيان لمجرد **التفنن** لدفع تكرار الفعل الواحد، كقوله تعالى في سورة الفرقان [٣٣] : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا
. وعليه تكون الباء في قوله: بما كانوا فيه يمترون وقوله: بالحق للملابسة.." (١)
"الذين لم يتعظوا بأن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم التي عرفوا أخبارها ورأوا آثارها.
ولذلك أعقب الجملة بجملة وإنها لبسبيل مقيم، أي المدينة المذكورة آنفا هي بطريق باق يشاهد كثير منكم آثارها في بلاد فلسطين في طريق تجارتكم إلى الشام وما حولها، وهذا كقوله: وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون [سورة الصافات: ١٣٧- ١٣٨] .
والمقيم: أصله الشخص المستقر في مكانه غير مرتحل. وهو هنا مستعار لآثار المدينة الباقية في المكان بتشبيهه بالشخص المقيم.
وجملة إن في ذلك لآية للمؤمنين تذييل. والإشارة إلى ما تقدم من قوله من القصة مع ما انضم إليها من التذكير بأن قراهم واضحة فيها آثار الخسف والأمطار بالحجارة المحماة.
وعبر في التذييل بالمؤمنين للتنبيه على أن المتوسمين هم المؤمنون.
وجعل ذلك (آية) بالإفراد **تفننا** لأن (آية) اسم جنس يصدق بالمتعدد، على أن مجموع ما حصل لهم آية على المقصود من القصة وهو عاقبة المكذبين. وفي مطاوي تلك الآيات آيات. والذي في درة التنزيل، أي الفرق بين جمع الآيات في الأول، وإفراده ثانيا في هذه الآية بأن ما قص من حديث لوط وضيف إبراهيم وما كان من عاقبة أمرهم كل جزء من ذلك في نفسه آية. فالمشار إليه بذلك هو عدة آيات. وأما كون قرية لوط بسبيل مقيم فهو في جملته آية واحدة. فتأمل.
[٧٨، ٧٩]

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٧٨ إلى ٧٩]
وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين (٧٨) فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين (٧٩)
وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين (٧٨) فانتقمنا منهم.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٦٣/١٤

عطف قصة على قصة لما في كلتيهما من الموعظة. وذكر هاتين القصتين المعطوفتين تكميل وإدماج، إذ لا علاقة بينهما وبين ما قبلهما من قصة إبراهيم." (١)

"واعلم أن معنى المقتسمين على الوجه المختار المقتسمون القرآن. وهذا هو معنى جعلوا القرآن عضين، فكان ثاني الوصفين بيانا لأولهما وإنما اختلفت العبارتان **للتفنن**.

وأن ذم المشبه بهم يقتضي ذم المشبهين فعلم أن المشبهين قد تلقوا القرآن العظيم بالرد والتكذيب.

[٩٢، ٩٣]

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٩٢ إلى ٩٣]

فو ربك لنسئلنهم أجمعين (٩٢) عما كانوا يعملون (٩٣)

الفاء للتفريع، وهذا تفريع على ما سبق من قوله تعالى: وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل [سورة الحجر: ٨٥] .

والواو للقسم، فالمفرع هو القسم وجوابه. والمقصود بالقسم تأكيد الخبر. وليس الرسول- عليه الصلاة والسلام- ممن يشك في صدق هذا الوعيد ولكن التأكيد متسلط على ما في الخبر من تهديد معاد ضمير النصب في لنسئلنهم.

ووصف الرب مضافا إلى ضمير النبيء صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أن في السؤال المقسم عليه حظا من التنويه به، وهو سؤال الله المكذبين عن تكذيبهم إياه سؤال رب يغضب لرسوله- عليه الصلاة والسلام-.

والسؤال مستعمل في لازم معناه وهو عقاب المسئول كقوله تعالى: ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم [سورة التكاثر: ٨] فهو وعيد للفريقين.

[٩٤- ٩٦]

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٩٤ إلى ٩٦]

فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين (٩٤) إنا كفيناك المستهزئين (٩٥) الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون (٩٦)

تفريع على جملة ولقد آتيناك سبعا من المثاني [سورة الحجر: ٨٧] بصريحه وكنايته عن التسلية على ما يلاقيه من تكذيب قومه.." (٢)

"والتفيؤ: تفعل من فاء الظل فيئا، أي عاد بعد أن أزاله ضوء الشمس. لعل أصله من فاء إذا رجع بعد مغادرة المكان، وتفيؤ الظلال تنقلها من جهات بعد شروق الشمس وبعد

زوالها.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٧٠/١٤

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٨٧/١٤

وتقدم ذكر الظلال عند قوله: وظلالهم بالغدو والآصال في سورة الرعد [١٥] .

وقوله: عن اليمين والشمائل، أي عن جهات اليمين وجهات الشمائل مقصود به إيضاح الحالة العجيبة للظل إذ يكون عن يمين الشخص مرة وعن شماله أخرى، أي إذا استقبل جهة ما ثم استدبرها.

وليس المراد خصوص اليمين والشمال بل كذلك الأمام والخلف، فاختصر الكلام.

وأفرد اليمين، لأن المراد به جنس الجهة كما يقال المشرق. وجمع الشمائل مرادا به تعدد جنس جهة الشمال بتعدد أصحابها، كما قال: فلا أقسم برب المشارق [سورة المعارج: ٤٠] . فالمخالفة بالإفراد والجمع تفنن.

ومجيء فعل يتفيؤا بتحتية في أوله على صيغة الإفراد جرى على أحد وجهين في الفعل إذا كان فاعله جمعا غير جمع تصحيح، وبذلك قرأ الجمهور. وقرأ أبو عمرو ويعقوب تتفيأ بفوقيتين على الوجه الآخر.

وأفرد الضمير المضاف إليه (ظلال) مراعاة للفظ شيء وإن كان في المعنى متعددا، وباعتبار المعنى أضيف إليه الجمع.

وسجدا حال من ضمير ظلاله العائد إلى من شيء فهو قيد للتفيؤ، أي أن ذلك التفيؤ يقارنه السجود مقارنة الحصول ضمنه. وقد مضى بيان ذلك عند قوله تعالى:

وظلالهم بالغدو والآصال في سورة الرعد.

وجملة وهم داخرون في موضع الحال من الضمير في ظلاله لأنه في معنى الجمع لرجوعه ما خلق الله من شيء. وجمع بصيغة الجمع الخاصة بالعقلاء تغليبا لأن في جملة الخلائق العقلاء وهم الجنس الأهم.." (١)

"أولئك مع الإله الحق القادر المتصرف. وإنما أجري ضمير جمعهم على صيغة جمع العالم تغليبا لجانب أحد التمثيلين وهو جانب الإله القادر.

[٧٦]

[سورة النحل (١٦) : آية ٧٦]

وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم (٧٦)

هذا تمثيل ثان للحالتين بحالتين باختلاف وجه الشبه. فاعتبر هنا المعنى الحاصل من حال الأبكم، وهو العجز عن الإدراك، وعن العمل، وتعذر الفائدة منه في سائر أحواله والمعنى الحاصل من حال الرجل الكامل العقل والنطق في إدراكه الخير وهديه إليه وإتقان عمله وعمل من يهديه، ضربه الله مثلا لكماله وإرشاده الناس إلى الحق، ومثلا للأصنام الجامدة التي لا تنفع ولا تضر.

وقد قرن في التمثيل هنا حال الرجلين ابتداء، ثم فصل في آخر الكلام مع ذكر عدم التسوية بينهما بأسلوب من نظم الكلام بديع الإيجاز، إذ حذف من صدر التمثيل ذكر الرجل الثاني للاقتصار على ذكره في استنتاج عدم التسوية تفننا في المخالفة

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٦٩/١٤

بين أسلوب هذا التمثيل وأسلوب سابقه الذي في قوله تعالى: ضرب الله مثلا عبدا مملوكا [سورة النحل: ٧٥] . ومثل هذا التفنن من مقاصد البلغاء كراهية للتكرير لأن تكرير الأسلوب بمنزلة تكرير الألفاظ.

والأبكم: الموصوف بالبكم- بفتح الباء والكاف- وهو الخرس في أصل الخلقة من وقت الولادة بحيث لا يفهم ولا يفهم.

وزيد في وصفه أنه زمن لا يقدر على شيء. وتقدم عند قوله تعالى: صم بكم عمي في أول سورة البقرة." (١)

"[سورة النحل (١٦) : آية ٧٧]

ولله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير (٧٧)

كان مما حكي من مقالات كفرهم أنهم أقسموا بالله لا يبعث الله من يموت، لأنهم توهموا أن إفناء هذا العالم العظيم وإحياء العظام وهي رميم أمر مستحيل، وأبطل الله ذلك على الفور بأن الله قادر على كل ما يريده.

ثم انتقل الكلام عقب ذلك إلى بسط الدلائل على الوحدانية والقدرة وتسلسل البيان، وتفننت الأغراض بالمناسبات، فكان من ذلك تهديدهم بأن الله لو يؤاخذ الناس بظلمهم ما ترك على الأرض من دابة، ولكنه يمهلهم ويؤخرهم إلى أجل عينه في علمه لحكمته وحذرهم من مفاجأته، فثنى عنان الكلام إلى الاعتراض بالتذكير بأن الله لا يخرج عن قدرته أعظم فعل مما غاب عن إدراكهم وأن أمر الساعة التي أنكروا إمكانها وغرهم تأخير حلولها هي مما لا يخرج عن تصرف الله ومشيئته متى شاءه. فذلك قوله تعالى: ولله غيب السماوات والأرض بحيث لم يغادر شيئا مما حكي عنهم من كفرهم وجدالهم إلا وقد بينه لهم استقصاء للأعذار لهم.

ومن مقتضيات تأخير هذا أنه يشتمل بصريحه على تعليم، وبإيمائه إلى تهديد وتحذير.

فاللام في قوله: ولله غيب السماوات والأرض لام الملك. والغيب: مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي الأشياء الغائبة. وتقدم في قوله تعالى: الذين يؤمنون بالغيب [سورة البقرة: ٣] . وهو الغائب عن أعين الناس من الأشياء الخفية والعوالم التي لا تصل إلى مشاهدتها حواس المخلوقات الأرضية.

والإخبار بأنها ملك لله يقتضي بطريق الكناية أيضا أنه عالم بها.." (٢)

"[سورة النحل (١٦) : آية ٨٩]

ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (٨٩)

ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء.

تكرير لجملة ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا [سورة النحل: ٨٤] ليبنى عليه عطف جملة وجئنا بك شهيدا على هؤلاء على جملة ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم.

ولما كان تكريرا أعيد نظير الجملة على صورة الجملة المؤكدة مقترنة بالواو، ولأن في هذه الجملة زيادة وصف من أنفسهم

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٢٧/١٤

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٢٩/١٤

فحصلت مغايرة مع الجملة السابقة والمغايرة مقتضية للعطف أيضا.
ومن دواعي تكرير مضمون الجملة السابقة أنه لبعد ما بين الجملتين بما اعترض بينهما من قوله تعالى: ثم لا يؤذن للذين كفروا إلى قوله: بما كانوا يفسدون [سورة النحل: ٨٤- ٨٨] ، فهو كالإعادة في قول لبيد:

فتنازعا سبطا يطير ظلاله ... كدخان مشعلة يشب ضرامها

مشمولة غلثت بنابت عرفج ... كدخان نار ساطع أسنامها

مع أن الإعادة هنا أجدر لأن الفصل أطول.
وقد حصل من هذه الإعادة تأكيد التهديد والتسجيل.
وعدي فعل نبعث هنا بحرف في، وعدي نظيره في الجملة السابقة بحرف (من) ليحصل التفنن بين المكررين تجديدا لنشاط السامعين.
وزيد في هذه الجملة أن الشهيد يكون من أنفسهم زيادة في التذكير بأن شهادة الرسل على الأمم شهادة لا مطعن لهم فيها لأنها شهود من قومهم لا يجد المشهود عليهم فيها
مساغا للطعن.." (١)

"وفي «السيرة الحلبية» أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ألف كتابا سماه «الشجرة» بين فيه أن هذه الآية اشتملت على جميع الأحكام الشرعية في سائر الأبواب الفقهية وسماه السبكي في الطبقات «شجرة المعارف» .
وجملة يعظكم في موضع الحال من اسم الجلالة.
والوعظ: كلام يقصد منه إبعاد المخاطب به عن الفساد وتحريضه على الصلاح.
وتقدم عند قوله تعالى: فأعرض عنهم وعظهم في سورة النساء [٦٣] .
والخطاب للمسلمين لأن الموعظة من شأن من هو محتاج للكمال النفساني، ولذلك قارنها بالرجاء ب لعلكم تذكرون.
والتذكر: مراجعة المنسي المغفول عنه، أي رجاء أن تتذكروا، أي تتذكروا بهذه الموعظة ما اشتملت عليه فإنها جامعة باقية في نفوسكم.
[٩١]

[سورة النحل (١٦) : آية ٩١]
وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون (٩١)
لما أمر الله المؤمنين بملاك المصالح ونهاهم عن ملاك المفاسد بما أومأ إليه قوله:
يعظكم لعلكم تذكرون [سورة النحل: ٩٠] . فكان ذلك مناسبة حسنة لهذا الانتقال الذي هو من أغراض تفنن القرآن،

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٥٠/١٤

وأوضح لهم أنهم قد صاروا إلى كمال وخير بذلك الكتاب المبين لكل شيء. لا جرم ذكرهم الوفاء بالعهد الذي عاهدوا الله عليه عند ما أسلموا، وهو ما بايعوا عليه النبيء صلى الله عليه وسلم مما فيه: أن لا يعصوه في معروف. وقد كان النبيء صلى الله عليه وسلم يأخذ البيعة على كل من أسلم من وقت ابتداء الإسلام في مكة.

وتكررت البيعة قبيل الهجرة وبعدها على أمور أخرى، مثل النصرة التي بايع عليها الأنصار ليلة العقبة، ومثل بيعة الحديبية.." (١)

"السلام- لم يتلبس بالإشراك قط، فإن إبراهيم- عليه السلام- لم يشرك بالله منذ صار مميزا، وأنه لا يتلبس بالإشراك أبدا.

وشاكرا لأنعمه خبر رابع عن كان. وهو مدح لإبراهيم- عليه السلام- وتعريض بذريته الذين أشركوا وكفروا نعمة الله مقابل قوله: فكفرت بأنعم الله [سورة النحل: ١١٢] . وتقدم قريبا الكلام على أنعم الله.

وجملة اجتباه مستأنفة استئنافا بيانيا، لأن الثناء المتقدم يثير سؤال سائل عن سبب فوز إبراهيم بهذه المحامد، فيجاب بأن الله اجتباه، كقوله تعالى: الله أعلم حيث يجعل رسالاته [سورة الأنعام: ١٢٤] .

والاجتباء: الاختيار، وهو افتعال من جبى إذا جمع. وتقدم في قوله تعالى واجتباهم وهديناهم إلى صراط مستقيم في سورة الأنعام [٨٧] .

والهداية إلى الصراط المستقيم: الهداية إلى التوحيد ودين الحنيفية.

وضمير آتيناه التفات من الغيبة إلى التكلم **تفننا** في الأسلوب لتوالي ثلاثة ضمائر غيبة.

والحسنة في الدنيا: كل ما فيه راحة العيش من اطمئنان القلب بالدين، والصحة، والسلامة، وطول العمر، وسعة الرزق الكافي، وحسن الذكر بين الناس. وقد تقدم في قوله: ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة [سورة البقرة: ٢٠١] .

والصلاح: تمام الاستقامة في دين الحق. واختير هذا الوصف إشارة إلى أن الله أكرمه بإجابة دعوته، إذ حكى عنه أنه قال: رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين [سورة الشعراء: ٨٣] .." (٢)

"وتخصيص من بعد نوح إيجاز، كأنه قيل من قوم نوح فمن بعدهم، وقد جعل زمن نوح مبدأ لقصص الأمم لأنه أول رسول، واعتبر القصص من بعده لأن زمن نوح صار كالمنقطع بسبب تجديد عمران الأرض بعد الطوفان، ولأن العذاب الذي حل بقومه عذاب مهول وهو الغرق الذي أحاط بالعالم.

ووجه ذكره تذكير المشركين به وأن عذاب الله لا حد له، والتنبيه على أن الضلالة تحول دون الاعتبار بالعواقب ودون الاتعاظ بما يحل بمن سبق وناهيك بما حل بقوم نوح من العذاب المهول.

وجملة وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا إقبال على خطاب النبيء صلى الله عليه وسلم بالخصوص، لأن كل ما سبق من الوعيد والتهديد إنما مآله إلى حمل الناس على تصديق

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٦٠/١٤

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣١٧/١٤

محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من القرآن بعد أن لجوا في الكفر وتفننوا في التكذيب، فلا جرم ختم ذلك بتطمين النبيء بأن الله مطلع على ذنوب القوم. وهو تعريض بأنه مجازيهم بذنوبهم بما يناسب فظاعتها، ولذلك جاء بفعل كفى وبوصفي خبيرا بصيرا المكنى بذكرهما عن عدم إفلات شيء من ذنوبهم المرئية والمعلومة من ضمائرهم أعني أعمالهم ونواياهم. وقدم ما هو متعلق بالضمائر والنوايا لأن العقائد أصل الأعمال في الفساد والصلاح.

وفي الحديث: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»

. وفي ذكر فعل (كفى) إيماء إلى أن النبيء غير محتاج إلى من ينتصر له غير ربه فهو كافية وحسبه، قال: فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم [البقرة: ١٣٧] أو إلى أنه في غنية عن الهم في شأنهم كقوله لنوح: فلا تسئلن ما ليس لك به علم [هود: ٤٦] فهذا إما تسلية له عن أذاهم وإما صرف له عن التوجع لهم.

وفي خطاب النبيء بذلك تعريض بالوعيد لسامعيه من الكفار.." (١)

"خبر (كان) فعلا مضارعا لدلالته على الاستمرار زيادة تحقيق لتمحض إرادته في ذلك.

والعاجلة صفة موصوف محذوف يعلم من السياق، أي الحياة العاجلة، كقوله:

من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها [هود: ١٥] .

والمراد من التعجيل العرفي وهو المبادرة المتعارفة، أي أن يعطى ذلك في الدنيا قبل الآخرة، فذلك تعجيل بالنسبة إلى الحياة الدنيا، وقرينة ذلك قوله: فيها.

وإنما زاد قيدي ما نشاء لمن نريد لأن ما يعطاه من أرادوا العاجلة يعطاه بعضهم بالمقادير التي شاء الله إعطاءها.

والمشيئة: الطواعية وانتفاء الإكراه.

وقوله: لمن نريد بدل من قوله: له بدل بعض من كل بإعادة العامل، فضمير له عائد إلى من باعتبار لفظه، وهو عام لكل مريد العاجلة فأبدل منه بعضه، أي عجلنا لمن نريد منكم، ومفعول الإرادة محذوف دل عليه ما سبقه، أي لمن نريد التعجيل له، وهو نظير مفعول المشيئة الذي كثر حذفه لدلالة كلام سابق. وفيه خصوصية البيان بعد الإبهام. ولو كان المقصود غير ذلك لوجب في صناعة الكلام التصريح به.

والإرادة: مرادف المشيئة، فالتعبير بها بعد قوله: ما نشاء تفنن. وإعادة حرف الجر العامل في المبدل منه لتأكيد معنى التبعية وللاستغناء عن الربط بضمير المبدل منهم بأن يقال: من نريد منهم.

والمعنى: أن هذا الفريق الذي يريد الحياة الدنيا فقط قد نعطي بعضهم بعض ما يريد على حسب مشيئتنا وإرادتنا لأسباب مختلفة. ولا يخلوا أحد في الدنيا من أن يكون قد عجل له بعض ما يرغبه من لذات الدنيا.." (٢)

"[٢٦، ٢٧]

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٥/٥٧

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٥/٥٩

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٢٦ الى ٢٧]

وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا (٢٦) إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا (٢٧)

وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل.

القرابة كلها متشعبة عن الأبوة فلا جرم انتقل من الكلام على حقوق الأبوين إلى الكلام على حقوق القرابة.

وللقرابة حقان: حق الصلة، وحق المواساة. وقد جمعهما جنس الحق في قوله حقه. والحوالة فيه على ما هو معروف وعلى أدلة أخرى.

والخطاب لغير معين مثل قوله: إما يبلغن عندك الكبر [الإسراء: ٢٣] .

والعدول عن الخطاب بالجمع في قوله: ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين [الإسراء: ٢٥] الآية إلى الخطاب بالإفراد بقوله: وآت ذا القربى تفنن لتجنب كراهة إعادة الصيغة الواحدة عدة مرات، والمخاطب غير معين فهو في معنى الجمع. والجملة معطوفة على جملة ألا تعبدوا إلا إياه [الإسراء: ٢٣] لأنها من جملة ما قضى الله به.

والإيتاء: الإعطاء. وهو حقيقة في إعطاء الأشياء، ومجاز شائع في التمكين من الأمور المعنوية كحسن المعاملة والنصرة. ومنه قول النبيء صلى الله عليه وسلم: «ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها» الحديث.

وإطلاق الإيتاء هنا صالح للمعنيين كما هي طريقة القرآن في توفير المعاني وإيجاز الألفاظ.

وقد بينت أدلة شرعية حقوق ذي القربى ومراتبها: من واجبة مثل بعض النفقة على بعض القرابة مبينة شروطها عند الفقهاء، ومن غير واجبة مثل الإحسان.

وليس لهاته تعلق بحقوق قرابة النبيء صلى الله عليه وسلم لأن حقوقهم في المال تقررت بعد الهجرة لما فرضت الزكاة وشرعت المغانم والأفياء وقسمتها. ولذلك حمل جمهور العلماء هذه الآية على حقوق قرابة." (١)

"والزعم: القول المستبعد أو المحال.

والقبيل: الجماعة من جنس واحد. وهو منصوب على الحال من الملائكة، أي هم قبيل خاص غير معروف، كأنهم قالوا: أو تأتي بفريق من جنس الملائكة.

والزخرف: الذهب.

وإنما عدي ترقى في السماء بحرف (في) الظرفية للإشارة إلى أن الرقي تدرج في السماوات كمن يصعد في المرقاة والسلم.

ثم تفننوا في الاقتراح فسألوه إن رقى أن يرسل إليهم بكتاب ينزل من السماء يقرؤونه، فيه شهادة بأنه بلغ السماء. قيل: قائل ذلك عبد الله بن أبي أمية، قال: حتى تأتينا بكتاب معه أربعة من الملائكة يشهدون لك.

ولعلهم إنما أرادوا أن ينزل عليهم من السماء كتابا كاملا دفعة واحدة، فيكونوا قد ألحدوا بتنجيم القرآن، توهما بأن تنجيمه

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٥/٧٦

لا يناسب كونه منزلا من عند الله لأن التنجيم عندهم يقتضي التأمل والتصنع في تأليفه، ولذلك يكثر في القرآن بيان حكمة تنجيمه.

واللام في قوله: لرقيك يجوز أن تكون لام التبيين. على أن «رقيك» مفعول نؤمن مثل قوله: لن نؤمن لك فيكون ادعاء الرقي منفيا عنه التصديق حتى ينزل عليهم كتاب. ويجوز أن تكون اللام لام العلة ومفعول نؤمن محذوفا دل عليه قوله قبله: لن نؤمن لك. والتقدير: لن نصدقك لأجل رقيك هي تنزل علينا كتابا. والمعنى:

أنه لو رقى في السماء لكذبوا أعينهم حتى يرسل إليهم كتابا يرونه نازلا من السماء. وهذا تورك منهم وتهكم.

ولما كان اقتراحهم اقتراح ملاجة وعناد أمره الله بأن يجيبهم بما يدل على التعجب من كلامهم بكلمة سبحان ربي التي تستعمل في التعجب كما." (١)

"وقوله: إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا يقتضي بصريحه أنهم قالوا بألسنتهم وهو مع ذلك كناية عن اعتقادهم ما قالوه. ولذلك جعل قولهم ذلك مانعا من أن يؤمنوا لأن اعتقاد قائليه يمنع من إيمانهم بضده ونطقهم بما يعتقدونه يمنع من يسمعونهم من متبعي دينهم.

وإلقاء هذا الكلام بصيغة الحصر وأداة العموم جعله تذييلا لما مضى من حكاية تفننهم في أساليب التكذيب والتهكم.

فالظاهر حمل التعريف في الناس على الاستغراق. أي ما منع جميع الناس أن

يؤمنوا إلا ذلك التوهم الباطل لأن الله حكى مثل ذلك عن كل أمة كذبت رسولها فقال حكاية عن قوم نوح ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين [المؤمنون: ٢٤] . وحكي مثله عن هود ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون [المؤمنون: ٣٣- ٣٤] ، وعن قوم صالح ما أنت إلا بشر مثلنا [سورة الشعراء: ١٥٤] ، وعن قوم شعيب وما أنت إلا بشر مثلنا [الشعراء: ١٨٦] ، وحكي عن قوم فرعون فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا

[المؤمنون: ٤٧] . وقال في قوم محمد صلى الله عليه وسلم بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب [ق: ٢] .

وإذ شمل العموم كفار قريش أمر الرسول بأن يجيبهم عن هذه الشبهة بقوله: لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين الآية، فاختص الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم باجتثاث هذه الشبهة من أصلها اختصاصا لم يلقنه من سبق من الرسل، فإنهم تلقوا تلك الشبهة باستنصار الله تعالى على أقوامهم فقال عن نوح قال رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين [الشعراء: ١١٨] .." (٢)

"والأبد: مراد منه طول المدة، أي هي باقية بقاء أمثالها لا يعتريها ما يبيدها. وهذا اغترار منه بغناه واغترار بما لتلك الجنة من وثوق الشجر وقوته وثبوته واجتماع أسباب نمائه ودوامه حوله، من مياه وظلال.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢١٠/١٥

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢١٢/١٥

وانتقل من الإخبار عن اعتقاده دوام تلك الجنة إلى الإخبار عن اعتقاده بنفي قيام الساعة.

ولا تلازم بين المعتقدين. ولكنه أراد التورك على صاحبه المؤمن تخطئة إياه، ولذلك عقب ذلك بقوله: ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا تهكما بصاحبه. وقرينة التهكم قوله: وما أظن الساعة قائمة. وهذا كقول العاصي بن وائل السهمي لخباب بن الأرت «ليكونن لي مال هنالك فأقضيك دينك منه» .

وأكد كلامه بلام القسم ونون التوكيد مبالغة في التهكم.

وانتصب منقلبا على تمييز نسبة الخبر. والمنقلب: المكان الذي ينقلب إليه، أي يرجع.

وضمير منهما للجنتين عودا إلى أول الكلام تفننا في حكاية كلامه على قراءة الجمهور منهما بالتثنية، وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف

منها بالإفراد جريا على قوله: ودخل جنته وقوله: أن تبيد هذه.

[٣٧- ٤١]

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٣٧ الى ٤١]

قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا (٣٧) لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا (٣٨) ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا (٣٩) فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا (٤٠) أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا (٤١)

قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا (٣٧) لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا (٣٨) ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

حكي كلام صاحبه بفعل القول بدون عطف للدلالة على أنه واقع موقع المحاورة والمجاوبة، كما قدمناه غير مرة.." (١)

"[سورة الكهف (١٨) : آية ٥٠]

وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا (٥٠)

عطف على جملة ويوم نسير الجبال [الكهف: ٤٧] بتقدير: واذكر إذ قلنا للملائكة، تفننا لغرض الموعظة الذي سيقت له هذه الجمل، وهو التذكير بعواقب اتباع الهوى والإعراض عن الصالحات، وبمداحض الكبرياء والعجب واحتقار الفضيلة والابتهاج بالأعراض التي لا تكسب أصحابها كمالا نفسيا. وكما وعظوا بآخر أيام الدنيا ذكروا هنا بالموعظة بأول أيامها وهو يوم خلق آدم، وهذا أيضا تمهيد وتوطئة لقوله:

ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم الآية [الكهف: ٥٢] ، فإن الإشراك كان من غرور الشيطان ببني آدم.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٥/٣٢١

ولها أيضا مناسبة بما تقدم من الآيات التي أنحت على الذين افتخروا بجاههم وأموالهم واحتقروا فقراء أهل الإسلام ولم يميزوا بين الكمال الحق والغرور الباطل، كما أشار إليه قوله تعالى: واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي [الكهف: ٢٨] ، فكان في قصة إبليس نحو آدم مثل لهم، ولأن في هذه القصة تذكيرا بأن الشيطان هو أصل الضلال، وأن خسران الخاسرين يوم القيامة آيل إلى اتباعهم خطوات الشيطان وأوليائه. ولهذا فرع على الأمرين قوله تعالى: أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو.

وهذه القصة تكررت في مواضع كثيرة من القرآن، وهي في كل موضع تشتمل على شيء لم تشتمل عليه في الآخر، ولها في كل موضع ذكرت فيه عبرة تخالف عبرة غيره، فذكرها في سورة البقرة (مثلا) إعلام بمبادىء الأمور، وذكرها هنا تنظير للحال وتوطئة للإنكار والتوبيخ، وقس على ذلك.." (١)

"والقصص: مصدر قص الأثر، إذا توخى متابعته كيلا يخطئا الطريق الأول.

والمراد بالعبد: الخضر، ووصف بأنه من عباد الله تشريفا له، كما تقدم عند قوله تعالى: سبحان الذي أسرى بعبده [الإسراء: ١] .

وعدل عن الإضافة إلى التنكير والصفة لأنه لم يسبق ما يقتضي تعريفه، وللإشارة إلى

أن هذا الحال الغريب العظيم الذي ذكر من قصته ما هو إلا من أحوال عباد كثيرين لله تعالى. وما منهم إلا له مقام معلوم.

وإيتاء الرحمة يجوز أن يكون معناه: أنه جعل مرحوما، وذلك بأن رفق الله به في أحواله. ويجوز أن يكون جعلناه سبب رحمة بأن صرفه تصرفا يجلب الرحمة العامة.

والعلم من لدن الله: هو الإعلام بطريق الوحي.

و (عند) و (لدن) كلاهما حقيقته اسم مكان قريب. ويستعملان مجازا في اختصاص المضاف إليه بموصوفهما.

و (من) ابتدائية، أي آتيناه رحمة صدرت من مكان القرب، أي الشرف وهو قرب تشريف بالانتساب إلى الله، وعلما صدر منه أيضا. وذلك أن ما أوتيه من الولاية أو النبوءة رحمة عزيزة، أو ما أوتيه من العلم عزيز، فكأنهما مما يدخر عند الله في مكان القرب التشريفي من الله فلا يعطى إلا للمصطفين.

والمخالفة بين من عندنا وبين من لدنا **للتفنن** تفاديا من إعادة الكلمة. وجملة قال له موسى ابتداء محاورة، فهو استئناف ابتدائي، ولذلك لم يقع التعبير ب (قال) مجردة عن العاطف.

والاستفهام في قوله: هل أتبعك مستعمل في العرض بقرينة أنه استفهام عن عمل نفس المستفهم. والاتباع: مجاز في المصاحبة كقوله تعالى: إن يتبعون إلا الظن [النجم: ٢٨] .." (٢)

"موسى وإنكاره، لأنه لما أنكر عليه فعلاته الثلاث كان يؤيد إنكاره بما يقتضي أنه تصرف عن خطأ.

وانتصب رحمة على المفعول لأجله فينازعه كل من (أردت) ، و (أردنا) ، و (أراد ربك) .

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٤٠/١٥

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٦٩/١٥

وجملة ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا فذلكة للجمل التي قبلها ابتداء من قوله أما السفينة فكانت لمساكين، فالإشارة بذلك إلى المذكور في الكلام السابق وهو تلخيص للمقصود كحوصلة المدرس في آخر درسه.

وتسطع مضارع (اسطاع) بمعنى (استطاع) . حذف تاء الاستفعال تخفيفا لقربها من مخرج الطاء، والمخالفة بينه وبين قوله سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا للتفنن تجنبا لإعادة لفظ بعينه مع وجود مرادفه. وابتدئ بأشهرهما استعمالا وجيء بالثانية بالفعل المخفف لأن التخفيف أولى به لأنه إذا كرر تستطع يحصل من تكريره ثقل.

وأكد الموصول الأول الواقع في قوله سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا تأكيدا للتعريض باللوم على عدم الصبر.

واعلم أن قصة موسى والخضر قد اتخذتها طوائف من أهل النحل الإسلامية أصلا بنوا عليه قواعد موهومة.

فأول ما أسسوه منها أن الخضر لم يكن نبيئا وإنما كان عبدا صالحا، وأن العلم الذي أوتيه ليس وحيا ولكنه إلهام، وأن تصرفه الذي تصرفه في الموجودات أصل لإثبات العلوم الباطنية، وأن الخضر منحه الله البقاء إلى انتهاء مدة الدنيا ليكون مرجعا لتلقي العلوم." (١)

"بنفسه، فيقال: مكناه في الأرض كقوله مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم [الأنعام: ٦] .

فاللام في قوله: مكنا له في الأرض للتوكيد كاللام في قولهم: شكرت له، ونصحت له، والجمع بينهما تفنن. وعلى ذلك جاء قوله تعالى: مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم [الأنعام: ٦] .

فمعنى التمكين في الأرض إعطاء المقدرة على التصرف.

والمراد بالأرض أهل الأرض، والمراد بالأرض أرض معينة وهي أرض ملكه.

وتقدم عند قوله تعالى: وكذلك مكنا ليوسف في الأرض [يوسف: ٥٦] .

والسبب: حقيقته الحبل، وأطلق هنا على ما يتوسل به إلى الشيء من علم أو مقدرة أو آلات التسخير على وجه الاستعارة كقوله تعالى: وتقطعت بهم الأسباب في سورة البقرة [١٦٦] .

وكل شيء مستعمل هنا في الأشياء الكثيرة كما تقدم في نظائره غير مرة منها قوله تعالى: ولو جاءتهم كل آية [يونس: ٩٧] أي آتيناه وسائل أشياء عظيمة كثيرة.

[٨٥- ٨٨]

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٨٥ إلى ٨٨]

فأتبع سببا (٨٥) حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا (٨٦) قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا (٨٧) وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا (٨٨)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٥/١٦

السبب: الوسيلة. والمراد هنا معنى مجازي وهو الطريق، لأن الطريق وسيلة إلى المكان المقصود، وقرينة المجاز ذكر الاتباع والبلوغ." (١)

"وقرأ الجمهور: قال آتوني مثل الأول. وقرأه حمزة، وأبو بكر عن عاصم آتوني على أنه أمر من الإتيان، أي أمرهم أن يحضروا للعمل.

والقطر- بكسر القاف-: النحاس المذاب.

وضمير اسطاعوا واستطاعوا ليأجوج وماجوج.

والظهور: العلو. والنقب: كسر الردم، وعدم استطاعتهم ذلك لارتفاعه وصلابته.

واسطاعوا تخفيف استطاعوا، والجمع فبينهما تفنن في فصاحة الكلام كراهية إعادة الكلمة. وابتدئ بالأخف منهما لأنه وليه الهمز وهو حرف ثقيل لكونه من الحلق، بخلاف الثاني إذ وليه اللام وهو خفيف.

ومقتضى الظاهر أن يبتدأ بفعل استطاعوا ويثنى بفعل اسطاعوا لأنه يثقل بالتكرير، كما وقع في قوله آنفا سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا [الكهف: ٧٨] ثم قوله: ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا [الكهف: ٨٢] .

ومن خصائص مخالفة مقتضى الظاهر هنا إيثار فعل ذي زيادة في المبنى بموقع فيه زيادة المعنى لأن استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلقه، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى.

وقرأ حمزة وحده فما اسطاعوا الأول بتشديد الطاء مدغما فيها التاء.." (٢)

"وذكر الرحمن هنا حكاية لقولهم بالمعنى، وهم لا يذكرون اسم الرحمان ولا يقرون به، وقد أنكروه كما حكى الله عنهم: وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن [الفرقان: ٦٠] ، فهم إنما يقولون: اتخذ الله ولدا كما حكي عنهم في آيات كثيرة منها آية سورة الكهف [٤] . فذكر الرحمن هنا وضع للمرادف في موضع مرادفه، فذكر اسم الرحمن لقصد إغاظتهم بذكر اسم أنكروه.

وفيه أيضا إيماء إلى اختلال قولهم لمنافاة وصف الرحمان اتخاذ الولد كما سيأتي في قوله: وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا.

والخطاب في لقد جئتم للذين قالوا اتخذ الرحمان ولدا، فهو التفات لقصد إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد، كما تقدم في قوله آنفا:

وإن منكم إلا واردها [مريم: ٧١] فلا يحسن تقدير: قل لقد جئتم.

وجملة لقد جئتم شيئا إدا مستأنفة لبيان ما اقتضته جملة وقالوا اتخذ الرحمن ولدا من التشنيع والتفظيع.

وقرأ نافع والكسائي بياء تحتية على عدم الاعتداد بالتأنيث، وذلك جائز في الاستعمال إذا لم يكن الفعل رافعا لضمير مؤنث متصل، وقرأ البقية: تكاد بالتاء المثناة الفوقية، وهو الوجه الآخر.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٤/١٦

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٨/١٦

والتفطر: الانشقاق، والجمع بينه وبين وتنشق الأرض تفنن في استعمال المترادف لدفع ثقل تكرير اللفظ. والخرور: السقوط. ومن في قوله: منه للتعليل، والضمير المجرور بمن عائد إلى شيئا إدا، أو إلى القول المستفاد من قالوا اتخذ الرحمن ولدا.." (١)

"وهو عالم بمجمل أحوال القرون الأولى وغير عالم بتفاصيل أحوالهم وأحوال أشخاصهم.

وإضافة علمها من إضافة المصدر إلى مفعوله. وضمير علمها عائد إلى القرون الأولى لأن لفظ الجمع يجوز أن يؤنث ضميره.

وقوله في كتاب يحتمل أن يكون الكتاب مجازا في تفصيل العلم تشبيها له بالأمور المكتوبة، وأن يكون كناية عن تحقيق العلم لأن الأشياء المكتوبة تكون محققة كقول الحارث بن حلزة:

وهل ينقض ما في المهارق الأهواء ويؤكد هذا المعنى قوله لا يضل ربي ولا ينسى.

والضلال: الخطأ في العلم، شبه بخطأ الطريق. والنسيان: عدم تذكر الأمر المعلوم في ذهن العالم.

[٥٣- ٥٤]

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٥٣ إلى ٥٤]

الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى (٥٣) كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى (٥٤)

هذه جمل ثلاث معترضة في أثناء قصة موسى.

فالجملة الأولى منها مستأنفة ابتدائية على عادة القرآن من تفنن الأغراض لتجديد نشاط الأذهان. ولا يحتمل أن تكون من كلام موسى إذ لا يناسب ذلك تفريع قوله: فأخرجنا به أزواجا. فقوله." (٢)

"الأمر للخيل بالكر، ويكون سباء الخمر للذة مع تبطن الكاعب. فقال أبو الطيب: أدام الله عز الأمير، إن صح أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولانا يعرف أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك لأن البزاز لا يعرف إلا جملته والحائك يعرف جملته وتفصيله لأنه أخرجه من الغزلية إلى الثوبية. وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء. وأنا لما ذكرت الموت أتبعته بذكر الردى لتجانسه ولما كان وجه المهزوم لا يخلو أن يكون عبوسا وعينه من أن تكون باكية قلت:

ووجهك وضاح وثغرك باسم لأجمع بين الأضداد في المعنى.

ومعنى هذا أن امرؤ القيس خالف مقتضى الظاهر في جمع شيئين مشتهري المناسبة فجمع شيئين متناسبين مناسبة دقيقة، وأن أبا الطيب خالف مقتضى الظاهر من جمع النظيرين ففرقهما لسلوك طريقة أبدع، وهي طريقة الطباق بالتضاد وهو أعرق في صناعة البديع.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٦/١٧٠

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٦/٢٣٥

وجعلت المنة على آدم بهذه النعم مسوقة في سياق انتفاء أضدادها ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة تحذيرا منها لكي يتحامى من يسعى إلى إرزائه منها.

وقرأ نافع، وأبو بكر عن عاصم وإنك لا تظمؤا- بكسر همزة (إن) - عطفا للجملة على الجملة. وقرأ الباقون وأنك- بفتح الهمزة- عطفا على ألا تجوع عطف المفرد على المفرد، أي إن لك نفي الجوع والعري ونفي الظمأ والضحو.

وقد حصل تأكيد الجميع على القراءتين ب (إن) وبأختها، وبين الأسلوبين تفنن." (١)

"والطي: رد بعض أجزاء الجسم اللين المطلوق على بعضه الآخر، وضده النشر.

والسجل: بكسر السين وكسر الجيم هنا، وفيه لغات. يطلق على الورقة التي يكتب فيها، ويطلق على كاتب الصحيفة، ولعله تسمية على تقدير مضاف محذوف، أي صاحب السجل، وقيل سجل: اسم ملك في السماء ترفع إليه صحائف أعمال العباد فيحفظها.

ولا يحسن حمله هنا على معنى الصحيفة لأنه لا يلائم إضافة الطي إليه ولا إردافه لقوله للكتاب أو للكتب، ولا حمله على معنى الملك الموكل بصحائف الأعمال لأنه لم يكن مشهورا فكيف يشبه بفعله. فالوجه: أن يراد بالسجل الكاتب الذي يكتب الصحيفة ثم يطويها عند انتهاء كتابتها، وذلك عمل معروف. فالتشبيه بعمله رشيق.

وقرأ الجمهور للكتاب بصيغة الإفراد، وقرأه حفص وحمزة والكسائي وخلف للكتب- بضم الكاف وضم التاء- بصيغة الجمع. ولما كان تعريف السجل وتعريف الكتاب تعريف جنس استوى في المعرف الإفراد والجمع. فأما قراءتهما بصيغة الإفراد ففيها محسن مراعاة النظير في الصيغة، وأما قراءة الكتب بصيغة الجمع مع كون السجل مفردا ففيها حسن التفنن بالتضاد. ورسمها في المصحف بدون ألف يحتمل القراءتين لأن الألف قد يحذف في مثله.

واللام في قوله للكتاب لتقوية العامل فهي داخلة على مفعول طي.

ومعنى طي السماء تغيير أجرامها من موقع إلى موقع أو اقتراب بعضها من بعض كما تتغير أطراف الورقة المنشورة حين تطوى ليكتب." (٢)

"حمل قال تعالى: وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن [الطلاق: ٤] ، مع ما في هذه الإضافة من التنبيه على شدة اتصال الحمل بالحامل فيدل على أن وضعها إياه لسبب مفظع.

والقول في حمله على الحقيقة أو على معنى الكناية كالقول في تذهل كل مرضعة عما أرضعت.

والخطاب في ترى الناس

لغير معين، وهو كل من تتأتى منه الرؤية من الناس، فهو مساو في المعنى للخطاب الذي في قوله يوم ترونها

، وإنما أوثر الإفراد هنا للتفنن كراهية إعادة الجمع. وعدل عن فعل المضي إلى المضارع في قوله وترى

لاستحضار الحالة والتعجيب منها كقوله فتثير سحابا [الروم: ٤٨] وقوله ويصنع الفلك [هود: ٣٨] .

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٢٤/١٦

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٥٩/١٧

وقرأ الجمهور سكارى

- بضم السين المهملة وبألف بعد الكاف-. ووصف الناس بذلك على طريقة التشبيه البليغ. وقوله بعده وما هم بسكارى قرينة على قصد التشبيه وليبنى عليه قوله بعده ولكن عذاب الله شديد.

وقرأه حمزة والكسائي سكرى

بوزن عطشى في الموضعين. وسكارى وسكرى

جمع سكران. وهو الذي اختل شعور عقله من أثر شرب الخمر، وقياس جمعه سكارى.

وأما سكرى فهو محمول على نوكى لما في السكر من اضطراب العقل. وله نظير وهو جمع كسلان على كسالى وكسلى.

وجملة وما هم بسكارى

في موضع الحال من الناس.

وعذاب الله

صادق بعذابه في الدنيا وهو عذاب الفزع والوجع، وعذاب الرعب في الآخرة بالإحساس بلفح النار وزبن ملائكة العذاب.

وجملة وما هم بسكارى

في موضع الحال من الناس.." (١)

"وجعل انتفاء علم الإنسان عند أرذل العمر علة لرده إلى أرذل العمر باعتبار أنه علة غائية لذلك لأنه مما اقتضته حكمة الله في نظام الخلق فكان حصوله مقصودا عند رد الإنسان إلى أرذل العمر، فإن ضعف القوى الجسمية يستتبع ضعف القوى العقلية. قال تعالى: ومن نعمره ننكسه في الخلق [يس: ٦٨] فالخلق يشمل كل ما هو من الخلقة ولا يختص بالجسم.

وقوله من بعد علم أي بعد ما كان علمه فيما قبل أرذل العمر.

و (من) الداخلة على (بعد) هنا مزيدة للتأكيد على رأي الأخفش وابن مالك من عدم انحصار زيادة (من) في خصوص جر النكرة بعد نفي وشبهه، أو هي للابتداء عند الجمهور وهو ابتداء صوري يساوي معنى التأكيد ولذلك لم يؤت ب (من) في قوله تعالى: لكي لا يعلم بعد علم شيئا في [سورة النحل: ٧٠] .

والآيتان بمعنى واحد فذكر (من) هنا تفنن في سياق العبرتين.

وشيئا واقع في سياق النفي يعم كل معلوم، أي لا يستفيد معلوما جديدا.

ولذلك مراتب في ضعف العقل بحسب توغله في أرذل العمر تبلغ إلى مرتبة انعدام قبوله لعلم جديد، وقبلها مراتب من الضعف متفاوتة كمرتبة نسيان الأشياء ومرتبة الاختلاط بين المعلومات وغير ذلك.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٩١/١٧

وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

عطف على جملة فإنا خلقناكم من تراب، والخطاب لغير معين فيعم كل من يسمع هذا الكلام.." (١)

"والرزق منه ما هو حاصل لهم في الدنيا، فهم متمتعون بانشراح صدورهم ورضاهم عن ربهم، وأعظمه ما يحصل لهم في الآخرة.

والذين سعوا هم الفريق المقابل للذين آمنوا، فمعناه: والذين استمروا على الكفر، فعبر عن الاستمرار بالسعي في الآيات لأنه أخص من الكفر، وذلك حال المشركين المتحدث عنهم.

والسعي: المشي الشديد. ويطلق على شدة الحرص في العمل تشبيها للعامل الحريص بالماشي الشديد المشي في كونه يكد للوصول إلى غاية كما قال تعالى: ثم أدبر يسعى فحشر فنادى [النازعات: ٢٢- ٢٣] فليس المراد أن فرعون خرج يمشي وإنما المراد أنه صرف عنايته لإحضار السحرة لإحباط دعوة موسى. وقال تعالى: ويسعون في الأرض فسادا [المائدة: ٦٤] .

والكلام تمثيل، شبهت هيئة تفننهم في التكذيب بالقرآن وتطلب المعاذير لنقض دلائله من قولهم: هو سحر، هو شعر، هو أساطير الأولين، هو قول مجنون، وتعرضهم بالمجادلات والمناقضات للنبيء صلى الله عليه وسلم، بهيئة الساعي في طريق يسابق غيره ليفوز بالوصول.

والمعاجز: المسابق الطالب عجز مسايره عن الوصول إلى غايته وعن اللحاق به، فصيغ له المفاعلة لأن كل واحد يطلب عجز الآخر عن لحاقه. والمعنى: أنهم بعملهم يغالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم لا يشعرون أنهم يحاولون أن يغلبوا الله وقد ظنوا أنهم نالوا مرادهم في الدنيا ولم يعلموا ما لهم من سوء العاقبة.

وقرأ الجمهور معاجزين- بألف بعد العين- وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو معجزين- بفتح العين وتضعيف الجيم-، أي محاولين إعجاز الله تعالى وهم لا يعلمون.." (٢)

"وفرع على الأمر بصنع الفلك تفصيل ما يفعله عند الحاجة إلى استعمال الفلك فوقت له استعماله بوقت الاضطرار إلى إنجاء المؤمنين والحيوان.

وتقدم الكلام على معنى فار التنور ومعنى زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول في سورة هود [٤٠] .

والزوج: اسم لكل شيء له شيء آخر متصل به بحيث يجعله شفعا في حالة ما.

وتقدم في سورة هود.

وإنما عبر هنالك بقوله: قلنا احمل فيها [هود: ٤٠] وهنا بقوله: فاسلك فيها لأن آية سورة هود حكت ما خاطبه الله به عند حدوث الطوفان وذلك وقت ضيق فأمر بأن يحمل في السفينة من أراد الله إبقاءهم، فأسند الحمل إلى نوح تمثيلا للإسراع بإركاب ما عين له في السفينة حتى كأن حاله في إدخاله إياهم حال من يحمل شيئا ليضعه في موضع، وآية هذه

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٠٢/١٧

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٩٥/١٧

السورة حكت ما خاطبه الله به من قبل حدوث الطوفان إنباء بما يفعله عند حدوث الطوفان فأمره بأنه حينئذ يدخل في السفينة من عين الله إدخالهم، مع ما في ذلك من **التفنن** في حكاية القصة.

ومعنى فاسلك أدخل، وفعل (سلك) يكون قاصرا بمعنى دخل ومتعديا بمعنى أدخل ومنه قوله تعالى: ما سلككم في سقر [المدثر: ٤٢] . وقول الأعشى:

كما سلك السكي في الباب فيتق

وتقدم الكلام على مثل قوله: ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون في سورة هود [٣٧] .

وقرأ الجمهور من كل زوجين بإضافة كل إلى زوجين. وقرأه حفص بالتنوين كل على أن يكون زوجين مفعول فاسلك، وتنوين كل تنوين عوض يشعر بمحذوف أضيف إليه كل. وتقديره: من كل ما أمرتك أن تحمله في السفينة.." (١)

"زيادة اللفظ لزيادة المعنى، ولذلك حسنت قراءة من قرأ خرجا فخراج ربك خير يعني أم تسألهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير» اهـ.

وهذا الذي ينبغي التعويل عليه لأن الأصل في اللغة عدم الترادف.

هذا وقد قرأ الجمهور أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير. وقرأ ابن عامر خرجا فخرج ربك. وقرأ حمزة والكسائي وخلف أم تسئلهم خراجا فخراج ربك خير. فأما قراءة الجمهور فتوجيهها على اعتبار ترادف الكلمتين أنها جرت على **التفنن** في الكلام تجنبا لإعادة اللفظ في غير المقام المقتضي إعادة اللفظين مع قرب اللفظين بخلاف قوله تعالى قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله [سبأ: ٤٧] فإن لفظ أجر أعيد بعد ثلاثة ألفاظ.

وأما على اعتبار الفرق الذي اختاره الزمخشري فتوجيهها باشتمالها على **التفنن** وعلى محسن المبالغة.

وأما قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف فتوجيهها على طريقة الترادف أنهما وردتا على اختيار المتكلم في الاستعمال مع محسن المزاوجة بتماثل اللفظين. ولا توجهان على طريقة الزمخشري.

قال صاحب «الكشاف» : ألزمهم الله الحجة في هذه الآيات (أي قوله أفلم يدبروا القول [المؤمنون: ٦٨] إلى هنا) وقطع معاذيرهم وعللهم بأن الذي أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله، مخبور سره وعلنه، خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم، وأنه لم

يعرض (١) له حتى يدعي بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل، ولم يجعل ذلك سلما إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون

---

(١) فعل ملتزم بناؤه للنائب. ومعناه لم يكن مجنونا.." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤٦/١٨

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٩٧/١٨

"ووقع قوله: وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم في موقع التصريح بمفهوم الصفة في
قوله: والذين لم يبلغوا الحلم ليعلم أن الأطفال إذا بلغوا الحلم تغير حكمهم في الاستئذان إلى حكم استئذان الرجال الذي في قوله: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم [النور: ٢٧] الآيات، فالمراد بقوله: الذين من قبلهم فيما ذكر من الآية السابقة أو الذين كانوا يستأذنون من قبلهم وهم كانوا رجالا قبل أن يبلغ أولئك الأطفال مبلغ الرجال.

وقوله: كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم القول فيه كالقول في نظيره المتقدم آنفا، وهو تأكيد له بالتكرير لمزيد الاهتمام والامتنان. وإنما أضيفت الآيات هنا لضمير الجلالة تفننا ولتقوية تأكيد معنى كمال التبيين الحاصل من قوله: كذلك. وتأكيد معنى الوصفين «العليم الحكيم» . أي هي آيات من لدن من هذه صفاته ومن تلك صفات بيانه.

[٦٠]

[سورة النور (٢٤) : آية ٦٠]

والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم (٦٠)

هذه الآية مخصصة لقوله تعالى: ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن إلى قوله: على عورات النساء [النور: ٣١] .

ومناسبة هذا التخصيص هنا أنه وقع بعد فرض الاستيذان في الأوقات التي يضع الرجال والنساء فيها ثيابهم عن أجسادهم، فعطف الكلام إلى نوع من وضع الثياب عن لابسها وهو وضع النساء القواعد بعض ثيابهن عنهن فاستثني من عموم النساء النساء المتقدمات في السن بحيث بلغن إبان الإياس من المحيض فرخص لهن أن لا يضربن بخمرهن على جيوبهن، وأن لا يدنين عليهن من جلابيبهن. فعن ابن مسعود وابن عباس:

الثياب الجلباب، أي الرداء والمقنعة التي فوق الخمار. وقال السدي: يجوز لهن وضع الخمار أيضا.." (١)

"وعلمت أيضا أن ليس المقصود من التعريف في المؤمنون معنى الكمال لأنه لو كان كذلك لم يحصل قصد التشهير بنفاق المنافقين.

والأمر: الشأن والحال المهم. وتقدم في قوله: وأولي الأمر منكم في سورة النساء [٥٩] .

والجامع: الذي من شأنه أن يجتمع الناس لأجله للتشاور أو التعلم. والمراد: ما يجتمع المسلمون لأجله حول الرسول عليه الصلاة والسلام في مجلسه أو في صلاة الجماعة. وهذا ما يقتضيه (مع) و (على) من قوله: معه على أمر جامع لإفادة (مع) معنى المشاركة وإفادة (على) معنى التمكن منه.

ووصف الأمر ب جامع على سبيل المجاز العقلي لأنه سبب الجمع. وتقدم في قوله تعالى: فأجمعوا أمركم في سورة يونس [٧١] .

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٩٦/١٨

وعن مالك: أن هذه الآية نزلت في المنافقين يوم الخندق (وذلك سنة خمس) كان المنافقون يتسللون من جيش الخندق ويعتذرون بأعذار كاذبة.

وجملة: إن الذين يستأذنونك إلى آخرها تأكيد لجملة: إنما المؤمنون لأن مضمون معنى هذه الجملة هو مضمون معنى جملة: إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله الآية. وقد **تفنن** في نظم الجملة الثانية بتغيير أسلوب الجملة الأولى فجعل مضمون المسند في الأولى مسندا إليه في الثانية والمسند إليه في الأولى مسندا في الثانية ومآل الأسلوبين واحد لأن المآل الإخبار بأن هذا هو ذاك على حد: وشعري شعري، تنويها بشأن الاستئذان، وليبنى عليها تفريع فإذا استأذنوك لبعض شأنهم ليعلم المؤمنين الأعذار الموجبة للاستئذان، أي ليس لهم أن يستأذنوا في الذهاب إلا لشأن مهم من شؤونهم.

ووقع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: يستأذنوك تشريفا للرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب.

وقد خير الله رسوله في الإذن لمن استأذنه من المؤمنين لأنه أعلم بالشأن الذي قضاؤه أرجح من حضور الأمر الجامع لأن مشيئة النبيء لا تكون عن هوى ولكن لعذر ومصلحة.." (١)

"هم

معروفون في مثل هذا المقام وخاصة من قوله: ولم يكن له شريك في الملك [الفرقان: ٢] .

وجملة: لا يخلقون شيئا مقابلة جملة الذي له ملك السماوات والأرض [الفرقان: ٢] .

وجملة: وهم يخلقون مقابلة جملة: ولم يتخذ ولدا [الفرقان: ٢] لأن ولد الخالق يجب أن يكون متولدا منه فلا يكون مخلوقا.

وجملة: ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا مقابلة جملة: ولم يكن له شريك في الملك [الفرقان: ٢] لأن الشركة في الملك تقتضي الشركة في التصرف.

وضمير: لأنفسهم يجوز أن يعود إلى آلهة أي لا تقدر الأصنام ونحوها على ضر أنفسهم ولا على نفعهم. ويجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير واتخذوا أي لا تقدر الأصنام على نفع الذين عبدوهم ولا على ضرهم.

واعلم أن ضرا ولا نفعا هنا جرى مجرى المثل لقصد الإحاطة بالأحوال، فكأنه قيل: لا يملكون التصرف بحال من الأحوال. وهذا نظير أن يقال: شرقا وغربا، وليلا ونهارا. وبذلك يندفع ما يشكل في بادىء الرأي من وجه نفي قدرتهم على إضرار أنفسهم بأنه لا تتعلق إرادة أحد بضر نفسه، وبذلك أيضا لا يتطلب وجه لتقديم الضر على النفع، لأن المقام يقتضي التسوية في تقديم أحد الأمرين، فالمتكلم مخير في ذلك والمخالفة بين الآيات في تقديم أحد الأمرين مجرد **تفنن**.

والمجرور في لأنفسهم متعلق ب يملكون.

والضر- بفتح الضاد- مصدر ضره، إذا أصابه بمكروه. وقد تقدم نظيره في قوله تعالى: قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله في سورة يونس [٤٩] .

وجملة: ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا مقابلة جملة وخلق كل شيء فقدره تقديرا [الفرقان: ٢] لأن أعظم مظاهر تقدير

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٨/٣٠٧

الخلق هو مظهر الحياة والموت، وذلك من المشاهدات. وأما قوله: ولا نشورا فهو تكميل لقرع المشركين نفاة البعث لأن نفي أن يكون الآلهة يملكون نشورا يقتضي إثبات حقيقة النشور في نفس الأمر إذ الأكثر في كلام العرب أن نفي الشيء." (١)

"ذلك وصف داخل جهنم ووصف وضع المشركين فيها بقوله: مكانا ضيقا وقوله: مقرنين تفننا في أسلوب الكلام.

والإلقاء: الرمي. وهو هنا كناية عن الإهانة.

وانتصب مكانا على نزع الخافض، أي في مكان ضيق.

وقرأ الجمهور ضيقا بتشديد الياء، وقرأه ابن كثير ضيقا بسكون الياء وكلاهما للمبالغة في الوصف مثل: ميت وميت، لأن الضيق بالتشديد صيغة تمكن الوصف من الموصوف، والضيق بالسكون وصف بالمصدر.

ومقرنين حال من ضمير ألقوا أي مقرنا بعضهم في بعض كحال الأسرى والمساجين أن يقرن عدد منهم في وثاق واحد، كما قال تعالى: وآخرين مقرنين في الأصفاد [ص: ٣٨] . والمقرن: المقرون، صيغت له مادة التفعيل للإشارة إلى شدة القرن.

والدعاء: النداء بأعلى الصوت، والثبور: الهلاك، أي نادوا: يا ثبورنا، أو وا ثبوراه بصيغة الندبة، وعلى كلا الاحتمالين فالنداء كناية عن التمني، أي تمنوا حلول الهلاك فنادوه كما ينادى من يطلب حضوره، أو ندبوه كما يندب من يتحسر على فقده، أي تمنوا الهلاك للاستراحة من فظيع العذاب.

وجملة: لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا إلى آخرها مقولة لقول محذوف، أي يقال لهم، ووصف الثبور با لكثير إما لكثرة ندائه بالتكرير وهو كناية عن عدم حصول الثبور لأن انتهاء النداء يكون بحضور المنادى، أو هو يأس يقتضي تكرير التمني أو التحسر.

[١٥، ١٦]

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ١٥ إلى ١٦]

قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا (١٥) لهم فيها ما يشاؤن خالدين كان على ربك وعدا مسؤلا." (٢)

"ثم قرع سمعه توجه خطاب التكذيب إلى المشهود عليهم، وهو تفنن بديع في الحكاية يعتمد على تخييل المحكي واقعا، ومنه قوله تعالى: يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر [القمر: ٤٨] . فجملة فقد كذبوكم إلخ مستأنفة ابتدائية هو إقبال على خطاب الحاضرين وهو ضرب من الالتفات مثل قوله تعالى: واستغفري لذنبك بعد قوله: يوسف أعرض عن هذا [يوسف: ٢٩] .

والباء في قوله: بما تقولون يجوز أن تكون بمعنى (في) للظرفية المجازية، أي كذبوكم تكذيبا واقعا فيما تقولون، ويجوز أن تكون

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٢٠/١٨

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٣٤/١٨

للسببية، أي كذبوكم بسبب ما تقولون.
و (ما) موصولة. والذي قالوه هو ما يستفاد من السؤال والجواب وهو أنهم قالوا إنهم دعوهم إلى أن يعبدوهم.
وفرع على الإعلان بتكذيبهم إياهم تأييسهم من الانتفاع بهم في ذلك الموقف إذ بين لهم أنهم لا يستطيعون صرفا، أي صرف ضر عنهم، ولا نصرا، أي إلحاق ضر بمن يغلبهم. ووجه التفريع ما دل عليه قولهم سبحانك [الفرقان: ١٨] الذي يقتضي أنهم في موقف العبودية والخضوع.
وقرأ الجمهور: يستطيعون بياء الغائب، وقرأه حفص بتاء الخطاب على أنه خطاب للمشركين الذين عبدوا الأصنام من دون الله.
ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا.
تذييل للكلام يشمل عمومه جميع الناس، ويكون خطاب منكم لجميع المكلفين.
ويفيد ذلك أن المشركين المتحدث عنهم معذبون عذابا كبيرا: والعذاب الكبير هو عذاب جهنم.
[٢٠]

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٢٠]
وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا (٢٠)
وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.." (١)
"وصيغة المضارع في قوله: لا يأتونك تشمل ما عسى أن يأتوا به من هذا النوع كقولهم: أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا [الإسراء: ٩٢] .
والاستثناء في قوله: إلا جئناك بالحق استثناء من أحوال عامة يقتضيها عموم الأمثال لأن عموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال.
وجملة جئناك حالية كما تقدم في قوله: وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام [الفرقان: ٢٠] .
وقوله جئناك بالحق مقابل قوله: لا يأتونك بمثل وهو مجيء مجازي. ومقابلة جئناك بالحق لقوله: ولا يأتونك بمثل إشارة إلى أن ما يأتون به باطل. مثال ذلك أن قولهم: مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق [الفرقان: ٧] ، أبطله قوله: وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق [الفرقان: ٢٠] .
والتعبير في جانب ما يؤيده الله من الحجة ب جئناك دون: أتيناك، كما عبر عما يجيئون به ب يأتونك إما لمجرد التفنن، وإما لأن فعل الإتيان إذا استعمل مجازا كثر فيما يسوء وما يكره، كالوعيد والهجاء، قال شقيق بن شريك الأسدي:

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٤٢/١٨

أتاني من أبي أنس وعيد ... فسل لغيظة الضحاك جسمي

وقول النابغة:

أتاني- أبيت اللعن- أنك لمتني وقوله:

فليأتينك قصائد وليدفعن ... جيشا إليك قوادم الأكوار

يريد قصائد الهجاء. وقول الملائكة للوط وأتيناك بالحق [الحجر: ٦٤] أي عذاب قومه، ولذلك قالوا له في المجيء الحقيقي بل جئناك بما كانوا فيه يمترون. وتقدم في

سورة الحجر [٦٣] ، وقال الله تعالى: أتاها أمرنا ليلا أو نهارا [يونس: ٢٤] أتى أمر الله فلا تستعجلوه [النحل: ١] فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا [الحشر: ٢] ، بخلاف فعل المجيء إذا." (١)

"**التفنن** بين الصيغتين، وتقريب زمن مضي المعقب بالفاء من زمن حصول الجزاء بحيث يكون حصول خضوعهم للآية بمنزلة حصول تنزيلها فيتم ذلك سريعا حتى يخيل لهم من سرعة حصوله أنه أمر مضى فلذلك قال:

فظلت ولم يقل: فتظل. وهذا قريب من استعمال الماضي في قوله تعالى: أتى أمر الله فلا تستعجلوه [النحل: ١] وكلاهما للتهديد، ونظيره لقصد التشويق: قد قامت الصلاة.

والخضوع: التطامن والتواضع. ويستعمل في الانقياد مجازا لأن الانقياد من أسباب الخضوع. وإسناد الخضوع إلى الأعناق مجاز عقلي، وفيه تمثيل لحال المنقادين الخائفين الأذلة بحال الخاضعين الذين يتقون أن تصيبهم قاصمة على رؤوسهم فهم يطأطئون رؤوسهم وينحنون اتقاء المصيبة النازلة بهم.

والأعناق: جمع عنق بضمتين وقد تسكن النون وهو الرقبة، وهو مؤنث. وقيل:

المضموم النون مؤنث، والساكن النون مذكر.

ولما كانت الأعناق هي مظهر الخضوع أسند الخضوع إليها وهو في الحقيقة مما يسند إلى أصحابها ومنه قوله تعالى: وخشعت الأصوات للرحمن [طه: ١٠٨] أي أهل الأصوات بأصواتهم كقول الأعشى:

(كذلك فافعل ما حييت إذا شتوا) ... وأقدم إذا ما أعين الناس تفرق

فأسند الفرق إلى العيون على سبيل المجاز العقلي لأن الأعين سبب الفرق عند رؤية الأشياء المخيفة. ومنه قوله تعالى: سحروا أعين الناس [الأعراف: ١١٦] وإنما سحروا الناس سحرا ناشئا عن رؤية شعوذة السحر بأعينهم، مع ما يزيد به قوله: «ظلت أعناقهم لها خاضعين» من الإشارة إلى تمثيل حالهم، ومقتضى الظاهر فظلوا لها خاضعين بأعناقهم.

وفي إجراء ضمير العقلاء في قوله: خاضعين على الأعناق تجريد للمجاز العقلي في إسناد خاضعين إلى أعناقهم لأن مقتضى الجري على وتيرة المجاز أن يقال لها:

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٢/١٩

خاضعة، وذلك خضوع من توقع لحاق العذاب النازل. وعن مجاهد: أن الأعناق هنا جمع عنق بضمتين يطلق على سيد القوم ورئيسهم كما يطلق عليه رأس القوم وصدر القوم، أي فظلت سادتهم، يعني الذين أغروهم." (١)

"يريد ابعث إلينا دينارا أو عبد رب سريعا لأجل حاجتنا بأحدهما. ورجوا اتباع السحرة، أي اتباع ما يؤيده سحر السحرة وهو إبطال دين ما جاء به موسى، فكان قولهم

لعلنا نتبع السحرة كناية عن رجاء تأييدهم في إنكار رسالة موسى فلا يتبعونه. وليس المقصود أن يصير السحرة أيمة لهم لأن فرعون هو المتبع. وقد جيء في شرط إن كانوا هم الغالبين بحرف إن لأنها أصل أدوات الشرط ولم يكن لهم شك في أن السحرة غالبون. وهذا شأن المغرورين بهواهم، العمي عن النظر في تقلبات الأحوال أنهم لا يفرضون من الاحتمالات إلا ما يوافق هواهم ولا يأخذون العدة لاحتمال نقيضه.

[٤١، ٤٢]

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٤١ إلى ٤٢]

فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أإن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين (٤١) قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين (٤٢)

تقدم نظيرها في سورة الأعراف بقوله: وجاء السحرة [الأعراف: ١١٣] وبطرح همزة الاستفهام إذ قال هناك إن لنا لأجرا [الأعراف: ١١٣] ، وهو تفنن في حكاية مقالتهم عند إعادتها لئلا تعاد كما هي، وبدون كلمة إذا، فحكى هنا ما في كلام فرعون من دلالة على جزاء مضمون قولهم: إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين [الأعراف: ١١٣] زيادة على ما اقتضاه حرف (نعم) من تقرير استفهامهم عن الأجر. فتقدير الكلام: إن كنتم غالبين إذا إنكم لمن المقربين. وهذا وقع الاستغناء عنه في سورة الأعراف فهو زيادة في حكاية القصة هنا. وكذلك شأن القرآن في قصصه أن لا يخلو المعاد منها عن فائدة غير مذكورة في موضع آخر منه تجديدا لنشاط السامع كما تقدم في المقدمة السابعة من مقدمات هذا التفسير. وسؤالهم عن استحقاق الأجر إدلال بخبرتهم وبالحاجة إليهم إذ علموا أن فرعون شديد الحرص على أن يكونوا غالبين وخافوا أن يسخرهم فرعون بدون أجر فشرطوا أجرهم من قبل الشروع في العمل ليقيدوه بوعده.

[٤٣، ٤٤]

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٤٣ إلى ٤٤]

قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون (٤٣) فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون (٤٤)

حكي كلام موسى في ذلك الجمع بإعادة فعل قال مفصولا بطريقة حكاية." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٩٦/١٩

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٢٦/١٩

"والشافع: الذي يكون واسطة جلب نفع لغيره أو دفع ضر عنه. وتقدم ذكر الشفاعة في قوله: ولا تنفعها شفاعة في البقرة [١٢٣] ، والشفيع في أول سورة يونس.

وأما قولهم: ولا صديق حميم فهو تتميم أثاره ما يلقونه من سوء المعاملة من كل من يمرون به أو يتصلون، ومن الحرمان الذي يعاملهم كل من يسألونه الرفق بهم حتى علموا أن جميع الخلق تتبرأ منهم كما قال تعالى: ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب فإن الصديق هو الذي يواسيك أو يسليك أو يتوجع ويومئذ حقت كلمة الله الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين [الزخرف: ٦٧] وتقدم الكلام على الصديق في قوله تعالى: أو صديقكم في سورة النور [٦١] .

والحميم: القريب، فعيل من حم (بفتح الحاء) إذا دنا وقرب فهو أخص من الصديق.

والمراد نفي جنس الشفيع وجنس الصديق لوقوع الاسمين في سياق النفي المؤكد ب من الزائدة، وفي ذلك السياق يستوي المفرد والجمع في الدلالة على الجنس. وإنما خولف بين اسمي هذين الجنسين في حكاية كلامهم إذ جيء ب شافعين جمعا، وب صديق مفردا، لأنهم أرادوا بالشافعين الآلهة الباطلة وكانوا يعهدونهم عديدين فجرى على كلامهم ما هو مرتسم في تصورهم. وأما الصديق فإنه مفروض جنسه دون عدد أفراده إذ لم يعنوا عددا معينا فبقي على أصل نفي الجنس، وعلى الأصل في الألفاظ إذ لم يكن داع لغير الإفراد. والذي يبدو لي أنه أوثر جمع شافعين لأنه أنسب بصورة ما في أذهانهم كما تقدم. وأما إفراد صديق فلأنه أريد أن يجرى عليه وصف حميم فلو جيء بالموصوف جمعا لاقتضى جمع وصفه، وجمع حميم فيه ثقل لا يناسب منتهى الفصاحة ولا يليق بصورة الفاصلة مع ما حصل في ذلك من **التفنن** الذي هو من مقاصد البلغاء.

ثم فرعوا على هذا التحسر والندامة تمني أن يعادوا إلى الدنيا ليتداركوا أمرهم في

الإيمان بالله وحده.

و (لو) هذه للتمني، وأصلها (لو) الشرطية لكنها تنوسي منها معنى الشرط.." (١)

"وتفريع فاتقوا الله وأطيعون عليه كما تقدم في قصة نوح. وحذف ياء وأطيعون للفاصلة كحذفها في قصة نوح وإبراهيم آنفا.

وتقدم ذكر عاد وهود عند قوله تعالى: وإلى عاد أخاهم هودا في سورة الأعراف [٦٥] .

[١٢٨- ١٣٠]

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٢٨ إلى ١٣٠]

أتبنون بكل ريع آية تعبثون (١٢٨) وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون (١٢٩) وإذا بطشتم بطشتم جبارين (١٣٠)

رأى من قومه تمحضا للشغل بأمور دنياهم، وإعراضا عن الفكر في الآخرة والعمل لها والنظر في العاقبة، وإشراكا مع الله في إلهيته، وانصرافا عن عبادة الله وحده الذي خلقهم وأعمرهم في الأرض وزادهم قوة على الأمم، فانصرفت هماتهم إلى التعاظم والتفاخر واللهو واللعب.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٥٥/١٩

وكانت عاد قد بلغوا مبلغا عظيما من البأس وعظم السلطان والتغلب على البلاد مما أثار قولهم: من أشد منا قوة [فصلت: ١٥] فقد كانت قبائل العرب تصف الشيء العظيم في نوعه بأنه «عادي» وكانوا أهل رأي سديد ورجاحة أحلام، قال وداك بن ثميل المازني:

وأحلام عاد لا يخاف جليسهم ... ولو نطق العوار غرب لسان

وقال النابغة يمدح غسان:

أحلام عاد وأجساد مطهرة ... من المعقة والآفات والأثم

فطال عليهم الأمد، وتفننوا في إرضاء الهوى، وأقبلوا على الملذات واشتد الغرور بأنفسهم فأضاعوا الجانب الأهم للإنسان وهو جانب الدين وزكاء النفس، وأهملوا أن يقصدوا من أعمالهم المقاصد النافعة ونية إرضاء الله على أعمالهم لحب الرئاسة والسمعة، فعبدوا الأصنام، واستخفوا بجانب الله تعالى، واستحمقوا الناصحين، وأرسل الله إليهم هودا ففاتحهم بالتوبيخ على ما فتنوا بالإعجاب به وبذمه إذ ألهاهم التنافس فيه عن معرفة الله فنبذوا اتباع الشرائع وكذبوا الرسول. فمن سابق أعمال عاد أنهم كانوا بنوا في طرق أسفارهم أعلاما ومنارات تدل على الطريق كيلا يضل." (١)

"بحرف الاستثناء، ولو ذكرت الواو لجاز كقوله في سورة الحجر [٤] إلا ولها كتاب معلوم.

وعبر عن الرسل بصفة الإنذار لأنه المناسب للتهديد بالإهلاك.

[٢٠٩]

[سورة الشعراء (٢٦) : آية ٢٠٩]

ذكرى وما كنا ظالمين (٢٠٩)

أي هذه ذكرى، فذكرى في موضع رفع على الخبرية لمبتدأ محذوف دلت عليه قرينة السياق كقوله تعالى في سورة الأحقاف [٣٥] بلاغ أي هذا بلاغ، وفي سورة إبراهيم [٥٢] هذا بلاغ للناس وفي سورة ص [٤٩] هذا ذكر. والمعنى: هذه ذكرى لكم يا معشر قريش. وهذا المعنى هو أحسن الوجوه في موقع قوله: ذكرى وهو قول أبي إسحاق الزجاج والفراء وإن اختلفا في تقدير المحذوف قال ابن الأنباري: قال بعض المفسرين: ليس في الشعراء وقف تام إلا قوله: إلا لها منذرون [الشعراء: ٢٠٨].

وقد تردد الزمخشري في موقع قوله: ذكرى بوجوه جعلها جميعا على اعتبار قوله: ذكرى تكملة للكلام السابق وهي غير خلية عن تكلف. والذكرى: اسم مصدر ذكر.

وجملة: وما كنا ظالمين يجوز أن تكون معطوفة على ذكرى أي نذكركم ولا نظلم، وأن تكون حالا من الضمير المستتر في ذكرى لأنه كالمصدر يقتضي مسندا إليه، وعلى الوجهين فمفاد وما كنا ظالمين الإعذار لكفار قريش والإنذار بأنهم سيحل بهم هلاك.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٩/١٦٥

وحذف مفعول ظالمين لقصد تعميمه كقوله تعالى: ولا يظلم ربك أحدا [الكهف: ٤٩] .
[٢١٠-٢١٢]

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٢١٠ إلى ٢١٢]
وما تنزلت به الشياطين (٢١٠) وما ينبغي لهم وما يستطيعون (٢١١) إنهم عن السمع لمعزولون (٢١٢)
عطف على جملة: وإنه لتنزيل رب العالمين [الشعراء: ١٩٢] وما بينهما اعتراض استدعاه تناسب المعاني وأخذ بعضها بحجز بعض تفننا في الغرض. وهذا رد على." (١)
"تعالى وإنها لبسبيل مقيم [الحجر: ٧٦] وقال وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون [الصافات:
١٣٧، ١٣٨] .
وظرف إذ يتعلق ب (أرسلنا) أو ب (اذكر) المقدرين. والاستفهام في أتأتون إنكاري.
وجملة: وأنتم تبصرون حال زيادة في التشنيع، أي تفعلون ذلك علنا يبصر بعضكم بعضا، فإن التجاهر بالمعصية معصية لأنه يدل على استحسانها وذلك استخفاف بالنواهي.
وقوله: أإنكم لتأتون تقدم في الأعراف [٨١] إنكم لتأتون، فهنا جيء بالاستفهام الإنكاري، وما في الأعراف جاء الخبر المستعمل في الإنكار، فيجوز أن يكون اختلاف الحكاية لاختلاف المحكي بأن يكون لوط قد قال لهم المقالتين في مقامين مختلفين. ويجوز أن يكون اختلاف الحكاية تفننا مع اتحاد المعنى. وكلا الأسلوبين يقع في قصص القرآن، لأن في تغيير الأسلوب تجديدا لنشاط السامع.
على أن ابن كثير وأبا عمرو وابن عامر وحمزة وأبا بكر عن عاصم قرأوا ما في سورة الأعراف بهمزتين فاستوت الآيتان على قراءة هؤلاء. وقد تقدمت وجوه ذلك في سورة الأعراف.
ووقع في الأعراف [٨٠] أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ولم يذكر هنا لأن ما يجري في القصة لا يلزم ذكر جميعه. وكذلك القول في عدم ذكر وأنتم تبصرون في سورة الأعراف مع ذكره هنا.
ونظير بقية الآية تقدم في سورة الأعراف، إلا أن الواقع هنا بل أنتم قوم تجهلون، فوصفهم بالجهالة وهي اسم جامع لأحوال أفن الرأي وقساوة القلب.
وفي الأعراف وصفهم بأنهم قوم مسرفون وذلك يحمل على اختلاف المقالتين في مقامين.
وفي إقحام لفظ قوم في الآيتين من الخصوصية ما تقدم آنفا في قوله في هذه السورة إن في ذلك لآية لقوم يعلمون [النمل: ٥٢] .." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٩٨/١٩
(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٨٨/١٩

"وسائلها وتعجيلا للبشارة بها. فأما في دعوة إبراهيم فقد رتبت الجمل على حسب ترتيب حصول ما تضمنته في الخارج، مع ما في ذلك التخالف من **التفنن**.

وقوله: ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون تعميم لكل ما كان غير شريعة ولا حكمة من معرفة أحوال الأمم وأحوال سياسة الدول وأحوال الآخرة وغير ذلك.

وإنما أعاد قوله: ويعلمكم مع صحة الاستغناء عنه بالعطف تنصيصا على المغايرة لئلا يظن أن: ما لم تكونوا تعلمون هو الكتاب والحكمة، وتنصيصا على أن: ما لم تكونوا مفعولا لا مبتدأ حتى لا يترقب السامع خبرا له فيضل فهمه في ذلك الترقب، واعلم أأن حرف العطف إذا جيء معه بإعادة عامل كان عاطفه عاملا على مثله فصار من عطف الجمل لكن العاطف حينئذ أشبه بالمؤكد لمدلول العامل.

[١٥٢]

[سورة البقرة (٢) : آية ١٥٢]

فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون (١٥٢)

الفاء للتفريع عاطفة جملة الأمر بذكر الله وشكره على جمل النعم المتقدمة أي إذ قد أنعمت عليكم بهاته النعم فأنا آمركم بذكري.

وقوله: فاذكروني أذكركم فعلان مشتقان من الذكر بكسر الذال ومن الذكر بضمها والكل مأمور به لأننا مأمورون بتذكر الله تعالى عند الإقدام على الأفعال لنذكر أوامره ونواهيه- قال تعالى: والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم [آل عمران: ١٣٥] وعن عمر بن الخطاب أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه-، ومأمورون بذكر اسم الله تعالى بألسنتنا في جمل تدل على حمده وتقديسه

والدعوة إلى طاعته ونحو ذلك،

وفي الحديث القدسي: «وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»

. والذكر في قوله: أذكركم يجيء على المعنيين، ولا بد من تقدير في قوله:

فاذكروني على الوجهين لأن الذكر لا يتعلق بذات الله تعالى فالتقدير اذكروا عظمتي وصفاتي وثنائي وما ترتب عليها من الأمر والنهي، أو اذكروا نعمي ومحامدي، وهو تقدير من دلالة الاقتضاء، وأما أذكركم فهو مجاز، أي أعاملكم معاملة من ليس بمغفول عنه بزيادة النعم والنصر والعناية في الدنيا، وبالثواب ورفع الدرجات في الآخرة، أو أخلق ما يفهم منه الناس في الملأ الأعلى وفي الأرض فضلكم والرضى عنكم، نحو قوله: كنتم خير أمة [آل عمران: ١١٠] ، وحسن مصيركم في الآخرة، لأن الذكر بمعنييه الحقيقيين مستحيل على الله تعالى. ثم إن تعديته للمفعول أيضا على طريق دلالة." (١)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢/٥٠

"وقرأ الجمهور: ومن تطوع بصيغة الماضي، وقرأه حمزة والكسائي ويعقوب وخلف يطوع بصيغة المضارع وياء الغيبة وجزم العين.

ومن هنا شرطية بدليل الفاء في جوابها. وقوله: فإن الله شاكر عليم دليل الجواب إذ التقدير ومن تطوع خيرا جوزي به لأن الله شاكر أي لا يضيع أجر محسن، عليم لا يخفى عنه إحسانه، وذكر الوصفين لأن ترك الثواب عن الإحسان لا يكون إلا عن جحود للفضيلة أو جهل بها فلذلك نفيا بقوله: شاكر عليم والأظهر عندي أن شاكر هنا استعارة تمثيلية شبه شأن الله في جزاء العبد على الطاعة بحال الشاكر لمن أسدى إليه نعمة، وفائدة هذا التشبيه تمثيل تعجيل الثواب وتحقيقه لأن حال المحسن إليه أن يبادر بشكر المحسن.

[١٥٩، ١٦٠]

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٥٩ إلى ١٦٠]

إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون (١٥٩) إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم (١٦٠)

عود بالكلام إلى مهيعه الذي فصل عنه بما اعترض من شرع السعي بين الصفا والمروة كما علمته آنفا.

قال المفسرون إن هاته الآية نزلت في علماء اليهود في كتمهم دلائل صدق النبيء محمد صلى الله عليه وسلم وصفاته وصفات دينه الموجودة في التوراة وفي كتمهم آية الرجم، وهو يقتضي

أن اسم الموصول للعهد فإن الموصول يأتي لما يأتي له المعرف باللام وعليه فلا عموم هنا، وأنا أرى أن يكون اسم الموصول هنا للجنس فهو كالمعرف بلام الاستغراق فيعم ويكون من العام الوارد على سبب خاص ولا يخصص بسببه ولكنه يتناول أفراد سببه تناولا أوليا أقوى من دلالته على بقية الأفراد الصالح هو للدلالة عليها لأن دلالة العام على صورة السبب قطعية ودلالته على غيرها مما يشمله مفهوم العام دلالة ظنية، فمناسبة وقع هاته الآية بعد التي قبلها أن ما قبلها كان من الأفانين القرآنية المتفننة على ذكر ما قابل به اليهود دعوة النبيء صلى الله عليه وسلم وتشبيههم فيها بحال سلفهم في مقابلة دعوة أنبيائهم من قبل إلى مبلغ قوله تعالى: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله [البقرة: ٧٥]." (١)

"وقد قيل في وجه ذكر اللحم هنا وتركه في قوله: إنما حرم عليكم الميتة وجوه قال ابن عطية: إن المقصد الدلالة على تحريم عينه ذكي أم لم يذك اه. ومراده بهذا ألا يتوهم متوهم أنه إنما يحرم إذا كان ميتة وفيه بعد، وقال الألوسي خصه لإظهار حرمته، لأنهم فضلوه على سائر اللحوم فربما استعظموا وقوع تحريمه اه. يريد أن ذكره لزيادة التغليظ أي ذلك اللحم الذي تذكرونه بشراهة، ولا أحسب ذلك، لأن الذين استجادوا لحم الخنزير هم الروم دون العرب، وعندي أن إقحام لفظ اللحم هنا إما مجرد تفنن في الفصاحة وإما للإيماء إلى طهارة ذاته كسائر الحيوان، وإنما المحرم أكله لئلا يفضي تحريمه بالناس إلى قتله أو تعذيبه، فيكون فيه حجة لمذهب مالك بطهارة عين الخنزير كسائر الحيوان الحي، وإما للترخيص في الانتفاع بشعره لأنهم

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢/٦٥

كانوا يغرزون به الجلد.
وحكمة تحريم لحم الخنزير أنه يتناول القاذورات بإفراط فتنشأ في لحمه دودة (١) مما يقتاته لا تهضمها معدته فإذا أصيب بها آكله قتلته.

ومن عجيب ما يتعرض له المفسرون والفقهاء البحث في حرمة خنزير الماء وهي مسألة فارغة إذ أسماء أنواع الحوت روعيت فيها المشابهة كما سموا بعض الحوت فرس البحر وبعضه حمام البحر وكلب البحر، فكيف يقول أحد بتأثير الأسماء والألقاب في الأحكام الشرعية وفي «المدونة» توقف مالك أن يجيب في خنزير الماء وقال: أنتم تقولون خنزير. قال ابن شأس: رأى غير واحد أن توقف مالك حقيقة لعموم أحل لكم صيد البحر [المائدة: ٩٦] وعموم قوله تعالى: ولحم الخنزير ورأى بعضهم أنه غير متوقف فيه حقيقة، وإنما امتنع من الجواب إنكارا عليهم تسميتهم إياه خنزيرا ولذلك قال أنتم تسمونه خنزيرا يعني أن العرب لم يكونوا يسمونه خنزيرا وأنه لا ينبغي تسميته خنزيرا ثم السؤال عن أكله حتى يقول قائلون أكلوا لحم الخنزير، أي فيرجع كلام مالك إلى صون ألفاظ الشريعة ألا يتلاعب بها، وعن أبي حنيفة أنه منع أكل خنزير البحر غير متردد أخذا بأنه سمي خنزيرا، وهذا عجيب منه وهو المعروف بصاحب الرأي، ومن أين لنا ألا يكون
لذلك الحوت اسم آخر في لغة بعض العرب فيكون أكله محرما على فريق ومباحا لفريق.
وقوله تعالى: وما أهل به لغير الله أي ما أعلن به أو نودي عليه بغير اسم الله تعالى، وهو مأخوذ من أهل إذا رفع صوته بالكلام ومثله استهل ويقولون: استهل الصبي صارخا إذا رفع

---

(١) وتسمى في الفرنسية () والمرض يسمى () .." (١)

"وجيء باسم الإشارة للدلالة على أن رجاءهم رحمة الله لأجل إيمانهم وهجرتهم وجهادهم، فتأكد بذلك ما يدل عليه الموصول من الإيماء إلى وجه بناء الخبر، وإنما احتيج لتأكيده لأن الصلتين لما كانتا مما اشتهر بهما المسلمون وطائفة منهم صارتا كاللقب إذ يطلق على المسلمين يومئذ في لسان الشرع اسم الذين آمنوا كما يطلق على مسلمي قريش يومئذ اسم المهاجرين فأكد قصد الدلالة على وجه بناء الخبر من الموصول.
والرجاء: ترقب الخير مع تغليب ظن حصوله، فإن وعد الله وإن كان لا يخلف فضلا منه وصدقا، ولكن الخواتم مجهولة ومصادفة العمل لمراد الله قد تفوت لموانع لا يدريها المكلف ولئلا يتكلوا في الاعتماد على العمل.
[٢١٩، ٢٢٠]

[سورة البقرة (٢) : آية ٢١٩]
يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (٢١٩)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٩/٢

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٢٠]

في الدنيا والآخرة ويسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم (٢٢٠)

يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما.

استئناف لإبطال عملين غالبين على الناس في الجاهلية وهما شرب الخمر والميسر وهذا من عداد الأحكام التي بينها في هاته السورة مما يرجع إلى إصلاح الأحوال التي كان عليها الناس في الجاهلية، والمشروع في بيانها من قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى [البقرة: ١٧٨] إلى آخر السورة، عدا ما تخلل ذلك من الآداب والزواجر والبشائر والمواعظ والأمثال والقصص على عادة القرآن في تفنن أساليبه تنشيطا للمخاطبين والسامعين والقارئين ومن بلغ، وقد تناسقت في هذه الآية.

والسائلون هم المسلمون قال الواحدي: نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله أفتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل متلفة للمال، فنزلت هذه الآية، قال في «الكشاف» : فلما نزلت هذه الآية ترك الخمر قوم وشربها آخرون ثم نزلت بعدها آية المائدة [٩٠] : يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر.

وشرب الخمر عمل متأصل في البشر قديما لم تحرمه شريعة من الشرائع لا القدر المسكر بله ما دونه، وأما ما يذكره علماء الإسلام إن الإسكار حرام في الشرائع كلها فكلام لا شاهد لهم عليه بل الشواهد على ضده متوافرة، وإنما جرأهم على هذا القول ما قعدوه في." (١)

"وقوله فإن طلقها ويجوز أن تكون معطوفة على أو تسريح بإحسان لأن من إحسان التسريح ألا يأخذ المسرح وهو المطلق عوضا عن الطلاق، وهذه مناسبة مجيء هذا الاعتراض، وهو تفنن بديع في جمع التشريعات والخطاب للأمة، ليأخذ منه كل أفرادها ما يختص به، فالزوج يقف عن أخذ المال، وولي الأمر يحكم بعدم لزومه، وولي الزوجة أو كبير قبيلة الزوج يسعى ويأمر وينهى (وقد كان شأن العرب أن يلي هذه الأمور ذوو الرأي من قرابة الجانبين) وبقية الأمة تأمر بالامتثال لذلك، وهذا شأن خطابات القرآن في التشريع كقوله: ولا تؤتوا السفهاء أموالكم إلى قوله: وارزقوهم فيها [النساء: ٥] وإليه أشار صاحب «الكشاف» .

وقال ابن عطية والقرطبي وصاحب «الكشاف» : الخطاب في قوله: ولا يحل لكم للأزواج بقرينة قوله أن تأخذوا وقوله: آتيتموهن والخطاب في قوله: فإن خفتم ألا يقيما حدود الله للحكام، لأنه لو كان للأزواج لقيل: فإن خفتم ألا تقيموا أو ألا تقيما، قال في «الكشاف» : «ونحو ذلك غير عزيز في القرآن» اهـ يعني لظهور مرجع كل ضمير من قرائن المقام ونظره في «الكشاف» بقوله تعالى في سورة الصف [١٣] وبشر المؤمنين على رأي صاحب «الكشاف» ، إذ جعله معطوفا على

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢/٣٣٨

تؤمنون بالله ورسوله إلخ لأنه في معنى آمنوا وجاهدوا أي فيكون معطوفا على الخطابات العامة للأمة، وإن كان التبشير خاصا به الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنه لا يتأتى إلا منه. وأظهر من تنظير صاحب «الكشاف» أن تنظره بقوله تعالى فيما يأتي: وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن [البقرة:
٢٣٢] إذ خوطب فيه المطلق والعاضل، وهما متغايران.
والضمير المؤنث في آتيتموهن راجع إلى المطلقات، المفهوم من قوله:
الطلاق مرتان لأن الجنس يقتضي عددا من المطلقين والمطلقات، وجوز في «الكشاف»
أن يكون الخطاب كله للحكام وتأول قوله: أن تأخذوا. وقوله: مما آتيتموهن بأن إسناد الأخذ والإتيان للحكام، لأنهم الذين يأمرون بالأخذ والإعطاء، ورجحه البيضاوي بسلامته من تشويش الضمائر بدون نكتة التفات ووهنه صاحب «الكشاف» وغيره بأن الخلع قد يقع بدون ترافع، فما آتاه الأزواج لأزواجهم من المهور لم يكن أخذه على يد الحكام فبطل هذا الوجه، ومعنى لا يحل لا يجوز ولا يسمح به، واستعمال الحل والحرمة في هذا المعنى وضده قديم في العربية، قال عنترة:
يا شاة ما قنص لمن حلت له ... حرمت علي وليتها لم تحرم." (١)
"»
. [٢٣٠]

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٣٠]
فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون (٢٣٠)
فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله.
تفريع مرتب على قوله: الطلاق مرتان [البقرة: ٢٢٩] وما بينهما بمنزلة الاعتراض، على أن تقديمه يكسبه تأثيرا في تفريع هذا على جميع ما تقدم لأنه قد علم من مجموع ذلك أن بعد المرتين تخييرا بني المراجعة وعدمها، فرتب على تقدير المراجعة المعبر عنها بالإمساك فإن طلقها وهو يدل بطريق الاقتضاء على مقدر أي فإن راجعها فطلقها لبيان حكم الطلقة الثالثة.
وقد تهيأ السامع لتلقي هذا الحكم من قوله: الطلاق مرتان [البقرة:
٢٢٩] إذ علم أن ذلك بيان لآخر عدد في الرجعى وأن ما بعده بتات، فذكر قوله: فإن طلقها زيادة في البيان، وتمهيد لقوله: فلا تحل له من بعد إلخ فالفاء إما عاطفة لجملة فإن طلقها على جملة فإمساك [البقرة: ٢٢٩] باعتبار ما فيها من قوله فإمساك، إن كان المراد من الإمساك المراجعة ومن التسريح عدمها، أي فإن أمسك المطلق أي راجع ثم طلقها، فلا تحل له من بعد، وهذا هو الظاهر، وإما فصيحة لبيان قوله: أو تسريح بإحسان [البقرة: ٢٢٩] ، إن كان المراد من التسريح إحداث الطلاق، أي فإن ازداد بعد المراجعة فسرح فلا تحل له من بعد، وإعادة هذا على هذا الوجه ليرتب عليه تحريم

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤٠٨/٢

المراجعة إلا بعد زوج، تصريحا بما فهم من قوله: الطلاق مرتان ويكون التعبير بالطلاق هنا دون التسريح للبيان وللتفنن على الوجهين المتقدمين، ولا يعوزك توزيعه عليهما، والضمير المستتر راجع للمطلق المستفاد من قوله: الطلاق مرتان والضمير المنصوب راجع للمطلقة المستفادة من الطلاق أيضا، كما تقدم في قوله: إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله [البقرة: ٢٢٩]
.

والآية بيان لنهاية حق المراجعة صراحة، وهي إما إبطال لما كانوا عليه في الجاهلية وتشريع إسلامي جديد، وإما نسخ لما تقرر أول الإسلام إذا صح ما رواه أبو داود في «سننه» ، في باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث، عن ابن عباس «أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثا فنسخ ذلك ونزل الطلاق مرتان.

ولا يصح بحال عطف قوله: فإن طلقها على جملة ولا يحل لكم أن تأخذوا [البقرة: ٢٢٩] ، ولا صدق الضميرين على ما صدقت عليه ضمائر إلا أن يخافا ألا يقيما، وفلا جناح عليهما لعدم صحة تعلق حكم قوله تعالى: فإن طلقها فلا تحل له من

بعد

بما تعلق به حكم قوله: ولا يحل." (١)

"[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٥٦ إلى ٥٨]

فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (٥٦) فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين (٥٧) وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين (٥٨)

تقدم نظير هاته الآية في سورة الأعراف [٨٢] ، وخالفتها هذه بوقوع العطف بالفاء في قوله فما كان جواب قومه دون الواو، وبقوله أخرجوا آل لوط عوض أخرجوهم [الأعراف: ٨٢] وبقوله قدرناها عوض كانت [الأعراف: ٨٣] ، وبقوله فساء مطر المنذرين عوض فانظر كيف كان عاقبة المجرمين [الأعراف: ٨٤] .

فأما موقع الفاء هنا فهو لتعقيب الجملة المعطوفة بالفاء على التي قبلها تعقيب جزء

القصة على أوله فلا تفيد إلا تعقيب الإخبار، وهي في ذلك مساوية للواو. ولكن أوثر حرف التعقيب في هذه الآية لكونها على نسج ما حكيت به قصة ثمود في قوله تعالى فإذا هم فريقان يختصمون [النمل: ٤٥] ، فالاختلاف بين هذه الآية وآية الأعراف تفنن في الحكاية، ومراعاة للنظير في النسج. وهذا من أساليب قصص القرآن كما بينته في المقدمة السابعة من مقدمات هذا التفسير.

وكذلك قوله أخرجوا آل لوط دون أخرجوهم [الأعراف: ٨٢] لأن المحكي من كلام القوم هو تآمرهم على إخراج آل لوط فما هنا حكاية بمرادف كلامهم وما في الأعراف حكاية بالمعنى والغرض هو التفنن أيضا.

وكذلك الاختلاف بين قدرناها هنا وبين كانت في الأعراف [٨٣] . وأما." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤١٤/٢

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٠/٥

"وبعد فقد حصل في الاختلاف بين أسلوب الآيتين تفنن كما تقدم في المقدمة السابعة.
والأساطير: جمع أسطورة، وهي القصة والحكاية. وتقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين في سورة النحل [٢٤] .
والمعنى: ما هذا إلا كلام معاد قاله الأولون وسطروه وتلقفه من جاء بعدهم ولم يقع شيء منه.
[٦٩]

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦٩]
قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين (٦٩)
أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم هذه الكلمة ولذلك فصل فعل قل وتقدم نظيره في سورة الأنعام [١١] . والمناسبة في الموضعين هي الموعظة بحال المكذبين لأن إنكارهم البعث تكذيب للرسول وإجرام. والوعيد بأن يصيبهم مثل ما أصابهم إلا أنها هنالك عطفت ب ثم انظروا وهنا بالفاء فانظروا وهما متئايلان. وذكر هنالك عاقبة المكذبين [الأنعام: ١١] وذكر هنا عاقبة المجرمين: والمكذبون مجرمون. والاختلاف بين الحكايتين للتفنن كما قدمناه في المقدمة السابعة.
[٧٠]

[سورة النمل (٢٧) : آية ٧٠]
ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون (٧٠)
كانت الرحمة غالبة على النبيء صلى الله عليه وسلم والشفقة على الأمة من خلاله، فلما أنذر المكذبون بهذا الوعيد تحركت الشفقة في نفس الرسول عليه الصلاة والسلام فربط الله على قلبه بهذا التشجيع أن لا يحزن عليهم إذا أصابهم ما أنذروا به. وكان من رحمته صلى الله عليه وسلم حرصه على إقلاعهم عما هم عليه من تكذيبه والمكر به، فألقى الله في روعه رباطة جاش بقوله ولا تكن في ضيق مما يمكرون.
والضيق: بفتح الضاد وكسرها، قرأه الجمهور بالفتح، وابن كثير بالكسر. وحقيقته:
عدم كفاية المكان أو الوعاء لما يراد حلوله فيه، وهو هنا مجاز في الحالة." (١)
"منكم أن يستقيم [التكوير: ٢٧، ٢٨] .
ولهذا خولف بين ما هنا وبين ما في سورة يونس [٦٧] إذ قال هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون لأن آية يونس مسوقة مساق الاستدلال والامتنان فخاطب بها جميع الناس من مؤمن وكافر فجاءت بصيغة الخطاب، وجعلت دلالتها لكل من يسمع أدلة القرآن فمنهم مهتد وضال ولذلك جيء فيها بفعل يسمعون [يونس: ٦٧] المؤذن بالامتثال والإقبال على طلب الهدى.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٠/٢٦

وأما هذه الآية فمسوقة مساق التعجيب والتوبيخ فجعل ما فيها آيات لمن الإيمان من شأنهم ليفيد بمفهومه أنه لا تحصل منه دلالة لمن ليس من شأنهم الإنصاف والاعتراف ولذلك أوثر فيه فعل يؤمنون.

وجاء ما في الليل من الخصوصية بصيغة التعليل باللام بقوله ليسكنوا فيه، وما في النهار بصيغة مفعول الجعل بقوله مبصرا **تفننا**، ولما يفيده مبصرا من المبالغة.

والمعنى على التعليل والمفعول واحد في المآل. وبهذا قال في «الكشاف» «التقابل مراعى من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف» أي ففي الآية احتباك إذ المعنى:

جعلنا الليل مظلما ليسكنوا فيه والنهار مبصرا لينتشروا فيه.

واعلم أن ما قرر هنا يأتي في آية سورة يونس عدا ما هو من وجوه الفروق البلاغية

فارجع إليها هنالك.

[٨٧]

[سورة النمل (٢٧) : آية ٨٧]

ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين (٨٧)

عطف على ويوم نحشر من كل أمة فوجا [النمل: ٨٣] ، عاد به السياق إلى الموعظة والوعيد فإنهم لما ذكروا ب «يوم يحشرون إلى النار» ذكروا أيضا بما قبل ذلك وهو يوم النفخ في الصور، تسجيلا عليهم بإثبات وقوع البعث وإنذارا بما يعقبه مما دل عليه قوله آتوه داخرين وقوله ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله.." (١)

"والتعريف في (الأمس) عوض عن المضاف إليه، أي بأمسه إذ ليس هو أمسا لوقت نزول الآية.

والاستصراخ: المبالغة في الصراخ، أي النداء، وهو المعبر عنه في القصة الماضية بالاستغاثة فخولف بين العبارتين **للتفنن**.

وقول موسى له إنك لغوي مبين تذمر من الإسرائيلي إذ كان استصراخه السالف سببا في قتل نفس، وهذا لا يقتضي عدم إجابة استصراخه وإنما هو بمنزلة التشاؤم واللوم عليه في كثرة خصوماته.

والغوي: الشديد الغواية وهي الضلال وسوء النظر، أي أنك تشاد من لا تطيقه ثم تروم الغوث مني يوما بعد يوم، وليس المراد أنه ظالم أو مفسد لأنه لو كان كذلك لما أراد أن يبطش بعدوه.

والبطش: الأخذ بالعنف، والمراد به الضرب. وظاهر قوله عدو لهما أنه قبطي.

وربما جعل عدوا لهما لأن عداوته للإسرائيلي معروفة فاشية بين القبط وأما عداوته لموسى فلأنه أراد أن يظلم رجلا والظلم عدو لنفس موسى لأنه نشأ على زكاء نفس هيأها الله للرسالة. والاستفهام مستعمل في الإنكار.

والجبار: الذي يفعل ما يريد مما يضر بالناس ويؤاخذ الناس بالشدة دون الرفق.

وتقدم في سورة إبراهيم [١٥] قوله وخاب كل جبار عنيد، وفي سورة مريم [٣٢] قوله ولم يجعلني جبارا شقيا.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤٥/٢٠

والمعنى: إنك تحاول أن تكون متصرفا بالانتقام وبالشدة ولا تحاول أن تكون من المصلحين بين الخصمين بأن تسعى في التراضي بينهما. ويظهر أن كلام القبطي زجر لموسى عن البطش به وصار بينهما حوارا أعقبه مجيء رجل من أقصى المدينة.." (١)

"[٣٠- ٣٢]

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٣٠ الى ٣٢]

فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين (٣٠) وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين (٣١) اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين (٣٢)

فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب تقدم مثل هذا في سورة النمل إلا مخالفة ألفاظ مثل أتاها هنا وجاءها هناك [النمل: ٨] وإني أنا الله هنا، وإنه أنا الله هناك [النمل: ٩] بضمير عائد إلى الجلالة هنالك، وضمير الشأن هنا وهما متساويان في الموقع لأن ضمير الجلالة شأنه عظيم.

وقوله هنا رب العالمين وقوله هنالك العزيز الحكيم [النمل: ٩] . وهذا يقتضي أن الأوصاف الثلاثة قيلت له حينئذ.

والقول في نكتة تقديم صفة الله تعالى قبل إصدار أمره له بإلقاء العصا كالقول الذي تقدم في سورة النمل لأن وصف رب العالمين يدل على أن جميع الخلائق مسخرة له ليثبت بذلك قلب موسى من هول تلقي الرسالة.

وأن ألق هنا وألق هناك [النمل: ١٠] ، واسلك هنا وأدخل هناك [النمل:

١٢] . وتلك المخالفة تفنن في تكرير القصة لتجدد نشاط السامع لها، وإلا زيادة من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة وهذا واد في سفح الطور. وشاطئه:

جانبه وضفته.

ووصف الشاطئ بالأيمن إن حمل الأيمن على أنه ضد الأيسر فهو أيمن باعتبار أنه واقع على يمين المستقبل القبلة على طريقة العرب من جعل القبلة هي الجهة الأصلية لضبط الواقع وهم ينعتون الجهات باليمين واليسار يريدون هذا المعنى قال امرؤ القيس:

على قطن بالشيم أيمن صوبه ... وأيسره على الستار فيذبل

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٩٤/٢٠

وعلى ذلك جرى اصطلاح المسلمين في تحديد المواقع الجغرافية ومواقع الأرضين، فيكون الأيمن يعني الغربي للجبل، أي جهة مغرب الشمس من الطور.." (١)

"ألا ترى أنهم سموا اليمن يمنا لأنه على يمين المستقبل باب الكعبة وسموا الشام شاما لأنه على شام المستقبل لبابها، أي على شماله، فاعتبروا استقبال الكعبة، وهذا هو الملائم لقوله الآتي وما كنت بجانب الغربي [القصص: ٤٤] .

وأما جعله بمعنى الأيمن لموسى فلا يستقيم مع قوله تعالى وواعدناكم جانب الطور الأيمن [طه: ٨٠] فإنه لم يجر ذكر لموسى هناك.

وإن حمل على أنه تفضيل من اليمن وهو البركة فهو كوصفه ب المقدس في سورة النازعات [١٦] إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى.

والبقعة بضم الباء ويجوز فتحها هي القطعة من الأرض المتميزة عن غيرها.

والمباركة لما فيها من اختيارها لنزول الوحي على موسى. وقوله من الشجرة يجوز أن يتعلق بفعل نودي فتكون الشجرة مصدر هذا النداء وتكون من للابتداء، أي سمع كلاما خارجا من الشجرة. ويجوز أن يكون ظرفا مستقرا نعتا ثانيا للواد أو حالا فتكون من اتصالية، أي متصلا بالشجرة، أي عندها، أي البقعة التي تتصل بالشجرة.

والتعريف في الشجرة تعريف الجنس وعدل عن التنكير للإشارة إلى أنها شجرة مقصودة وليس التعريف للعهد إذ لم يتقدم ذكر الشجرة، والذي في التوراة أن تلك الشجرة كانت من شجر العليق (وهو من شجر العضاه) وقيل: هي عوسجة والعوسج من شجر العضاه أيضا. وزيادة أقبل وهي تصريح بمضمون قوله لا تخف في سورة النمل [١٠] لأنه لما أدبر خوفا من الحية كان النهي عن الخوف يدل على معنى طلب إقباله فكان الكلام هنالك إيجازا وكان هنا مساواة **تفننا** في حكاية القصتين، وكذلك زيادة إنك من الآمنين هنا ولم يحك في سورة النمل وهو تأكيد لمفاد ولا تخف. وفيه زيادة تحقيق أمنه بما دل عليه التأكيد ب (إن) وجعله من جملة الآمنين فإنه أشد في تحقيق الأمن من أن يقال: إنك آمن كما تقدم في قوله تعالى أن أكون من الجاهلين في سورة البقرة [٦٧] .

وقوله واضمم إليك جناحك من الرهب خفي فيه محصل المعنى المنتزع من تركيبه فكان مجال تردد المفسرين في تبيينه، واعتكرت محامل كلماته فما." (٢)

"والمراد بإهلاك القرى إهلاك أهلها. وإنما علق الإهلاك بالقرى للإشارة إلى أن شدة الإهلاك بحيث يأتي على الأمة وأهلها وهو الإهلاك بالحوادث التي لا تستقر معها الديار بخلاف إهلاك الأمة فقد يكون بطاعون ونحوه فلا يترك أثرا في القرى.

وإسناد الخبر إلى الله بعنوان ربوبيته للنبيء صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أن المقصود بهذا الإنذار هم أمة محمد الذين كذبوا فالخطاب للنبيء عليه السلام لهذا المقصد. ولهذا وقع الالتفات عنه إلى ضمير المتكلم في قوله آياتنا للإشارة إلى أن الآيات

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٢/٢٠

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٣/٢٠

من عند الله وأن الدين دين الله.

وضمير عليهم عائد إلى المعلوم من القرى وهو أهلها كقوله وسئل القرية التي كنا فيها [يوسف: ٨٢] ، ومنه قوله فليدع ناديه [العلق: ١٧] .

وقد حصل في هذه الجملة تفنن في الأساليب إذ جمعت الاسم الظاهر وضمائر الغيبة والخطاب والتكلم.

ثم بين السبب بقوله وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون أي ما كان من عادتنا في عبادنا أن نهلك أهل القرى في حالة إلا في حالة ظلمهم أنفسهم بالإشراك، فالإشراك سبب الإهلاك وإرسال رسول شرطه، فيتم ظلمهم بتكذيبهم الرسول.

وجملة وأهلها ظالمون في موضع الحال، وهو حال مستثنى من أحوال محذوفة اقتضاها الاستثناء المفرغ، أي ما كنا مهلكي القرى في حال إلا في حال ظلم أهلها.

[٦٠]

[سورة القصص (٢٨) : آية ٦٠]

وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون (٦٠)

لما ذكرهم الله بنعمه عليهم تذكيرا أدمج في خلال الرد على قولهم إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا [القصص: ٥٧] بقوله تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا [القصص: ٥٧] أعقبه بأن كل ما أوتوه من نعمة هو من متاع الحياة الدنيا كالأمن والرزق، ومن زينتها كاللباس والأنعام والمال، وأما ما عند الله من نعيم الآخرة من ذلك وأبقى لئلا." (١)

"وقد عدل في قوله فليعلمن الله عن طريق التكلم إلى طريق الغيبة بإظهار اسم الجلالة على أسلوب الالتفات لما في هذا الإظهار من الجلالة ليعلم أن الجزاء على ذلك جزاء مالك الملك.

وتعريف المتصفين بصدق الإيمان بالموصول والصلة الماضوية لإفادة أنهم اشتهروا بحدثان صدق الإيمان وأن صدقهم محقق.

وأما تعريف المتصفين بالكذب بطريق التعريف باللام وبصيغة اسم الفاعل فلإفادة أنهم عهدوا بهذا الوصف وتميزوا به مع ما في ذلك من التفنن والرعاية على الفاصلة.

روى الطبري عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: نزلت هذه الآية الم أحسب الناس أن يتركوا إلى قوله وليعلمن الكاذبين [العنكبوت: ١- ٣] في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله، أي وأمثاله عياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام ممن كانوا يعذبون بمكة وكان النبيء صلى الله عليه وسلم يدعو لهم الله بالنجاة لهم وللمستضعفين من المؤمنين.

[٤]

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٤]

أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون (٤)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٥٣/٢٠

أعقب تثبيت المؤمنين على ما يصيبهم من فتون المشركين وما في ذلك من الوعد والوعيد بزجر المشركين على ما يعملونه من السيئات في جانب المؤمنين وأعظم تلك السيئات فتونهم المسلمين. فالمراد بالذين يعملون السيئات الفاتنون للمؤمنين. وهذا ووعيدهم بأن الله لا يفلتهم. وفي هذا أيضا زيادة تثبيت للمؤمنين بأن الله ينصرهم من أعدائهم.

ف أم للإضراب الانتقالي ويقدر بعدها استفهام إنكاري.

والسيئات: الأعمال السوء. وهي التنكيل والتعذيب وفتون المسلمين.

والسبق: مستعمل مجازا في النجاة والانفلات كقول مرة بن عداء الفقعسي:." (١)

"التعريف باللام من كونهم عهدوا بالنفاق وطريانه عليهم بعد أن كانوا مؤمنين، ففيه تعريف بسوء عاقبتهم مع ما في ذلك من التفنن ورعاية الفاصلة.

[١٢]

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ١٢]

وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون (١٢)

هذا غرض آخر من أغراض مخالطة المشركين مع المؤمنين وهو محاولة المشركين ارتداد المسلمين بمحاولات فتنة بالشك والمغالطة للذين لم يقدروا على فتنتهم بالأذى والعذاب: إما لعزتهم وخشية بأسهم مثل عمر بن الخطاب فقد قيل: إن هذه المقالة قيلت له، وإما لكثرتهم حين كثر المسلمون وأعيت المشركين حيل الصد عن الإسلام.

والمراد بالذين كفروا طائفة منهم وهم: أبو جهل، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب (قبل أن يسلم) قالوا للمسلمين ومنهم عمر بن الخطاب: لا

نبعث نحن ولا أنتم فإن عسى كان ذلك فإنا نحمل عنكم آثامكم. وإنما قالوا ذلك جهلا وغرورا حاولوا بهما أن يحجوا المسلمين في إيمانهم بالبعث توهما منهم بأنهم إن كان البعث واقعا فسيكونون في الحياة الآخرة كما كانوا في الدنيا أهل ذمام وحمالة ونقض وإبرام شأن سادة العرب أنهم إذا شفعوا شفعوا وإن تحملوا حملوا.

وهذا كقول العاصي بن وائل لخباب بن الأرت: لئن بعثني الله ليكونن لي مال فأقضيك دينك، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا [مريم: ٧٧] . وكل هذا من الجدال بالباطل وهو طريقة جدلية إن بنيت على الحق كما ينسب إلى علي بن أبي طالب في ضد هذا:

زعم المنجم والطبيب كلاهما ... لا تحشر الأجساد قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولي فالخسار عليكما

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٠/٢٠٦

وحكى الله عنهم قولهم ولنحمل خطاياكم بصيغة الأمر بلام الأمر: إما لأنهم نطقوا بمثل ذلك لبلاغتهم، وإما لإفادة ما تضمنته مقالتهم من تأكيد تحملهم." (١)

"[٢٧]

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٢٧]

ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين (٢٧)

ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب.

هذا الكلام عقبت به قصة إبراهيم تبيانا لفضله إذ لا علاقة له بالقصة. والظاهر أن يكون المراد ب وهبنا، وجعلنا الإعلام بذلك فيكون من تمام القصة كما في سورة هود. وتقدم نظير هذه الآية في الأنعام في ذكر فضائل إبراهيم. والكتاب مراد به الجنس فالتوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن كتب نزلت في ذرية إبراهيم.

وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين.

جمع الله له أجرين: أجرا في الدنيا بنصره على أعدائه وبحسن السمعة وبث التوحيد ووفرة النسل، وأجرا في الآخرة وهو كونه في زمرة الصالحين، والتعريف للكمال، أي من كمل الصالحين.

[٢٨- ٣٠]

[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٢٨ الى ٣٠]

ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (٢٨) أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين (٢٩) قال رب انصرني على القوم المفسدين (٣٠)

ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر

الانتقال من رسالة إبراهيم إلى قومه إلى رسالة لوط لمناسبة أنه شابه إبراهيم في أن أنجاه الله من عذاب الرجز. والقول في صدر هذه الآية كالقول في آية وإبراهيم إذ قال لقومه [العنكبوت: ١٦] المتقدم آنفا. وتقدم نظيرها في سورة النمل وفي سورة الشعراء.

وما بين الآيات من تفاوت هو تفنن في حكاية القصة للغرض الذي ذكرته في المقدمة السابعة، إلا قوله هنا إنكم لتأتون

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٠/٢١٩

الفاحشة فإنه لم يقع له نظير فيما مضى.

وقوم لوط من الكنعانيين وتقدم ذكرهم في سورة الأعراف.." (١)

"[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٦٢]

الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم (٦٢)

هذا إلزام آخر لهم بإبطال شركهم وافتضاح تناقضهم فإنهم كانوا معترفين بأن الرازق هو الله تعالى قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار إلى قوله فسيقولون الله فقل أفلا تتقون في سورة يونس [٣١] . وإنما جاء أسلوب هذا الاستدلال

مخالفا لأسلوب الذي قبله والذي بعده فعدل عن تركيب ولئن سألتهم [العنكبوت: ٦١] تفننا في الأساليب لتجديد نشاط السامع.

وأدمج في الاستدلال على انفراده تعالى بالرزق التذكير بأنه تعالى يرزق عباده على حسب مشيئته دليلا على أنه المختار في تصرفه وليس ذلك على مقادير حاجاتهم ولا على ما يبدو من الانتفاع بما يرزقونه.

وبسط الرزق: إكثاره، وقدره: تقليله وتقتيره. والمقصود: أنه الرازق لأحوال الرزق، وقد تقدم في قوله تعالى الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر في سورة الرعد [٢٦] . فجاءت هذه الآية على وزان قوله في سورة الروم [٣٧] أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون فجمع بين ضمير المشركين في أولها وبين كون الآيات للمؤمنين في آخرها.

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله الله يبسط الرزق لإفادة الاختصاص، أي الله لا غيره يبسط الرزق ويقدر. والتعبير بالمضارع لإفادة تجدد البسط والقدر. وزيادة له بعد ويقدر في هذه الآية دون آية سورة الرعد وآية القصص للتعريض بتبصير المؤمنين الذين ابتلوا في أموالهم من اعتداء المشركين عليها كما أشار إليه قوله آنفا: وكأين من دابة لا تحمل رزقها [العنكبوت: ٦٠] بأن ذلك القدر في الرزق هو لهم لا عليهم لما ينجر لهم منه من الثواب ورفع الدرجات، فغلب في هذا الغرض جانب المؤمنين ولهذا لم يعد يقدر بحرف (على) كما هو مقتضى معنى القدر." (٢)

"ومن الحكم الإلهية في كون البرق

مرئيا أن ذلك يثير في النفوس خوفا من أن يكون الله سلطه عقابا وطمعا في أن يكون أراد به خيرا للناس فيطمعون في نزول المطر، ولذلك أعقبه بقوله وينزل من السماء ماء فإن نزول المطر مما يخطر بالبال عند ذكر البرق.

وقوله من آياته جار ومجرور يحتاج إلى تقدير كون إن كان ظرفا مستقرا، أو إلى متعلق إن كان ظرفا لغوا. وموقع هذا الجار والمجرور في هذه الآية وارد على مثل مواقع أمثاله في الآيات السابقة واللاحقة الشبيهة بها، وذلك مما يدعو إلى اعتبار ما يذكر بعد الجار والمجرور في معنى مبتدأ مخبر عنه بالجار والمجرور المقدم عليه حملا على نظائره، فيكون المعنى: ومن ءاياته إراءته

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٠/٢٣٩

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢١/٢٧

إياكم البرق إلخ. فلذلك قال أيمة النحو: يجوز هنا جعل الفعل المضارع بمعنى المصدر من غير وجود (أن) ولا تقديرها، أي من غير نصب المضارع بتقدير (أن) محذوفة، وجعلوا منه قول عروة بن الورد:

وقالوا ما تشاء فقلت ألهو ... إلى الإصباح آثر ذي آثار

وقول طرفة:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وجعلوا منه قوله تعالى قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون [الزمر: ٦٤] برفع أعبد في مشهور القراءات، وقولهم في المثل: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه،

وقول النبيء صلى الله عليه وسلم: «كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل على دابته فتحمله عليها أو تحمل عليها متاعه صدقة»

وقوله فيه: «وتميط الأذى عن الطريق صدقة» رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

ومن بديع الاستعمال تفنن هذه الآيات في التعبير عن معاني المصدر بأنواع صيغه الواردة في الاستعمال، من تعبير بصيغة صريح المصدر تارة كقوله ومن آياته خلق السماوات والأرض [الروم: ٢٢] وقوله وابتغاؤكم من فضله [الروم: ٢٣] ، وبالمصدر الذي ينسبك من اقتران أن المصدرية بالفعل الماضي أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا [الروم: ٢١] واقترانها بالفعل المضارع ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره [الروم:

٢٥] ،." (١)

"في عذاب لا يجدون منه منجى. وهذا الاستئناف وقع معترضا بين الجمل المتعاطفة.

والتمتيع: العطاء الموقت فهو إعطاء المتاع، أي الشيء القليل. وقليلا صفة لمصدر مفعول مطلق، أي تمتيعا قليلا، وقلته بالنسبة إلى ما أعد الله للمسلمين أو لقلة مدته في الدنيا بالنسبة إلى مدة الآخرة، وتقدم عند قوله تعالى ومتاع إلى حين في الأعراف [٢٤] .

والاضطرار: الإلجاء، وهو جعل الغير ذا ضرورة، أي: لزوم، وتقدم عند قوله تعالى: ثم أضطره إلى عذاب النار في سورة البقرة [١٢٦] .

والغليظ: من صفات الأجسام وهو القوي الخشن، وأطلق على الشديد من الأحوال على وجه الاستعارة بجامع الشدة على النفس وعدم الطاقة على احتماله. وتقدم قوله ونجيناهم من عذاب غليظ في سورة هود [٥٨] كما أطلق الكثير على القوي. [٢٥]

[سورة لقمان (٣١) : آية ٢٥]

ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (٢٥)

عطف على جملة وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا [لقمان: ٢١] باعتبار أن ما وجدوا

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٧٨/٢١

عليه آباءهم هو الإشراك مع الله في الإلهية، وإن سألهم سائل: من خلق السماوات والأرض يقولوا خلقهن الله، وذلك تسخيف لعقولهم التي تجمع بين الإقرار لله بالخلق وبين اعتقاد إلهية غيره.

والمراد بالسماوات والأرض: ما يشمل ما فيها من المخلوقات ومن بين ذلك حجارة الأصنام، وتقدم نظيرها في سورة العنكبوت. وعبر هنا ب لا يعلمون وفي سورة العنكبوت [٦٣] ب لا يعقلون تفننا في المخالفة بين القصتين مع اتحاد المعنى.." (١)

"إرجاعهم إلى الدنيا ليعملوا الصالحات مقتضى لحكمتنا لكنا جبلناهم على الهدى في حياتهم الدنيا فكانوا يأتون الصالحات بالقسر والإلجاء. فالمراد القول ما أوعد الله به أهل الشرك والضلال.

والجنة: الجن وهم الشياطين.

وجعل جمهور المفسرين قوله ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها إلى آخره جوابا موجها من قبل الله تعالى إلى المجرمين عن قولهم ربنا أبصرنا [السجدة: ١٢] إلخ.

ووجود الواو في أول هذا الكلام ينادي على أنه ليس جوابا لقول المشركين يومئذ فهم أقل من أن يجعلوا أهلا لتلقي هذه الحكمة بل حقهم الإعراض عن جوابهم كما جاء في آية سورة المؤمنين [١٠٦- ١٠٨] : قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسؤا فيها ولا تكلمون، ولأنه لا يلاقي سؤالهم لأنهم سألوا الرجوع ليعملوا صالحا ولم يكن كلامهم اعتذارا عن ضلالهم بأن الله لم يؤتهم الهدى في الحياة الدنيا، وإنما هذا بيان من الله ساقه للرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ليحيطوا علما بدقائق الحكمة الربانية.

وعدل عن الإضافة حق القول مني فلم يقل: حق قولي، لأنه أريد الإشارة إلى قول معهود وهو ما في سورة ص [٨٥] : لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين أي حق القول المعهود. واجتلبت من الابتدائية لتعظيم شأن هذا القول بأنه من الله.

وعدل عن ضمير العظمة إلى ضمير النفس لإفادة الانفراد بالتصرف ولأنه الأصل، مع ما في هذا الاختلاف من التفنن. [١٤]

[سورة السجده (٣٢) : آية ١٤]

فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون (١٤)

هذا جواب عن قولهم ربنا أبصرنا وسمعنا [السجدة: ١٢] الذي هو إقرار بصدق ما كانوا يكذبون به، المؤذن به قولهم ربنا أبصرنا وسمعنا. فالفاء لتفريع جواب." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٧٩/٢١

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٢٤/٢١

"تحمل الأذى، ولأن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه فعليه إذا أحس بأن قوله أو فعله يخدل الغم على غيره أن يكف عن ذلك ولو كان يجتني منه منفعة لنفسه إذ لا يضر بأحد لينتفع غيره إلا أن يكون لمن يأتي بالعمل حق على الآخر فإن له طلبه مع أنه مأمور بحسن التقاضي، وإن كان إدخاله الغم على غيره عن غباوة وقلة تفطن له فإنه مذموم في ذاته وهو يصل إلى حد يكون الشعور به بديهيا.

وللحكماء والشعراء أقوال كثيرة في الثقلاء طفحت بها كتب أدب الأخلاق.

ومعاملة الناس النبيء صلى الله عليه وسلم بهذا الخلق أشد بعدا عن الأدب لأن للنبيء صلى الله عليه وسلم أوقاتا لا تخلو ساعة منها عن الاشتغال بصلاح الأمة ويجب أن لا يشغل أحد أوقاته إلا بإذنه، ولذلك قال تعالى: إلا أن يؤذن لكم.

والأمر في قوله: فادخلوا للندب لأن إجابة الدعوة إلى الوليمة سنة، وتقييد النهي بقوله: غير ناظرين إناه للتنزيه لأن الحضور قبل تهيؤ الطعام غير مقتضي للدعوة ولا يتضمنه الإذن فهو تطفل.

والأمر في قوله: فانتشروا للوجوب لأن دخول المنزل بغير إذن حرام، وإنما جاز بمقتضى الدعوة للأكل فهو إذن مقيد المعنى بالغرض المأذون لأجله فإذا انقضى السبب المبيح للدخول عاد تحريم الدخول إلى أصله إلا أنه نظري قد يغفل عنه لأن أصله مأذون فيه والمأذون فيه شرعا لا يتقيد بالسلامة إلا إذا تجاوز الحد المعروف تجاوزا بينا.

وعطف ولا مستأنسين لحديث راجع إلى هذا الأمر بقوله: فانتشروا فلذلك ذكر عقبه فإن استدامة المكث في معنى الدخول، فذكر بإثره وحصل تفنن في الكلام.

وفي هذه الآية دليل على أن طعام الوليمة وطعام الضيافة ملك للمتضيف وليس ملكا للمدعوين ولا للأضياف لأنهم إنما أذن لهم في الأكل منه خاصة ولم يملكوه فلذلك لا

يجوز لأحد رفع شيء من ذلك الطعام معه.

وجملة إن ذلكم كان يؤذي النبيء فيستحيي منكم استئناف ابتدائي للتحذير ودفع الاغترار بسكوت النبيء صلى الله عليه وسلم أن يحسبوه رضي بما فعلوا. فمناط التحذير قوله: ذلكم كان يؤذي النبيء فإن أذى النبيء صلى الله عليه وسلم مقرر في نفوسهم." (١)

"فقوله هنا: وما يمسك حذف مفعوله لدلالة قوله: ما يفتح الله للناس من رحمة عليه. والتقدير: وما يمسكه من رحمة، ولم يذكر له بيان استغناء ببيانه من فعل.

والإرسال: ضد الإمساك، وتعدية الإرسال باللام للتقوية لأن العامل هنا فرع في العمل.

ومن بعده بمعنى: من دونه كقوله تعالى: فمن يهديه من بعد الله [الجاثية: ٢٣] فبأي حديث بعد الله [الجاثية: ٦] ، أي فلا مرسل له دون الله، أي لا يقدر أحد على إبطال ما أراد الله من إعطاء أو منع والله يحكم لا معقب لحكمه. وتذكير الضمير في قوله: فلا مرسل له مراعاة للفظ ما لأنها لا بيان لها، وتأنيثه في قوله: فلا ممسك لها لمراعاة بيان ما في قوله: من رحمة لقربه.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٨٥/٢٢

وعطف وهو العزيز الحكيم تذييل رجح فيه جانب الإخبار فعطف، وكان مقتضى الظاهر أن يكون مفصولا لإفادة أنه يفتح ويمسك لحكمة يعلمها، وأنه لا يستطيع أحد نقض ما أبرمه في فتح الرحمة وغيره من تصرفاته لأن الله عزيز لا يمكن لغيره أن يغلبه، فإن نقض ما أبرم ضرب من الهوان والمذلة. ولذلك كان من شعار صاحب السؤدد أنه يبرم وينقض قال الأعشى:

علقم ما أنت إلى عامر ... الناقض الأوتار والواتر

وضمير لها وضمير له عائدان إلى ما من قوله: ما يفتح الله للناس من رحمة، روعي في تأنيث أحد الضميرين معنى ما فإنه اسم صادق على رحمة وقد بين بها، وروعي في تذكير الضمير الآخر لفظ ما لأنه لفظ لا علامة تأنيث فيه. وهما اعتباران كثيران في مثله في فصيح الكلام، فالمتكلم بالخيار بين أي الاعتبارين شاء.

والجمع بينهما في هذه الآية تفنن. وأوثر بالتأنيث ضمير ما لأنها مبينة بلفظ مؤنث وهو

من رحمة.

[٣]

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٣]

يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون (٣)

يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض.

لما جرى ذكر رحمة الله التي تعم الناس كلهم أقبل على خطابهم بأن يتذكروا." (١)

"هنا ب مواخر إيقافا على الغرض من تقديم الظرف، وفي آية النحل ذكر المخر في عداد الامتنان لأنه به تيسير الأسفار، ثم فصل بين مواخر وعلته بظرف فيه، فصار ما يؤمىء إليه الظرف فصلا بغرض أدمج إدماجا وهو الاستدلال على عظيم الصنع بطفو الفلك على الماء، فلما أريد الانتقال منه إلى غرض آخر وهو العود إلى الامتنان بالمخر لنعمة التجارة في البحر عطف المغاير في الغرض.

[١٣، ١٤]

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ١٣ الى ١٤]

يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير (١٣) إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير (١٤)

يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى.

استدلال عليهم بما في مظاهر السماوات من الدلائل على بديع صنع الله في أعظم المخلوقات ليتذكروا بذلك أنه الإله

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٢/٢٥٣

الواحد.

وتقدم الكلام على نظير هذه الآية في سورة لقمان، سوى أن هذه الآية جاء فيها كل يجري لأجل فعدي فعل يجري باللام وجيء في آية سورة لقمان تعدية فعل يجري بحرف (إلى) ، فقيل اللام تكون بمعنى (إلى) في الدلالة على الانتهاء، فالمخالفة بين الآيتين تفنن في النظم. وهذا أباه الزمخشري في سورة لقمان ورده أغلظ رد فقال:

ليس ذلك من تعاقب الحرفين ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن ولكن المعنيين أعني الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض لأن قولك:

يجري إلى أجل مسمى معناه يبلغه، وقوله: يجري لأجل تريد لإدراك أجل اهـ.

وجعل اللام للاختصاص أي ويجري لأجل أجل، أي لبلوغه واستيفائه، والانتهاء والاختصاص كل منهما ملائم للغرض، أي فمآل المعنيين واحد وإن كان طريقه مختلفا، يعني فلا يعد الانتهاء معنى للام كما فعل ابن مالك وابن هشام، وهو وإن كان يرمي إلى تحقيق الفرق بين معاني الحروف وهو مما نميل إليه إلا أننا لا نستطيع أن ننكر كثرة ورود اللام في مقام معنى الانتهاء كثرة جعلت استعارة حرف التخصيص لمعنى الانتهاء من الكثرة إلى مساويه للحقيقة، اللهم إلا أن يكون الزمخشري يريد أن الأجل هنا هو أجل كل إنسان، أي عمره وأن الأجل في سورة لقمان هو أجل بقاء هذا العالم.

وهو على الاعتبارين إدماج للتذكير في خلال الاستدلال ففي هذه الآية ذكرهم." (١)

"بينهم وبين المنادي حاجز الأرض. فهذا إطناب أفاد معنى لا يفيده الإيجاز بأن يقال: وما أنت بمسمع الموتى.

وجيء بصيغة الجمع الأحياء والأموات تفننا في الكلام بعد أن أورد الأعمى والبصير بالإفراد لأن المفرد والجمع في المعرف بلام الجنس سواء إذا كان اسما له أفراد بخلاف النور والظل والحرور، وأما جمع الظلمات فقد علمت وجهه آنفا.

وجملة إن أنت إلا نذير أفادت قصرا إضافيا بالنسبة إلى معالجة تسميعهم الحق، أي أنت نذير للمشابهين من في القبور ولست بمدخل الإيمان في قلوبهم، وهذا مسوق مساق المعذرة للنبيء صلى الله عليه وسلم وتسليته إذ كان مهتما من عدم إيمانهم.

والنذير: المنبئ عن توقع حدوث مكروه أو مؤلم.

والاقتصار على وصفه بالنذير لأن مساق الكلام على المصممين على الكفر.

[٢٤]

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٢٤]

إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير (٢٤)

استئناف ثناء على النبيء صلى الله عليه وسلم وتنويه به وبالإسلام. وفيه دفع توهم أن يكون قصره على النذارة قصرا حقيقيا لتبين أن قصره على النذارة بالنسبة للمشركين الذين شابه حالهم حال أصحاب القبور، أي إن رسالتك تجمع بشارة ونذارة

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٢/٢٨١

فالبشارة لمن قبل الهدى، والنذارة لمن أعرض عنه، وكل ذلك حق لأن الجزاء على حسب القبول، فهي رسالة ملابسة للحق ووضع الأشياء مواضعها.

فقوله: بالحق إما حال من ضمير المتكلم في أرسلناك أي محقين غير لاعبين، أو من كاف الخطاب، أي محقا أنت غير كاذب، أو صفة لمصدر محذوف، أي إرسالا ملابسا بالحق لا يشوبه شيء من الباطل. وتقدم نظير هذه الجملة في سورة البقرة.

وقوله: وإن من أمة إلا خلا فيها نذير إبطال لاستبعاد المشركين أن يرسل الله إلى الناس بشرا منهم، فإن تلك الشبهة كانت من أعظم ما صدهم عن التصديق." (١)

"يعم الظلم وغيره. وأوثر في سورة النحل بظلمهم لأنها جاءت عقب تشنيع ظلم عظيم من ظلمهم وهو ظلم بناتهم الموءودات وإلا أن هنالك قال: ما ترك عليها [النحل: ٦١] وهنا ما ترك على ظهرها وهو تفنن تبعه المعري في قوله:

وإن شئت فازعم أن من فوق ظهرها ... عبيدك واستشهد إلهك يشهد

والضمير للأرض هنا وهناك في البيت لأنها معلومة من المقام. والظهر: حقيقته متن الدابة الذي يظهر منها، وهو ما يعلو الصلب من الجسد وهو مقابل البطن فأطلق على ظهر الإنسان أيضا وإن كان غير ظاهر لأن الذي يظهر من الإنسان صدره وبطنه. وظهر الأرض مستعار لبسطها الذي يستقر عليه مخلوقات الأرض تشبيها للأرض بالدابة المركوبة على طريقة المكنية. ثم شاع ذلك فصار من الحقيقة.

فأما قوله هنا: فإن الله كان بعباده بصيرا، وقد قال هنالك لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون [النحل: ٦١] ، فما هنا إيماء إلى الحكمة في تأخيرهم إلى أجل مسمى.

والتقدير: فإذا جاء أجلهم أخذهم بما كسبوا فإن الله كان بعباده بصيرا، أي عليما في حالي التأخير ومجيء الأجل، ولهذا فقوله: فإن الله كان بعباده بصيرا دليل جواب (إذا) وليس هو جوابها، ولذلك كان حقيقا بقرنه بفاء التسبب، وأما ما في سورة النحل فهو الجواب وهو تهديد بأنهم إذا جاء أجلهم وقع بهم العذاب دون إمهال.

وقوله: فإن الله كان بعباده بصيرا هو أيضا جواب عن سؤال مقدر أن يقال: ماذا جنت الدواب حتى يستأصلها الله بسبب ما كسب الناس، وكيف يهلك كل من على الأرض وفيهم المؤمنون والصالحون، فأفيد أن الله أعلم بعدله. فأما الدواب فإنها مخلوقة لأجل الإنسان كما قال تعالى: هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا [البقرة: ٢٩] ، فإهلاكها قد يكون إنذارا للناس لعلهم يقلعون عن إجرامهم، وأما حال المؤمنين في حين إهلاك الكفار فالله أعلم بهم فلعل الله أن يجعل لهم طريقا إلى النجاة كما نجى هودا ومن معه، ولعله إن أهلكهم أن يعوض لهم حسن الدار كما

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «ثم يحشرون على نياتهم» .." (٢)

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٢/٢٩٦

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٢/٣٤٠

"فقامت السورة على تقرير أمهات أصول الدين على أبلغ وجه وأتمه من إثبات الرسالة، والوحي، ومعجزة القرآن، وما يعتبر في صفات الأنبياء، وإثبات القدر، وعلم الله، والحشر، والتوحيد، وشكر المنعم، وهذه أصول الطاعة بالاعتقاد والعمل، ومنها تتفرع الشريعة. وإثبات الجزاء على الخير والشر مع إدماج الأدلة من الآفاق والأنفس بتفنن عجيب، فكانت هذه السورة جديرة بأن تسمى «قلب القرآن» لأن من تقاسيمها تتشعب شرايين القرآن كله، وإلى وتينها ينصب مجراها.

قال الغزالي: إن ذلك لأن الإيمان صحته باعتراف بالحشر، والحشر مقرر في هذه

السورة بأبلغ وجه، كما سميت الفاتحة أم القرآن إذ كانت جامعة لأصول التدبر في أفانينه كما تكون أم الرأس ملاك التدبر في أمور الجسد.

[١]

[سورة يس (٣٦) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

يس (١)

القول فيه كالقول في الحروف المقطعة الواقعة في أوائل السور، ومن جملتها أنه اسم من أسماء الله تعالى، رواه أشهب عن مالك قاله ابن العربي، وفيه عن ابن عباس أنه: يا إنسان، بلسان الحبشة. وعنه أنها كذلك بلغة طيء، ولا أحسب هذا يصح عنه لأن كتابتها في المصاحف على حرفين تنافي ذلك.

ومن الناس من يدعي أن يس من أسماء النبيء صلى الله عليه وسلم. وبنى عليه إسماعيل بن بكر الحميري شاعر الرافضة المشهور عندهم بالسيد الحميري قوله:

يا نفس لا تمحضي بالود جاهدة ... على المودة إلا آل ياسينا

ولعله أخذه من قوله تعالى في سورة الصافات [١٣٠] سلام على إل ياسين فقد قيل إنه يعني آل محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن الناس من قال: إن يس اختزال: يا سيد، خطابا للنبيء صلى الله عليه وسلم ويوهنه نطق القرآء بها بنون.

ومن الناس من يسمي ابنه بهذه الكلمة وهو كثير في البلاد المصرية والشامية ومنهم الشيخ يس بن زين الدين العليمي الحمصي المتوفى سنة ١٠٦١ صاحب." (١)

"أسماءكم حين دعوناكم حل الشؤم بينكم كناية عن كونهم أهلا لأن تكون أسماؤهم شؤما.

وفي ذكر كلمة قوم إيذان بأن الإسراف متمكن منهم وبه قوام قوميتهم كما تقدم في قوله: لآيات لقوم يعقلون في سورة البقرة [١٦٤] .

[٢٠- ٢٥]

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٤٤/٢٢

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٢٠ إلى ٢٥]

وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين (٢٠) اتبعوا من لا يسئلكم أجرا وهم مهتدون (٢١) وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون (٢٢) أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون (٢٣) إني إذا لفي ضلال مبين (٢٤)

إني آمنت بربكم فاسمعون (٢٥)

عطف على قصة التحاور الجاري بين أصحاب القرية والرسل الثلاثة لبيان البون بين حال المعاندين من أهل القرية وحال الرجل المؤمن منهم الذي وعظهم بموعظة بالغة وهو من نفر قليل من أهل القرية.

فلك أن تجعل جملة وجاء من أقصا المدينة عطفا على جملة جاءها المرسلون [يس: ١٣] ولك أن تجعلها عطفا على جملة فقالوا إنا إليكم مرسلون [يس: ١٤] .

والمراد بالمدينة هنا نفس القرية المذكورة في قوله: أصحاب القرية [يس: ١٣] عبر عنها هنا بالمدينة تفننا، فيكون أقصا صفة لمحذوف هو المضاف في المعنى إلى المدينة. والتقدير: من بعيد المدينة، أي طرف المدينة، وفائدة ذكر أنه جاء من أقصى المدينة الإشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة

لأن قلب المدينة هو مسكن حكامها وأحبار اليهود وهم أبعد عن الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوهم إليه الرسل، وعامة سكانها تبع لعظمائها لتعلقهم بهم وخشيتهم بأسهم بخلاف سكان أطراف المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر وقلة اكتراث بالآخرين لأن سكان الأطراف غالبهم عملة أنفسهم لقربهم من البدو.

وبهذا يظهر وجه تقديم من أقصا المدينة على رجل للاهتمام بالثناء." (١)

"وهذا إدماج لذكر آية أخرى من آيات الانفراد بالخلق، فخلق الحيوان بما فيه من القوى لتناسله وحماية نوعه وإنتاج منافعه، هو أدق الخلق صنعا وأعمقه حكمة، وأدخله في المنة على الإنسان، بأن جعلت منافع الحيوان له كما في آية سورة المؤمنين. فمن أجل ذلك خص من بين الخلق الآخر بقرنه بالتسبيح لخالقه تنويها بشأنه وتفننا في سرد أعظم المواليد الناشئة عن إيداع قوة الحياة للأرض وانبثاق أنواع الأحياء وأصنافها منها، كما أشار إليه الابتداء بذكر مما تنبت الأرض قبل غيره من مبادئ التخلق لأنه الأسبق في تكوين مواد حياة الحيوان فإنه يتولد من النطف الذكور والإناث، وتتولد النطف من قوى الأغذية الحاصلة من تناول النبات فذلك من معنى قوله: مما تنبت الأرض ومن أنفسهم أي ومما يتكون فيهم من أجزائهم الحيوانية.

وجيء بضمير جماعة العقلاء تغليبا لنوع الإنسان نظرا لكونه المقصود بالعبرة بهذه الآية، وللتخلص إلى تخصيصه بالعبرة في قوله: ومما لا يعلمون.

وإشارة قوله تعالى: ومما لا يعلمون إلى أسرار مودعة في خلق أنواع الحيوان وأصنافه هي التي ميزت أنواعه عن بعض وميزت

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٢/٣٦٥

أصنافه وذكوره عن إناثه، وأودعت فيه الروح الذي امتاز به عن النبات بتدبير شؤونه على حسب استعداد كل نوع وكل صنف حتى يبلغ في الارتقاء إلى أشرف الأنواع وهو نوع الإنسان، فمعنى ومما لا يعلمون: مما لا يعلمونه تفصيلا وإن كانوا قد يشعرون به إجمالا، فإن المتأمل يعلم أن في المخلوقات أسرارا خفية لم تصل أفهامهم إلى إدراك كنهها، ومن ذلك الروح فقد قال تعالى: قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا [الإسراء: ٨٥] .

وقد يتفاضل الناس في إدراك بعض تلك الخصائص إجمالا وتفصيلا ثم يستوون في عدم العلم ببعضها، وقد يمتاز بعض الطوائف أو الأجيال بمعرفة شيء من دقائق الخلق بسبب اكتشاف أو تجربة أو تقضي آثار لم يكن يعرفها غير أولئك ثم يستوون فيما بقي

تحت طي الخفاء من دقائق التكوين، فبهذا الشعور الإجمالي بها وقع عدها في ضمن الاعتبار بآية خلق الأزواج من جميع النواحي.

وإذا حمل الأزواج في قوله: سبحان الذي خلق الأزواج كلها على المعنى." (١)

"من فضول أموالهم أو أن يعطوهم ما كانوا يجعلونه لله من أموالهم الذي حكاه الله عنهم بقوله:

وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا [الأنعام: ١٣٦] فلعل من أسلم من الفقراء سألوا المشركين ما اعتادوا يعطونهم قبل إسلامهم فيقولون أعطوا مما رزقكم الله وقد سمعوا منهم كلمات إسلامية لم يكونوا يسمعونها من قبل، وربما كانوا يحاجونهم بأن الله هو الرزاق ولا يقع في الكون كائن إلا بإرادته فجعل المشركون يتعللون لمنعهم بالاستهزاء فيقولون: لا نطعم من لو يشاء الله لأطعمه، وإذا كان هذا رزقناه الله فلما ذا لم يرزقكم، فلو شاء الله لأطعمكم كما أطعمنا. وقد يقول بعضهم ذلك جهلا فإنهم كانوا يجهلون وضع صفات الله في مواضعها كما حكى الله عنهم: وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم [الزخرف: ٢٠] .

وإظهار الموصول من قوله: قال الذين كفروا في مقام الإضمار مع أن مقتضى الظاهر أن يقال: قالوا أنطعم إلخ لنكتة الإيماء إلى أن صدور هذا القول منهم إنما هو لأجل كفرهم ولأجل إيمان الذين سئل الإنفاق عليهم.

روى ابن عطية: إن النبيء صلى الله عليه وسلم أمر المشركين بالإنفاق على المساكين في شدة أصابت الناس فشح فيها الأغنياء على المساكين ومنعوهم ما كانوا يعطونهم.

واللام في قوله: للذين آمنوا يجوز أن تكون لتعدية فعل القول إلى المخاطب به أي خاطبوا المؤمنين بقولهم: أنطعم من لو يشاء الله أطعمه، ويجوز أن تكون اللام للعلة، أي قال الذين كفروا لأجل الذين آمنوا، أي قالوا في شأن الذين آمنوا كقوله تعالى: الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا [آل عمران: ١٦٨] وقوله: وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه [الأحقاف: ١١] أي قالوا ذلك تعلة لعدم الإنفاق على فقراء المؤمنين.

والاستفهام في أنطعم إنكاري، أي لا نطعم من لو شاء الله لأطعمهم بحسب اعتقادكم أن الله هو المطعم.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٦/٢٣

والتعبير في جوابهم بالإطعام مع أن المطلوب هو الإنفاق: إما لمجرد التفنن تجنبا لإعادة اللفظ فإن الإنفاق يراد منه الإطعام، وإما لأنهم سئلوا الإنفاق وهو أعم من الإطعام لأنه يشمل الإكساء والإسكان فأجابوا بإمساك الطعام وهو أيسر." (١)

"على اقتلاع ما يثيره الجواب الثاني في كلامهما بعدم القصد إلى الوزن، من لزوم خفاء ذلك على علم الله تعالى فلما ذا لا تجعل في موضع تلك الفقرات المتزنة فقرات سليمة من الاتزان.

ولم أر لأحد من المفسرين والخائضين في وجوه إعجاز القرآن التصدي لاقتلاع هذه الشبهة، وقد مضت عليها من الزمان برهة، وكنت غير مقتنع بتلك الردود ولا أرضاها، وأراها غير بالغة من غاية خيل الحلبة منتهاها.

فالذي بدا لي أن نقول: إن القرآن نزل بأفصح لغات البشر التي تواضعوا واصطلحوا عليها ولو أن كلاما كان أفصح من كلام العرب أو أمة كانت أسلم طباعا من الأمة العربية لاختارها الله لظهور أفضل الشرائع وأشرف الرسل وأعز الكتب الشرعية.

ومعلوم أن القرآن جاء معجزا لبلغاء العرب فكانت تراكيبه ومعانيها بالغين حدا يقصر عنه كل بليغ من بلغائهم على مبلغ ما تتسع له اللغة العربية فصاحة وبلاغة فإذا كانت نهاية مقتضى الحال في مقام من مقامات الكلام تتطلب لإيفاء حق الفصاحة والبلاغة ألفاظا وتركيبا ونظما فاتفق أن كان لمجموع حركاتها وسكوناتها ما كان جاريا على ميزان الشعر العربي في أعاريضه وضروبه لم يكن ذلك الكلام معدودا من الشعر لو وقع مثله في كلام عن غير قصد فوقوعه في كلام البشر قد لا يتفطن إليه قائله ولو تفطن له لم يعسر تغييره لأنه ليس غاية ما يقتضيه الحال، اللهم إلا أن يكون قصد به تفننا في الإتيان بكلام ظاهره نثر وتفكيكه نظم.

فأما وقوعه في كلام الله تعالى فخارج عن ذلك كله من ثلاثة وجوه:

أحدها: أن الله لا يخفى عليه وقوعه في كلام أوحى به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

الثاني: أنه لا يجوز تبديل ذلك المجموع من الألفاظ بغيره لأن مجموعها هو جميع ما اقتضاه الحال وبلغ حد الإعجاز.

الثالث: أن الله لا يريد أن يشتمل الكلام الموحى به من عنده على محسن الجمع بين النثر والنظم لأنه أراد تنزيه كلامه عن شائبة الشعر.

واعلم أن الحكمة في أن لا يكون القرآن من الشعر مع أن المتحدين به بلغاء العرب." (٢)

"تضمنته جملة استفهام كيف تحكمون فإن كيف اسم استفهام عن الحال وهي في موضع الحال من ضمير تحكمون قدمت لأجل صدارة الاستفهام. وجملة تحكمون حال من ضمير لكم في قوله تعالى: ما لكم فحصل استفهامان: أحدهما عن الشيء الذي حصل لهم فحكموا هذا الحكم. وثانيهما عن الحالة التي اتصفوا بها لما حكي هذا الحكم الباطل. وهذا إيجاز حذف إذ التقدير: ما لكم تحكمون هذا الحكم، كيف تحكمونه. وحذف متعلق تحكمون لما دل عليه الاستفهامان من كون ما حكموا به منكرا يحق العجب منه فكلا الاستفهامين إنكار وتعجيب.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٢/٢٣

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٦١/٢٣

وفرع عليه الاستفهام الإنكاري عن عدم تذكرهم، أي استعمال ذكرهم- بضم الذال وهو العقل- أي فمنكر عدم تفهمكم فيما يصدر من حكمكم.

وأم لكم سلطان مبين إضراب انتقالي ف أم منقطعة بمعنى (بل) التي معناها الإضراب الصالح للإضراب الإبطالي والإضراب الانتقالي. والسلطان: الحجة. والمبين:

الموضح للحق. والاستفهام الذي تقتضيه أم بعدها إنكاري أيضا. فالمعنى: ما لكم سلطان مبين، أي على ما قلتم: إن الملائكة بنات الله.

وتفرع على إنكار أن تكون لهم حجة بما قالوا أن خوطبوا بالإتيان بكتاب من عند الله على ذلك إن كانوا صادقين فيما زعموا، أي فإن لم تأتوا بكتاب على ذلك فأنتم غير صادقين. والأمر في قوله: فأتوا

أمر تعجيز مثل قوله: وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله [البقرة: ٢٣] .

وإضافة الكتاب إليهم على معنى المفعولية، أي كتاب مرسل إليكم. ومجادلتهم بهذه

الجمل المتفننة رتبت على قانون المناظرة فابتدأهم بما يشبه الاستفسار عن دعويين:

دعوى أن الملائكة بنات الله، ودعوى أن الملائكة إناث بقوله: فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثا [الصافات: ١٤٩، ١٥٠] .." (١)

"ومعنى ومثلهم مماثلهم. والمراد: مماثل عددهم، أي ضعف عدد أهله من بنين وحفدة.

وتقدم نظير هذه الآية في قوله: وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين في سورة الأنبياء [٨٤] . وما بين الآيتين من تغيير يسير هو مجرد تفنن في التعبير لا يقتضي تفاوتا في البلاغة. وأما ما بينهما من مخالفة في قوله هنا: وذكرى لأولي الألباب وقوله في سورة الأنبياء وذكرى للعابدين، فأما قوله هنا وذكرى لأولي الألباب فإن الذكر التذكير بما خفي أو بما يخفى وأولو الألباب هم أهل العقول، أي تذكرة لأهل النظر والاستدلال. فإن في قصة أيوب مجملها ومفصلها ما إذا سمعه العقلاء المعتبرون بالحوادث والقائسون على النظائر استدلوا على أن صبره قدوة لكل من هو في حرج أن ينتظر الفرج، فلما كانت قصص الأنبياء في هذه السورة مسوقة للاعتبار بعواقب الصابرين وكان النبيء صلى الله عليه وسلم والمسلمون مأمورين بالاعتبار بها من قوله: اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد كما تقدم حق أن يشار إليهم «بأولي الألباب» .

وأما الذي في سورة الأنبياء فإنه جيء به شاهدا على أن النبوة لا تنافي البشرية وأن الأنبياء تعتريهم من الأحداث ما يعتري البشر مما لا ينقص منهم في نظر العقل والحكمة وأنهم إنما يقومون بأمر الله، ابتداء من قوله تعالى: وما أرسلنا قبلك إلا رجالا يوحى إليهم [الأنبياء: ٧] وأنهم معرضون لأذى الناس مما لا يخل بحرمتهم الحقيقية وأقصى ذلك الموت من قوله: وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون [الأنبياء: ٣٤] .

وإذ كان المشركون يقولون: نتربص به ريب المنون [الطور: ٣٠] ، وحاولوا قتله غير مرة فعصمه الله، ثم من قوله: ولقد

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٨٣/٢٣

استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن [الأنعام: ١٠] ثم قال: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون [الأنبياء: ٤٨، ٤٩] ، وذكر من الأنبياء من ابتلي من قومه فصبر، ومن ابتلي من غيرهم فصبر، وكيف كانت عاقبة صبرهم واحدة مع اختلاف الأسباب الداعية إليه. فكانت في ذلك آيات للعابدين، أي الممتثلين أمر الله المجتنبين نهيه، فإن مما أمر به الله الصبر على ما." (١)

"والأجل هو أجل فنائهما فإن جريهما لما كان فيه تقريب فنائهما جعل جريهما كأنه

لأجل الأجل أي لأجل ما يطلبه ويقتضيه أجل البقاء، وذلك كقوله تعالى: والشمس تجري لمستقر لها [يس: ٣٨] ، فالتنكير في (أجل) للإفراد. ويجوز أن يكون المراد بالأجل أجل حياة الناس الذي ينتهي بانتهاء الأعمار المختلفة. وليس العمر إلا أوقاتا محدودة وأنفاسا معدودة. وجري الشمس والقمر تحسب به تلك الأوقات والأنفاس، فصار جريهما كأنه لأجل.

قال أسقف نجران:

منع البقاء تقلب الشمس ... وطلوعها من حيث لا تمسي

وأقوالهم في هذا المعنى كثيرة.

فالتنكير في أجل للنوعية الذي هو في معنى لآجال مسماة. ولعل تعقيبه بوصف الغفار يرجح هذا المحمل كما سيأتي.

والمسمى: المجعول له وسم، أي ما به يعين وهو ما عينه الله لأن يبلغ إليه. وقد جاء في آيات أخرى كل يجري إلى أجل [لقمان: ٢٩] بحرف انتهاء الغاية، ولام العلة وحرف الغاية متقاربان في المعنى الأصلي وأحسب أن اختلاف التعبير بهما مجرد تفنن في الكلام.

ألا هو العزيز الغفار.

استئناف ابتدائي هو في معنى الوعيد والوعد، فإن وصف العزيز كناية عن أنه يفعل ما يشاء لا غالب له فلا تجدي المشركين عبادة أوليائهم، ووصف الغفار مؤذن باستدعائهم إلى التوبة باتباع الإسلام. وفي وصف الغفار مناسبة لذكر الأجل لأن المغفرة يظهر أثرها بعد البعث الذي يكون بعد الموت وانتهاء الأجل تحريضا على البدار بالتوبة قبل الموت حين يفوت التدارك. وفي افتتاح الجملة بحرف التنبيه إيذان بأهمية مدلولها الصريح والكنائي." (٢)

"مراقبتهم إياه بالخوف والرجاء وبتمييزهم بصفة العلم والعقل والتذكر، بخلاف حال المشركين في ذلك كله، أتبع ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإقبال على خطابهم للاستزادة من ثباتهم ورباطة جأشهم، والتقدير: قل للمؤمنين، بقرينة قوله: يا عباد الذين آمنوا إلخ.

وابتداء الكلام بالأمر بالقول للوجه الذي تقدم في نظيره آنفا، وابتداء المقول بالنداء وبوصف العبودية المضاف إلى ضمير الله تعالى، كل ذلك يؤذن بالاهتمام بما سيقال وبأنه

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٧٢/٢٣

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٣٠/٢٣

سيقال لهم عن ربهم، وهذا وضع لهم في مقام المخاطبة من الله وهي درجة عظيمة. وحذفت ياء المتكلم المضاف إليها عباد وهو استعمال كثير في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم.

وقرأه العشرة يا عباد بدون ياء في الوصل والوقف كما في «إبراز المعاني» لأبي شامة وكما في «الدرة المضيئة» في القراءات الثلاث المتممة للعشر لعلي الضباع المصري، بخلاف قوله تعالى: قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم [الزمر: ٥٣] الآتي في هذه السورة، فالمخالفة بينهما مجرد تفنن. وقد يوجه هذا التخالف بأن المخاطبين في هذه الآية هم عباد الله المتقون، فانتسابهم إلى الله مقرر فاستغني عن إظهار ضمير الجلالة في إضافتهم إليه، بخلاف الآية الآتية، فليس في كلمة يا عباد من هذه الآية إلا وجه واحد باتفاق العشرة ولذلك كتبها كتاب المصحف بدون ياء بعد الدال.

وما وقع في «تفسير ابن عطية» من قوله: وقرأ جمهور القراء قل يا عبادي بفتح الياء. وقرأ أبو عمرو أيضا وعاصم والأعشى وابن كثير يا عباد بغير ياء في الوصل اهـ. سهو، وإنما اختلف القراء في الآية الآتية قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم في هذه السورة [٥٣] فإنها ثبتت فيه ياء المتكلم فاختلفوا كما سنذكره.

والأمر بالتقوى مراد به الدوام على المأمور به لأنهم متقون من قبل، وهو يشعر بأنهم قد نزل بهم من الأذى في الدين ما يخشى عليهم معه أن يقصروا في تقواهم. وهذا الأمر تمهيد لما سيوجه إليهم من أمرهم بالهجرة للسلامة من الأذى في دينهم، وهو ما عرض به في قوله تعالى: وأرض الله واسعة.." (١)

"وقرأ الجمهور بكاف عبده. وقرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف عباده بصيغة الجمع أي النبيء صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فإنهم لما خوفوا النبيء صلى الله عليه وسلم فقد أرادوا تخويفه وتخويف أتباعه وأن الله كفاهم شرهم.

ومن يضلل الله فما له من هاد (٣٦) ومن يهد الله فما له من مضل اعتراض بين جملة أليس الله بكاف عبده الآية وجملة أليس الله بعزيز ذي

انتقام

قصد من هذا الاعتراض أن ضلالهم داء عياء لأنه ضلال مكون في نفوسهم وجبلتهم قد ثبتته الأيام، ورسخه تعاقب الأجيال، فران بغشاوته على ألبابهم، فلما صار ضلالهم كالمجبول المطبوع أسند إيجاده إلى الله كناية عن تعسر أو تعذر اقتلاعه من نفوسهم.

وأريد من نفي الهادي من قوله: فما له من هاد نفي حصول الاهتداء، فكني عن عدم حصول الهدى بانتفاء الهادي لأن عدم الاهتداء يجعل هاديهم كالمنفي. وقد تقدم قوله في سورة الأعراف [١٨٦] من يضلل الله فلا هادي له.

والآيتان متساويتان في إفادة نفي جنس الهادي، إلا أن إفادة ذلك هنا بزيادة من تنصيصا على نفي الجنس. وفي آية الأعراف ببناء هادي على الفتح بعد (لا) النافية للجنس فإن بناء اسمها على الفتح مشعر بأن المراد نفي الجنس نصا. والاختلاف بين الأسلوبين تفنن في الكلام وهو من مقاصد البلغاء.

وتقديم له على هاد للاهتمام بضميرهم في مقام نفي الهادي لهم لأن ضلالهم المحكي هنا بالغ في الشناعة إذا بلغ بهم حد

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٥٢/٢٣

الطمع في تخويف النبيء بأصنامهم في حال ظهور عدم اعتداده بأصنامهم لكل متأمل من حال دعوته، وإذ بلغ بهم اعتقاد مقدرة أصنامهم مع الغفلة عن قدرة الرب الحق، بخلاف آية الأعراف فإن فيها ذكر إعراضهم عن النظر في ملكوت السماوات والأرض وهو ضلال دون ضلال التخويف من بأس أصنامهم.." (١)

"حديث على حديث وليس تسببا على الوجود. وهذه النكتة هي الفارقة بين العطف بالفاء هنا وعطف نظيرها بالواو في قوله أول السورة وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه [الزمر: ٨] .

والمقصود بالتفريع هو قوله: فإذا مس الإنسان ضر دعانا، وأما ما بعده فتتميم واستطراد.

وقد تقدم القول في نظير صدر هذه الآية في قوله: وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي [الزمر: ٨] الآية. وأن المراد بالإنسان كل مشرك فالتعريف تعريف الجنس، والمراد جماعة من الناس وهم أهل الشرك فهو للاستغراق العرفي. والمخالفة بين الآيتين تفنن ولئلا تخلو إعادة الآية من فائدة زائدة كما هو عادة القرآن في القصص المكررة.

وقوله: إنما أوتيته على علم إنما فيه هي الكلمة المركبة من (إن) الكافة التي تصير كلمة تدل على الحصر بمنزلة (ما) النافية التي بعدها (إلا) الاستثنائية. والمعنى: ما أوتيت الذي أوتيته من نعمة إلا لعلم مني بطرق اكتسابه. وتركيز ضمير الغائب في قوله:

أوتيته عائد إلى نعمة على تأويل حكاية مقالتهم بأنها صادرة منهم في حال حضور ما بين أيديهم من أنواع النعم فهو من عود الضمير إلى ذات مشاهدة، فالضمير بمنزلة اسم الإشارة كقوله تعالى: بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم [الأحقاف: ٢٤] .

ومعنى قال إنما أوتيته على علم اعتقد ذلك فجرى في أقواله إذ القول على وفق الاعتقاد. وعلى للتعليل، أي لأجل علم، أي بسبب علم. وخولف بين هذه الآية وبين آية سورة القصص [٧٨] في قوله: على علم عندي فلم يذكر هنا عندي لأن المراد بالعلم هنا مجرد الفطنة والتدبير، وأريد هنالك علم صوغ الذهب والفضة والكيمياء التي اكتسب بها قارون من معرفة تدابيرها مالا عظيما." (٢)

"المصدر قد يجمع باعتبار تعدد الصادر منه، أو باعتبار تعدد أنواعه، وكذلك تعدد أمكنة الفوز بتعدد الطوائف، وعلى هذا فإضافة المفازة إلى ضمير الذين اتقوا لتعريفها بهم، أي المفازة التي علمتم أنها لهم وهي الجنة، وقد علم ذلك من آيات وأخبار منها قوله تعالى: إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواعب أترابا [النبأ: ٣١، ٣٣] .

وجملة لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون مبينة لجملة وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لأن نفي مس السوء هو إنجاؤهم ونفي الحزن عنهم نفي لأثر المس السوء.

وجيء في جانب نفي السوء بالجملة الفعلية لأن ذلك لنفي حالة أهل النار عنهم، وأهل النار في مس من السوء متجدد. وجيء في نفي الحزن عنهم بالجملة الاسمية لأن أهل النار أيضا في حزن وغم ثابت لازم لهم.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٤/٢٤

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٥/٢٤

ومن لطيف التعبير هذا التفنن، فإن شأن الأسواء الجسدية تجدد آلامها وشأن الأكدار القلبية دوام الإحساس بها. [٦٢- ٦٣]

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٦٢ إلى ٦٣]

الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل (٦٢) له مقاليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون (٦٣)

هذا استئناف ابتدائي تمهيد لقوله: قل أفغير الله تأمروني أعبد [الزمر: ٦٤] في ذكر تمسك الرسول صلى الله عليه وسلم والرسل من قبله بالتوحيد ونبذ الشرك والبراءة منه والتصلب في مقاومته والتصميم على قطع دابره، وجعلت الجمل الثلاث من قوله: الله خالق كل شيء إلى قوله: السماوات والأرض مقدمات تؤيد ما يجيء بعدها من قوله: قل أفغير الله تأمروني أعبد [الزمر: ٦٤] .

وقد اشتمل هذا الاستئناف ومعطوفاته على ثلاث جمل وجملة رابعة:." (١)

"وقوله: أورثنا الأرض كلام جرى مجرى المثل لمن ورث الملك قال تعالى:

أن الأرض يرثها عبادي الصالحون [الأنبياء: ١٠٥] فعبر القرآن عن مراد أهل الجنة المختلفي اللغات بهذا التركيب العربي الدال على معاني ما نطقوا به من لغاتهم المختلفة.

ويجوز أن يكون أهل الجنة نطقوا بكلام عربي ألهمهم الله إياه فقد جاء في الآثار أن كلام أهل الجنة بالعربية الفصحى. ولفظ الأرض جار على مراعاة التركيب التمثيلي لأن الأرض قد اضمحلت أو بدلت. ويجوز أن يكون لفظ الأرض مستعارا للجنة لأنها قرارهم كما أن الأرض قرار الناس في الحياة الأولى.

وإطلاق الإيراث استعارة تشبيها للإعطاء بالتوريث في سلامته من تعب الاكتساب.

والتبؤ: السكنى والحلول، والمعنى: أنهم يتنقلون في الغرف والبساتين تفننا في النعيم.

وأرادوا ب العاملين أنفسهم، أي عاملي الخير، وهذا من التصريح بالحقائق فليس فيه عيب تزكية النفس، لأن ذلك العالم عالم الحقائق الكاملة المجردة عن شوب النقائص.

واعلم أن الآيات وصفت مصير أهل الكفر ومصير المتقين يوم الحشر، وسكتت عن مصير أهل المعاصي الذين لم يلتحقوا بالمتقين بالتوبة من الكبائر وغفران الصغائر باجتناب الكبائر، وهذه عادة القرآن في الإعراض عن وصف رجال من الأمة الإسلامية بمعصية ربهم إلا عند الاقتضاء لبيان الأحكام، فإن الكبائر من أمر الجاهلية فما كان لأهل الإسلام أن يقعوا فيها فإذا وقعوا فيها فعليهم بالتوبة، فإذا ماتوا غير تائبين فإن الله تعالى يحصي لهم حسنات أعمالهم وطيبات نواياهم فيقاصهم

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٥٣/٢٤

بها إن شاء، ثم هم فيما دون ذلك يقتربون من العقاب بمقدار اقترابهم من حال أهل الكفر في وفرة المعاصي فيؤمر بهم إلى النار، أو إلى الجنة، ومنهم أهل الأعراف. وقد تقدمت نبذة من هذا الشأن في سورة الأعراف.." (١)

"كامل فكان عود النشاط بطيئا وواهنا ولعاد على القوة العصبية بالانحطاط والاضمحلال في أقرب وقت فلم يتمتع الإنسان بعمر طويل. ومنها انتشار الناس والحيوان في النهار وتبين الذوات بالضياء، وبذلك تتم المساعي للناس في أعمالهم التي بها انتظام أمر المجتمع من المدن والبوادي، والحضر والسفر، فإن الإنسان مدني بالطبع، وكادح للعمل والاكتساب، فحاجته للضياء ضرورية ولولا الضياء لكانت تصرفات الناس مضطربة مختبطة.

وللتنويه بشأن إبصار الناس في الضياء وكثرة الفوائد الحاصلة لهم من ذلك أسند الإبصار إلى النهار على طريقة المجاز العقلي لقوة الملابسة بين الأفعال وزمانها، فأسند إبصار الناس إلى نفس النهار لأنه سبب بعضه وسبب كمال بعض آخر. فأما نعمة السكون في الليل فهي نعمة واحدة هي رجوع النشاط.

وفي ذكر الليل والنهار تذكير بآية عظيمة من المخلوقات وهي الشمس التي ينشأ الليل من احتجاب أشعتها عن نصف الكرة الأرضية وينشأ النهار من انتشار شعاعها على النصف المقابل من الكرة الأرضية، ولكن لما كان المقصد الأول من هذه الآية الامتنان ذكر الليل والنهار دون الشمس، وقد ذكرت الشمس في آيات أخرى كان الغرض الأهم منها الدلالة على عظيم القدرة والوحدانية كقوله: والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم [الأنعام: ٩٦] .

ودلت مقابلة تعليل إيجاد الليل بعلة سكون الناس فيه، بإسناد الإبصار إلى ذات

النهار على طريقة المجاز العقلي وإنما المبصرون الناس في النهار، على احتباك إذ يفهم من كليهما أن الليل ساكن أيضا، وأن النهار خلق ليبصر الناس فيه إذ المنة بهما سواء، فهذا من بديع الإيجاز مع ما فيه من تفنن أسلوبي الحقيقة والمجاز العقلي. ولم يعكس فيقل: جعل لكم الليل ساكنا والنهار لتبصروا فيه، لئلا تفوت صراحة المراد من السكون كيلا يتوهم أن سكون الليل هو شدة الظلام فيه كما يقال: ليل ساج، لقلة الأصوات فيه.." (٢)

"ذاته بهذا النهي دون تشريكهم في ذلك الغرض الذي تقدم مع العلم بأنهم منهيون عن ذلك وإلا فلا فائدة لهم في إبلا غ هذا القول فكان الرسول صلى الله عليه وسلم من حين نشأته لم يسجد لصنم قط وكان ذلك مصرفة من الله تعالى إياه عن ذلك إلهاما إلهيا إرهاصا لنبوءته.

ولما حرف أو ظرف على خلاف بينهم، وأيا ما كان فهي كلمة تفيد اقتران مضمون جملتين تليانها تشبهان جملتي الشرط والجزاء، ولذلك يدعونها (لما) التوقيتية، وحصول ذلك في الزمن الماضي، فقوله: لما جاءني البينات من ربي توقيت لنهيه عن عبادة غير الله بوقت مجيء البينات، أي بينات الوحي فيما مضى وهو يقتضي أن النهي لم يكن قبل وقت مجيء البينات.

والمقصود من إسناد المنهية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم التعريض بنهي المشركين، فإن الأمر بأن يقول ذلك لا قصد منه إلا التبليغ لهم وإلا فلا فائدة لهم في الإخبار بأن الرسول عليه الصلاة والسلام منهي عن أن يعبد الذين يدعون من دون

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٧٣/٢٤

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٨٥/٢٤

الله، يعني: فإذا كنت أنا منهيا عن ذلك فتأملوا في شأنكم واستعملوا أنظاركم فيه، ليسوقهم إلى النظر في الأدلة سوقا لينا خفيا لاتباعه فيما نهى عنه، كما جاء ذلك صريحا لا تعريضا في قول إبراهيم عليه السلام لأبيه يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا [مريم: ٤٣، ٤٤] وبني الفعل للنائب لظهور أن الناهي هو الله تعالى بقرينة مقام التبليغ والرسالة.

ومعنى الدعاء في قوله: الذين تدعون يجوز أن يكون على ظاهر الدعاء، وهو القول الذي تسأل به حاجة، ويجوز أن يكون بمعنى تعبدون كما تقدم في قوله تعالى:

وقال ربكم ادعوني أستجب لكم [غافر: ٦٠] فيكون العدول عن أن يقول: أن أعبد الذين تعبدون، **تفننا**. و (من) في قوله: من ربي ابتدائية، وجعل المجرور ب (من) وصف (رب) مضافا إلى ضمير المتكلم دون أن يجعل مجرورها ضميرا يعود على اسم الجلالة إظهارا في مقام الإضمار على خلاف مقتضى الظاهر لتربية المهابة في نفوس." (١)

"الزائدة للتأكيد ولذلك لحقت نون التوكيد بفعل الشرط. وعطف عليه أو نتوفينك وهو فعل شرط ثان.

وجملة فإلينا يرجعون جواب لفعل الشرط الثاني لأن المعنى على أنه جواب له. وأما فعل الشرط الأول فجوابه محذوف دل عليه أول الكلام وهو قوله: إن وعد الله حق وتقدير جوابه: فإما نرينك بعض الذي نعدهم فذاك، أو نتوفينك فإلينا يرجعون، أي فهم غير مفلتين مما نعدهم.

وتقدم نظير هذين الشرطين في سورة يونس إلا أن في سورة يونس [٤٦] فإلينا مرجعهم وفي سورة غافر فإلينا يرجعون، والمخالفة بين الآيتين **تفنن**، ولأن ما في يونس اقتضى تهديدهم بأن الله شهيد على ما يفعلون، أي على ما يفعله الفريقان من قوله:

ومنهم من يستمعون إليك [يونس: ٤٢] وقوله: ومنهم من ينظر إليك [يونس: ٤٣] فكانت الفاصلة حاصلة بقوله: على ما يفعلون [يونس: ٤٦] ، وأما هنا فالفاصلة معاقبة للشرط فاقتضت صوغ الرجوع بصيغة المضارع المختتم بواو ونون، على أن مرجعهم [يونس: ٤٦] معرف بالإضافة فهو مشعر بالمرجع المعهود وهو مرجعهم في الآخرة بخلاف قوله: يرجعون المشعر برجوع متجدد كما علمت.

والمعنى: أنهم واقعون في قبضة قدرتنا في الدنيا سواء كان ذلك في حياتك مثل

عذاب يوم بدر أو بعد وفاتك مثل قتلهم يوم اليمامة، وأما عذاب الآخرة فذلك مقرر لهم بطريق الأولى، وهذا كقوله: أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون [الزخرف:

٤٢] .

وتقديم المجرور في قوله: فإلينا يرجعون للرعاية على الفاصلة وللاهتمام.

[٧٨]

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٤/١٩٦

[سورة غافر (٤٠) : آية ٧٨]

ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون (٧٨)

ذكرنا عند قوله تعالى: ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا في أول هذه." (١)

"واللام في لكم لام التعليل، أي لأجلكم وهو امتنان مجمل يشمل بالتأمل كل ما في الإبل لهم من منافع وهم يعلمونها إذا تذكروها وعدوها. ثم فصل ذلك الإجمال بعض التفصيل بذكر المهم من النعم التي في الإبل بقوله: لتركبوا منها إلى تحملون.

فاللام في لتركبوا منها لام كي وهي متعلقة ب جعل أي لركوبكم.

و (من) في الموضعين هنا للتبعيض وهي صفة لمحذوف يدل عليه (من) أي بعضا منها، وهو ما أعد للأسفار من الرواحل. ويتعلق حرف (من) بتركبوا، وتعلق (من) التبعيضية بالفعل تعلق ضعيف وهو الذي دعا التفتازاني إلى القول بأن (من) في مثله اسم بمعنى بعض، وتقدم ذلك عند قوله تعالى: ومن الناس من يقول آمنا بالله في سورة البقرة [٨] .

وأريد بالركوب هنا الركوب للراحة من تعب الرجلين في الحاجة القريبة بقرينة مقابلته بقوله: ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم.

وجملة ومنها تأكلون في موضع الحال من الأنعام، أو عطف على المعنى من جملة لتركبوا منها لأنها في قوة أن يقال: تركبون منها، على وجه الاستئناف لبيان الإجمال الذي في جعل لكم الأنعام، وعلى الاعتبارين فهي في حيز ما دخلت عليه لام كي فمعناها: ولتأكلوا منها.

وجملة ولكم فيها منافع عطف على جملة ومنها تأكلون، والمعنى أيضا على اعتبار التعليل كأنه قيل: ولتجتنوا منافعها المجعولة لكم وإنما غير أسلوب التعليل تفننا في الكلام وتنشيطا للسامع لئلا يتكرر حرف التعليل تكرارات كثيرة.

والمنافع: جمع منفعة، وهي مفعلة من النفع، وهي: الشيء الذي ينتفع به، أي يستصلح به. فالمنافع في هذه الآية أريد بها ما قابل منافع أكل لحومها في." (٢)

"وأما قوله: قالتا أتينا طائعين فيجوز أن يكون قول السماء والأرض مستعارا لدلالة سرعة تكونهما لشبههما بسرعة امتثال المأمور المطيع عن طواعية فإنه لا يتردد ولا يتلكأ على طريقة المكنية والتخييل من باب قول الراجز الذي لا يعرف تعيينه:

امتلأ الحوض وقال قطني وهو كثير، ويجوز أن يكون تمثيلا لهيئة تكون السماء والأرض عند تعلق قدرة الله تعالى بتكوينهما بهيئة المأمور بعمل تقبله سريعا عن طواعية. وهما اعتباران متقاربان، إلا أن القول، والإتيان، والطوع، على الاعتبار الأول تكون مجازات، وعلى الاعتبار الثاني

تكون حقائق وإنما المجاز في التركيب على ما هو معلوم من الفرق بين المجاز المفرد والمجاز المركب في فن البيان.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٤/٢٠٩

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٤/٢١٥

وإنما جاء قوله: طائعين بصيغة الجمع لأن لفظ السماء يشتمل على سبع سماوات كما قال تعالى إثر هذا فقضاهن سبع سماوات [فصلت: ١٢] فالامتثال صادر عن جمع، وأما كونه بصيغة جمع المذكر فلأن السماء والأرض ليس لهما تأنيث حقيقي.

وأما كونه بصيغة جمع العقلاء فذلك ترشيح للمكنية المتقدمة مثل قوله تعالى: إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين [يوسف: ٤] .

[١٢]

[سورة فصلت (٤١) : آية ١٢]

فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم (١٢)

فقضاهن سبع سماوات في يومين.

تفريع على قوله: فقال لها وللأرض ائتيا [فصلت: ١١] .

والقضاء: الإيجاد الإبداعي لأن فيه معنى الإتمام والحكم، فهو يقتضي الابتكار والإسراع، كقول أبي ذؤيب الهذلي:

وعليهما مسرودتان قضاهما ... داود أو صنع السوابغ تبع

وضمير فقضاهن عائد إلى السماوات على اعتبار تأنيث لفظها، وهذا **تفنن**." (١)

"كما حل بعاد وأهل الجاهلية. وعامة الأمم يتوهمون النحس والبخت من نوع الطيرة ومن التشاؤم والتيمن، ومنه الزجر والعيافة عند العرب في الجاهلية ومنه تطلع الحدثان من طوالع الكواكب والأيام عند معظم الأمم الجاهلة أو المختلة العقيدة. وكل ذلك أبطله الإسلام، أي كشف بطلانه، بما لم يسبقه تعليم من الأديان التي ظهرت قبل الإسلام.

فمعنى وصف الأيام بالنحسات: أنها أيام سوء شديد أصابهم وهو عذاب الريح،

وهي ثمانية أيام كما جاء في قوله تعالى: سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما [الحاقة: ٧] ، فالمراد: أن تلك الأيام بخصوصها كانت نحسا وأن نحسها عليهم دون غيرهم من أهل الأرض لأن عادا هم المقصودون بالعذاب. وليس المراد أن تلك الأيام من كل عام هي أيام نحس على البشر لأن ذلك لا يستقيم لاقتضائه أن تكون جميع الأمم حل بها سوء في تلك الأيام. ووصفت تلك الأيام بأنها نحسات لأنها لم يحدث فيها إلا السوء لهم من إصابة آلام الهشم المحقق إفضاؤه إلى الموت، ومشاهدة الأموات من ذويهم، وموت أنعامهم، واقتلاع نخيلهم.

وقد اخترع أهل القصص تسمية أيام ثمانية نصفها آخر شهر (شباط) ونصفها شهر (آذار) تكثر فيها الرياح غالبا دعوها أيام الحسوم ثم ركبوا على ذلك أنها الموصوفة بحسوم في قوله تعالى في سورة الحاقة [٧] سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما، فزعموا أنها الأيام الموافقة لأيام الريح التي أصابت عادا، ثم ركبوا على ذلك أنها أيام نحس من كل عام وكذبوا على

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٤/٢٤٨

بعض السلف مثل ابن عباس أكاذيب في ذلك وذلك ضغث على إبالة، وتفنن في أوهام الضلالة.

وجمع نحسات بالألف والتاء لأنه صفة لجمع غير العاقل وهو أيام.

واللام في لنذيقهم للتعليل وهي متعلقة ب (أرسلنا) . والإذاقة تخييل لمكنية، شبه العذاب بطعام هيىء لهم على وجه التهكم كما سمى عمرو بن كلثوم الغارة قرى في قوله:." (١)

"وقرأ أبو جعفر وربأت بهمزة بعد الموحدة من (ربأ) بالهمز، إذا ارتفع.

إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير إدماج لإثبات البعث في أثناء الاستدلال على تفرده تعالى بالخلق والتدبير، ووقوعه على عادة القرآن في التفنن وانتهاز فرص الهدى إلى الحق.

والجملة استئناف ابتدائي والمناسبة مشابهة الإحياءين، وحرف التوكيد لمراعاة إنكار المخاطبين إحياء الموتى.

وتعريف المسند إليه بالموصولية لما في الموصول من تعليل الخبر، وشبه إمداد الأرض بماء المطر الذي هو سبب انبثاق البزور التي في باطنها التي تصير نباتا بإحياء الميت، فأطلق على ذلك أحياها على طريق الاستعارة التبعية، ثم ارتقي من ذلك إلى جعل ذلك الذي سمي إحياء لأنه شبيه الإحياء دليلا على إمكان إحياء الموتى بطريقة قياس

الشبه، وهو المسمى في المنطق قياس التمثيل، وهو يفيد تقريب المقيس بالمقيس عليه.

وليس الاستدلال بالشبه والتمثيل بحجة قطعية، بل هو إقناعي ولكنه هنا يصير حجة لأن المقيس عليه وإن كان أضعف من المقيس إذ المشبه لا يبلغ قوة المشبه به، فالمشبه به حيث كان لا يقدر على فعله إلا الخالق الذي اتصف بالقدرة التامة لذاته فقد تساوى فيه قويه وضعيفه، وهم كانوا يحيلون إحياء الأموات استنادا للاستبعاد العادي، فلما نظر إحياء الأموات بإحياء الأرض المشبه تم الدليل الإقناعي المناسب لشبهتهم الإقناعية. وقد أشار إلى هذا تذييله بقوله: إنه على كل شيء قدير.

[٤٠]

[سورة فصلت (٤١) : آية ٤٠]

إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير (٤٠)

إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا استئناف ابتدائي قصد به تهديد الذين أهملوا الاستدلال بآيات الله على توحيده.." (٢)

"[سورة فصلت (٤١) : آية ٥١]

وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض (٥١)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٦٠/٢٤

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٠٣/٢٤

هذا وصف وتذكير بضرب آخر من طغيان النفس الإنسانية غير خاص بأهل الشرك بل هو منبث في جميع الناس على تفاوت إلا من عصم الله. وهو توصيف لنزق النفس الإنساني وقلة ثباته فإذا أصابته السراء طغا وتكبر ونسي شكر ربه نسيانا قليلا أو كثيرا وشغل بلذاته، وإذا أصابته الضراء لم يصبر وجزع ولجأ إلى ربه يلح بسؤال كشف الضراء عنه سريعا. وفي ذكر هذا الضرب تعرض لفعل الله وتقديره الخلتين السراء والضراء. وهو نقد لسلوك الإنسان في الحالتين وتعجيب من شأنه. ومحل النقد والتعجيب من إعراضه ونأيه بجانبه واضح، وأما محل الانتقاد والتعجيب من أنه ذو دعاء عريض عند ما يمسه الشر فهو من حيث لم يتذكر الإقبال على دعاء ربه إلا عند ما يمسه الشر وكان الشأن أن لا يغفل عن ذلك في حال النعمة فيدعو بدوامها ويشكر ربه عليها وقبول شكره لأن تلك الحالة أولى بالعناية من حالة مس الضر.

وأما ما تقدم من قوله: لا يسأم الإنسان من دعاء الخير إلى قوله: للحسنى [فصلت: ٤٩، ٥٠] فهو وصف لضرب آخر أشد، وهو خاص بأهل الشرك لما وقع فيه من قوله: وما أظن الساعة قائمة [الكهف: ٣٦] ، فليس قوله: وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه إلخ تكريرا مع قوله: لا يسأم الإنسان [فصلت: ٤٩] الآية. فهذا التفنن في وصف أحوال الإنسان مع ربه هو الذي دعا إلى ما اشتمل عليه قوله: وإذا أنعمنا من بعض التكرير لما ذكر في الضرب المتقدم لزيادة تقريره، وللإشارة إلى اختلاف الحالتين باعتبار الشرك وعدمه مع اتحادهما في مثار الجبلة الإنسانية، وباعتبار ما قدره الله للإنسان.

والإعراض: الانصراف عن شيء، وهو مستعار هنا للغفلة عن شكر المنعم أو التعمد لترك الشكر.." (١)

"وفي قوله تعالى: ما وصى به نوحا وقوله: وما وصينا به إبراهيم، جيء بالموصول ما، وفي قوله: والذي أوحينا إليك جيء بالموصول الذي، وقد يظهر في بادىء الرأي أنه مجرد تفنن بتجنب تكرير الكلمة ثلاث مرات متواليات، وذلك كاف في هذا التخالف. وليس يبعد عندي أن يكون هذا الاختلاف لغرض معنوي، وأنه فرق دقيق في استعمال الكلام البليغ وهو أن الذي وأخواته هي الأصل في الموصولات فهي موضوعة من أصل الوضع للدلالة على من يعين بحالة معروفة هي مضمون الصلة، ف الذي يدل على معروف عند المخاطب بصلته.

وأما ما الموصولة فأصلها اسم عام نكرة مبهمة محتاجة إلى صفة نحو قوله تعالى: إن الله نعما يعظكم به [النساء: ٥٨] عند الزمخشري وجماعة إذ قدروه: نعم شيئا يعظكم به. فما نكرة تمييز ل (نعم) وجملة يعظكم به صفة لتلك النكرة. وقال سيبويه في قوله تعالى: هذا ما لدي عتيد [ق: ٢٣] المراد: هذا شيء لدي عتيد، وأنشدوا:

لما نافع يسعى اللبيب فلا تكن ... لشيء بعيد نفعه الدهر ساعيا

أي لشيء نافع، فقد جاءت صفتها اسما مفردا بقرينة مقابلته بقوله: لشيء بعيد نفعه، ثم يعرض لما التعريف بكثرة استعمالها نكرة موصوفة بجملة فتعرفت بصفتها وأشبهت اسم الموصول في ملازمة الجملة بعدها، ولذلك كثر استعمال ما موصولة في غير العقلاء، فيكون إيثار ما وصى به نوحا وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى بحرف ما لمناسبة أنها شرائع بعد العهد بها فلم تكن معهودة عند المخاطبين إلا إجمالا فكانت نكرات لا تتميز إلا بصفاتها، وأما إيثار الموحى به إلى النبيء صلى الله

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٤/٢٥

عليه وسلم باسم الذي فلأنه شرع متداول فيهم معروف عندهم. فالتقدير: شرع لكم شيئا وصى به نوحا وشيئا وصى به إبراهيم وموسى وعيسى، والشيء الموحى به إليك. ولعل هذا من نكت الإعجاز المغفول عنها. وفي العدول من الغيبة إلى التكلم في قوله: والذي أوحينا إليك بعد قوله شرع لكم التفات.

وذكر في جانب الشرائع الأربع السابقة فعل وصى وفي جانب شريعة." (١)

"والعبرة بضلالهم مع ما كانوا عليه من القوة، وأن الله أخذهم بكفرهم وأهلك أمما أخرى فجعلهم عظة للمكذبين وأن جميعهم لم تغن عنهم أربابهم المكذوبة.

وقد أشبهت كثيرا من أغراض سورة الجاثية مع تفنن.

[١]

[سورة الأحقاف (٤٦) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١)

تقدم القول في نظيره في أول سورة غافر. وهذه جملة مستقلة مثل نظائرها من الحروف المقطعة في أوائل من سور القرآن.

[٢]

[سورة الأحقاف (٤٦) : آية ٢]

تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (٢)

تقدم القول في نظيره في أول الجاثية.

[٣]

[سورة الأحقاف (٤٦) : آية ٣]

ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون (٣)

لما كان من أهم ما جاء به القرآن إثبات وحدانية الله تعالى، وإثبات البعث والجزاء، لتوقف حصول فائدة الإنذار على إثباتهما، جعل قوله: تنزيل الكتاب من الله العزيز

الحكيم [الأحقاف: ٢] تمهيدا للاستدلال على إثبات الوحدانية والبعث والجزاء، فجعل خلق السماوات والأرض محل اتفاق، ورتب عليه أنه ما كان ذلك الخلق إلا ملابسا للحق، وتقتضي ملابسته للحق أنه لا يكون خلقا عبثا بل هو دال على أنه يعقبه جزاء على ما يفعله المخلوقون. واستثناء بالحق من أحوال عامة، أي ما خلقنا هما إلا في حالة المصاحبة

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٥/٥٢

للحق.

وقوله: والذين كفروا عما أنذروا معرضون في موضع الحال من الضمير المقدر في متعلق الجار والمجرور من قوله: بالحق، فيكون المقصود من الحال." (١)

"ومن بديع تفنن القرآن توزيع معاد الضمائر في هذه الآية مع تماثلها في اللفظ وهذا يتدرج في محسن الجمع مع التفريق وأدق.

[٧]

[سورة الأحقاف (٤٦) : آية ٧]

وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين (٧)

عطف على جملة ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له [الأحقاف: ٥] ، وقد علمت أن هذا مسوق مساق العد لوجوه فرط ضلالهم فإن آيات القرآن تتلى عليهم صباح مساء تبين لهم دلائل خلو الأصنام عن مقومات الإلهية فلا يتدبرونها وتحدو بهم إلى الحق فيغالطون أنفسهم بأن ما فهموه منها تأثر سحري، وأنها سحر، ولم يكتفوا بذلك بل زادوا بهتانا فزعموا أنه مبين، أي واضح كونه سحرا. وهذا انتقال إلى إبطال ضلال آخر من ضلالهم وهو ضلال التكذيب بالقرآن فهو مرتبط بقوله: حم تنزيل الكتاب من الله [الأحقاف: ١، ٢] إلخ.

وقوله: الذين كفروا إظهار في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالكفر وبأنه سبب قولهم ذلك.

واللام في قوله: للحق لام العلة وليست لام تعدية فعل القول إلى المقول له أي قال بعض الكافرين لبعض في شأن الذين آمنوا ومن أجل إيمانهم. والحق: هو الآيات، فعدل عن ضمير الآيات إلى إظهار لفظ الحق للتنبيه على أنها حق وأن رميها بالسحر بهتان عظيم. ولما جاءهم توقيت لمقالتهم، أي يقولون ذلك بفور سماع الآيات وكلما جاءتهم، أي دون تدبر ولا إجالة فكر.

[٨]

[سورة الأحقاف (٤٦) : آية ٨]

أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم (٨)

إضراب انتقال إلى نوع آخر من ضلال أقوالهم.." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٧/٢٦

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٣/٢٦

"أهلكناهم إهلاكا لا بقاء معه لشيء منهم لأن بقاء شيء منهم نصر لذلك الباقي بنجاته من الإهلاك.
واسم الفاعل في قوله: فلا ناصر مراد به الجنس لوقوعه بعد (لا) النافية للجنس فلذلك لا يقصد تضمنه لزمن ما لأنه غير مراد به معنى الفعل بل مجرد الاتصاف بالمصدر
فتمحض للاسمية، ولا التفات فيه إلى زمن من الأزمنة الثلاثة، ولذا فمعنى فلا ناصر لهم: فلم ينصرهم أحد فيما مضى. ولا حاجة إلى إجراء ما حصل في الزمن الماضي مجرى زمن الحال، وقولهم اسم الفاعل حقيقة في الحال جرى على الغالب فيما إذا أريد به معنى الفعل. وقرأ الجمهور: وكأين بهمزة بعد الكاف وبتشديد الياء. وقرأه ابن كثير بألف بعد الكاف وتخفيف الياء مكسورة وهي لغة.
[١٤]

[سورة محمد (٤٧) : آية ١٤]
أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم (١٤)
تفريع على جملة أهلكناهم فلا ناصر لهم [محمد: ١٣] لتحقيق أنهم لا ناصر لهم تحقيقا يرجع إلى ما في الكلام من المعنى التعريضي فهو شبيه بالاستئناف البياني جاء بأسلوب التفريع.
ويجوز مع ذلك أن يكون مفرعا على ما سبق من قوله: إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات [محمد: ١٢] الآية، فيكون له حكم الاعتراض لأنه تفريع على اعتراض. وهذا تفنن في تلوين الكلام لتجديد نشاط السامعين هو من الأساليب التي ابتكرها القرآن في كلام العرب. والاستفهام مستعمل في إنكار المماثلة التي يقتضيها حرف التشبيه.
والمقصود من إنكار المشابهة بين هؤلاء وهؤلاء هو تفضيل الفريق الأول، وإنكار زعم المشركين أنهم خير من المؤمنين كما ظهر ذلك عليهم في مواطن كثيرة." (١)
"لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا [الفتح: ٢٢] أنه إنما لم يأمر المسلمين بقتال عدوهم لما صدوهم عن البيت لأنه أراد رحمة جمع من المؤمنين والمؤمنات كانوا في خلال أهل الشرك لا يعلمونهم، وعصم المسلمين من الوقوع في مصائب من جراء إتلاف إخوانهم، فالجملة معطوفة على جملة ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار أو على جملة وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم [الفتح: ٢٤] إلخ. وأيا ما كان فهي كلام معترض بين جملة هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام إلخ وبين جملة إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية [الفتح: ٢٦] . ونظم هذه الآية بديع في أسلوبي الإطناب والإيجاز والتفنن في الانتقال ورشاقة كلماته.
ولولا دالة على امتناع لوجود، أي امتنع تعذيبنا الكافرين لأجل وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات بينهم. وما بعد لولا مبتدأ وخبره محذوف على الطريقة المستعملة في حذفه مع لولا إذا كان تعليق امتناع جوابها على وجود شرطها وجودا مطلقا غير مقيد بحال، فالتقدير: ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات موجودون، كما يدل عليه قوله بعده لو تزيلوا، أي لو لم

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٩٢/٢٦

يكونوا موجودين بينهم، أي أن وجود هؤلاء هو الذي لأجله امتنع حصول مضمون جواب لولا.
وإجراء الوصف على رجال ونساء بالإيمان مشير إلى أن وجودهم المانع من حصول
مضمون الجواب هو الوجود الموصوف بإيمان أصحابه، ولكن الامتناع ليس معلقا على وجود الإيمان بل على وجود ذوات المؤمنين والمؤمنات بينهم. وكذلك قوله: لم تعلموهم ليس هو خبرا بل وصفا ثانيا إذ ليس محط الفائدة.
ووجه عطف نساء مؤمنات مع أن وجود رجال مؤمنون كاف في ربط امتناع الجواب بالشرط ومع التمكن من أن يقول: ولولا المؤمنون، فإن جمع المذكر في اصطلاح القرآن يتناول النساء غالبا، أن تخصيص النساء بالذكر أنسب بمعنى انتفاء المعرة بقتلهن وبمعنى تعلق رحمة الله بهن.." (١)

"بكذا، وكذلك قوله: لا تمنوا علي إسلامكم إلا أن الأول مطرد مع أن و (أن) والثاني سماعي وهو كثير.
وهم قالوا للنبيء صلى الله عليه وسلم آمنا كما حكاه الله آنفا، وسماه هنا إسلاما لقوله: ولكن قولوا أسلمنا [الحجرات: ١٤] أي أن الذي منوا به عليك إسلام لا إيمان. وأثبت بحرف بل أن ما منوا به إن كان إسلاما حقا موافقا للإيمان فالمنة لله لأن هداهم إليه فأسلموا عن طواعية. وسماه الآن إيمانا مجاراة لزعمهم لأن المقام مقام كون المنة لله فمناسبة مسايرة زعمهم أنهم آمنوا، أي لو فرض أنكم آمنتم كما تزعمون فإن إيمانكم نعمة أنعم الله بها عليكم. ولذلك ذيله بقوله: إن كنتم صادقين فنفى أولا أن يكون ما يمنون به حقا، ثم أفاد ثانيا أن يكون الفضل فيما ادعوه لهم لو كانوا صادقين بل هو فضل الله.
وقد أضيف إسلام إلى ضميرهم لأنهم أتوا بما يسمى إسلاما لقوله: ولكن قولوا أسلمنا. وأتي بالإيمان معرفا بلام الجنس لأنه حقيقة في حد ذاته وأنهم ملابسوها.
وجيء بالمضارع في يمنون مع أن منهم بذلك حصل فيما مضى لاستحضار حالة منهم كيف يمنون بما لم يفعلوا مثل المضارع في قوله تعالى: ويسخرون من الذين آمنوا في سورة البقرة [٢١٢] . وجيء بالمضارع في قوله: بل الله يمن عليكم لأنه من مفروض لأن الممنون به لما يقع. وفيه من الإيذان بأنه سيمن عليهم بالإيمان ما في قوله:
ولما يدخل الإيمان في قلوبكم [الحجرات: ١٤] ، وهذا من التفنن البديع في الكلام ليضع السامع كل فن منه في قراره، ومثلهم من يتفطن لهذه الخصائص.
وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي لإفادة التقوية مثل: هو يعطي الجزيل، كما مثل به عبد القاهر.." (٢)

"وقرأ الجمهور مثل بالنصب على أنه صفة حال محذوف قصد منه التأكيد.
والتقدير: إنه لحق حقا مثل ما أنكم تنطقون. وقرأ حمزة والكسائي وأبوبكر عن عاصم وخلف مرفوعا على الصفة لحق صفة أريد بها التشبيه.
وما الواقعة بعد مثل زائدة للتوكيد. وأردفت ب (أن) المفيدة للتأكيد تقوية لتحقيق حقية ما يوعدون.
واجتلب المضارع في تنطقون دون أن يقال: نطقكم، يفيد التشبيه بنطقهم المتجدد وهو أقوى في الوقوع لأنه محسوس.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٨٩/٢٦
(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٧٠/٢٦

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٢٤ إلى ٣٠]
هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين (٢٤) إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون (٢٥) فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين (٢٦) فقربه إليهم قال ألا تأكلون (٢٧) فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم (٢٨) فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم (٢٩) قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم (٣٠)
انتقال من الإنذار والموعظة والاستدلال إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المماثلة للمخاطبين المشركين في الكفر وتكذيب الرسل. والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا وغير أسلوب الكلام من خطاب المنذرين مواجهة إلى أسلوب التعريض **تفننا** بذكر قصة إبراهيم لتكون توطئة للمقصود من ذكر ما حل بقوم لوط حين كذبوا رسولهم، فالمقصود هو ما بعد
قوله قال فما خطبكم أيها المرسلون [الحجر: ٥٧] .
وكان في الابتداء بذكر قوم لوط في هذه الآية على خلاف الترتيب الذي جرى عليه اصطلاح القرآن في ترتيب قصص الأمم المكذبة بابتدائها بقوم نوح ثم عاد ثم ثمود ثم قوم لوط أن المناسبة للانتقال من وعيد المشركين إلى العبرة بالأمم الماضية أن." (١)

"وإنما قال: فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين دون أن يقول: فأخرجنا لوطا وأهل بيته قصدا للتنويه بشأن الإيمان والإسلام، أي أن الله نجاهم من العذاب لأجل إيمانهم بما جاء به رسولهم لا لأجل أنهم أهل لوط، وأن كونهم أهل بيت لوط لأنهم انحصر فيهم وصف المؤمنين في تلك القرية، فكان كالكلي الذي انحصر في فرد معين.
والمؤمن: هو المصدق بما يجب التصديق به. والمسلم المنقاد إلى مقتضى الإيمان ولا نجاة إلا بمجموع الأمرين، فحصل في الكلام مع **التفنن** في الألفاظ الإشارة إلى التنويه بكليهما وإلى أن النجاة باجتماعهما.
والآية تشير إلى أن امرأة لوط كانت تظهر الانقياد لزوجها وتضمر الكفر وممالاة
أهل القرية على فسادهم، قال تعالى: ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما [التحريم: ١٠] الآية، فبيت لوط كان كله من المسلمين ولم يكن كله من المؤمنين فلذلك لم ينج منهم إلا الذين اتصفوا بالإيمان والإسلام معا.
والوجدان في قوله: فما وجدنا مراد به تعلق علم الله تعالى بالمعلوم بعد وقوعه وهو تعلق تنجيزي، ووجدان الشيء إدراكه وتحصيله.
ومعنى وتركنا فيها آية: أن القرية بقيت خرابا لم تعمر، فكان ما فيها من آثار الخراب آية للذين يخافون عذاب الله، قال تعالى في سورة الحجر [٧٦] وإنها لبسبيل مقيم، أو يعود الضمير إلى ما يؤخذ من مجموع قوله: قالوا إنا أرسلنا إلى قوم

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٦/٣٥٦

مجرمين [الذاريات: ٣٢] على تأويل الكلام بالقصة، أي تركنا في قصتهم.
والترك حقيقته: مفارقة شخص شيئا حصل معه في مكان ففارق ذلك المكان وأبقى منه ما كان معه، كقول عنترة:
فتركته جزر السباع ينشنه ويطلق على التسبب في إيجاد حالة تطول، كقول النابغة:." (١)
"النصارى حرفا حرفا تدريبا وتقريبا فإذا سميت له حرفا أعجميا يكتب لي حرفا عربيا حتى استوفى جميع حروف الهجاء وأوصاني أن أكتم ذلك حتى عن والدتي وعمي وأخي مع أنه رحمه الله قد ألقى نفسه للهلاك لإمكان أن أخبر بذلك عنه فيحرق لا محالة وقد كان يلقنني ما أقوله عند رؤيتي الأصنام، فلما تحقق والدي أني أكتم أمور دين الإسلام أمرني أن أتكلم بإفشائه لوالدتي وبعض الأصدقاء من أصحابه وسافرت الأسفار من جيان لأجتمع بالمسلمين الأخيار إلى غرناطة وأشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء، فتخلص لي من معرفتهم أني ميزت منهم سبعة رجال كانوا يحدثونني بأحوال غرناطة وما كان بها في الإسلام وقد مروا كلهم على شيخ من مشائخ غرناطة يقال له الفقيه الأوطوري ... » إلخ.
وإيثار فعل ألحقنا دون أن يقال: أدخلنا معهم، أو جعلنا معهم لعله لما في معنى الإلحاق من الصلاحية للفور والتأخير، فقد يكون ذلك الإلحاق بعد إجراء عقاب على بعض الذرية استحقوه بسيئاتهم على ما في الأعمال من تفاوت في استحقاق العقاب والله أعلم بمراده من عباده. وفعل الإلحاق يقتضي أن الذريات صاروا في درجات آبائهم. وفي المخالفة بين الصيغتين تفنن لدفع إعادة اللفظ.
وألتناهم نقصناهم، يقال: آلته حقه، إذا نقصه إياه، وهو من باب ضرب ومن باب علم.
فقرأه الجمهور بفتح لام ألتناهم. وقرأه ابن كثير بكسر لام ألتناهم، وتقدم عند قوله تعالى: لا يلتكم من أعمالكم شيئا في سورة الحجرات [١٤] . والواو للحال وضمير الغيبة عائد إلى الذين آمنوا.
والمعنى: أن الله ألحق بهم ذرياتهم في الدرجة في الجنة فضلا منه على الذين آمنوا دون عوض احتراسا من أن يحسبوا أن إلحاق ذرياتهم بهم بعد عطاء نصيب من حسناتهم لذرياتهم ليدخلوا به الجنة على ما هو متعارف عندهم في فك الأسير، وحمالة الديات، وخلاص الغارمين، وعلى ما هو معروف في." (٢)
"إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى.
هذا تحويل عن خطاب المشركين الذي كان ابتداؤه من أول السورة وهو من ضروب الالتفات، وهو استئناف بياني فضمير يتبعون عائد إلى الذين كان الخطاب موجها إليهم.
أعقب نفي أن تكون لهم حجة على الخصائص التي يزعمونها لأصنافهم أو على أن الله سماهم بتلك الأسماء بإثبات أنهم استندوا فيما يزعمونه إلى الأوهام وما تحبه نفوسهم من عبادة الأصنام ومحبة سدنتها ومواكب زيارتها، وغرورهم بأنها تسعى في الوساطة لهم عند الله تعالى بما يرغبونه في حياتهم فتلك أوهام وأماني محبوبة لهم يعيشون في غرورها.
وجيء بالمضارع في يتبعون للدلالة على أنهم سيسمرون على اتباع الظن وما تهواه نفوسهم وذلك يدل على أنهم اتبعوا ذلك

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٨/٢٧
(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٥٠/٢٧

من قبل بدلالة لحن الخطاب أو فحواه.

وأصل الظن الاعتقاد غير الجازم، ويطلق على العلم الجازم إذا كان متعلقا بالمغيبات كما في قوله تعالى: الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم في سورة البقرة [٤٦] ، وكثر إطلاقه في القرآن على الاعتقاد الباطل كقوله تعالى: إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون في سورة الأنعام [١١٦] ، ومنه

قول النبيء صلى الله عليه وسلم: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»

وهو المراد هنا بقرينة عطف وما تهوى الأنفس عليه كما عطف وإن هم إلا يخرصون على نظيره في سورة الأنعام، وهو كناية عن الخطإ باعتبار لزومه له غالبا كما قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم [الحجرات: ١٢] .

وهذا التفنن في معاني الظن في القرآن يشير إلى وجوب النظر في الأمر المظنون حتى يلحقه المسلم بما يناسبه من حسن أو ذم على حسب الأدلة، ولذلك استنبط علماؤنا أن الظن لا يغني في إثبات أصول الاعتقاد وأن الظن الصائب تناط به تفاريع الشريعة.." (١)

"وقرأ الجمهور (وثمودا) بالتنوين على إطلاق اسم جد القبيلة عليها. وقرأه عاصم وحمزة بدون تنوين على إرادة اسم القبيلة.

وجملة إنهم كانوا هم أظلم وأطغى تعليل لجملة أهلك عادا إلى آخرها، وضمير الجمع في إنهم كانوا يجوز أن يعود إلى قوم نوح، أي كانوا أظلم وأطغى من عاد وثمود. ويجوز أن يكون عائدا إلى عاد وثمود وقوم نوح والمعنى: أنهم أظلم وأطغى من قومك الذين كذبوك فتكون تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن الرسل من قبله لقوا من أممهم أشد مما لقيه محمد صلى الله عليه وسلم، وفيه إيماء إلى أن الله مبق على أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يهلكها لأنه قدر دخول بقيتها في الإسلام ثم أبنائها.

وضمير الفصل في قوله كانوا هم أظلم لتقوية الخبر.

[٥٣، ٥٤]

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ٥٣ إلى ٥٤]

والمؤتفكة أهوى (٥٣) فغشاها ما غشى (٥٤)

والمؤتفكة صفة لموصوف محذوف يدل عليه اشتقاق الوصف كما سيأتي، والتقدير:

القرى المؤتفكة، وهي قرى قوم لوط الأربع وهي (سدوم) و (عمورة) و (آدمة) و (صبوييم) . ووصفت في سورة براءة [٧٠] بالمؤتفكات لأن وصف جمع المؤنث يجوز أن يجمع وأن يكون بصيغة المفرد المؤنث. وقد صار هذا الوصف غالبا عليها بالغلبة.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٠٩/٢٧

وذكرت القرى باعتبار ما فيها من السكان تفننا ومراعاة للفواصل.

ويجوز أن تكون المؤتفكة هنا وصفا للأمة، أي لأمة لوط ليكون نظيرا لذكر عاد وثمود وقوم نوح كما في قوله تعالى: وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة في سورة الحاقة [٩] . والائتفاك: الانقلاب، يقال: أفكها فأتفكت. والمعنى: التي خسف بها فجعل عاليها سافلها، وقد تقدم ذكرها في سورة براءة.

وانتصب المؤتفكة مفعول أهوى أي أسقط أي جعلها هاوية.

والإهواء: الإسقاط، يقال: أهواه فهوى، ومعنى ذلك: أنه رفعها في الجو." (١)

"ربه جنتان وجنتان أخريان غيرهما، كقوله تعالى: للذين أحسنوا الحسنى وزيادة [يونس: ٢٦] .

ووصف ما في هاتين الجنتين بما يقارب ما وصف به ما في الجنتين الأوليين وصفا سلك فيه مسلك الإطناب أيضا لبيان حسنهما ترغيبا في السعي لنيلهما بتقوى الله تعالى فذلك موجب تكرير بعض الأوصاف أو ما يقرب من التكرير بالمترادفات.

ويكون لكل الجنات الأربع حور مقصورات لا ينتقلن من قصورهن، ويجوز أن تكون (دون) بمعنى أقل، أي لنزول المرتبة، أي ولمن خاف مقام ربه جنتان أقل من الأولين فيقتضي ذلك أن هاتين الجنتين لطائفة أخرى ممن خافوا مقام ربهم هم أقل من الأولين في درجة مخافة الله تعالى.

ولعل هاتين الجنتين لأصحاب اليمين الذين ورد ذكرهم في سورة الواقعة والجنتين المذكورتين قبلهما في قوله: جنتان ... ذواتا أفنان [الرحمن: ٤٦، ٤٨] إلى آخر الوصف جنتا السابقين الوارد ذكرهم قوله في سورة الواقعة [١٠] والسابقون السابقون الآيات.

ومدهامتان وصف مشتق من الدهمة بضم الدال وهي لون السواد. ووصف الجنتين بالسواد مبالغة في شدة خضرة أشجارهما حتى تكونا بالتفاف أشجارها وقوة خضرتها كالسوداوين لأن الشجر إذا كان ريان اشتدت خضرة أوراقه حتى تقرب من السواد، وقد أخذ هذا المعنى أبو تمام وركب عليه فقال:

يا صاحبي تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصور

تريا نهارا مشمسا قد شابه ... زهر الربى فكأنما هو مقمر

وضاختان

: فوارتان بالماء، والنضخ بخاء معجمة في آخره أقوى من النضح بالحاء المهملة الذي هو الرش.

وقد وصف العينان هنا بغير ما وصف به العينان في الجنتين المذكورتين، فقيل: هما صنفان مختلفان في أوصاف الحسن يشير اختلافهما إلى أن هاتين الجنتين دون الأولين في المحاسن ولذلك جاء هنا فيهما فاكهة ونخل ورمان، وجاء فيما تقدم فيهما من كل فاكهة زوجان [الرحمن: ٥٢] . وقيل: الوصفان سواء، وعليه فالمخالفة بين الصنفين من الأوصاف تفنن." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٥٤/٢٧

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٧٢/٢٧

"[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٢٧ إلى ٣٤]
وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين (٢٧) في سدر مخضود (٢٨) وطلح منضود (٢٩) وظل ممدود (٣٠) وماء مسكوب (٣١)
وفاكهة كثيرة (٣٢) لا مقطوعة ولا ممنوعة (٣٣) وفرش مرفوعة (٣٤)
عود إلى نشر ما وقع لفه في قوله: وكنتم أزواجا ثلاثة [الواقعة: ٧] كما تقدم عند قوله: فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة [الواقعة: ٨] .
وعبر عنهم هنا ب أصحاب اليمين وهنالك ب أصحاب الميمنة **للتفنن.**
فجملة وأصحاب اليمين عطف على جملة أولئك المقربون [الواقعة: ٨] عطف القصة عل القصة.
وجملة ما أصحاب اليمين خبر عن أصحاب اليمين بإبهام يفيد التنويه بهم كما تقدم في قوله: فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة [الواقعة: ٨] . وأتبع هذا الإبهام بما يبين بعضه بقوله: في سدر مخضود إلخ.
والسدر: شجر من شجر العضاه ذو ورق عريض مدور وهو صنفان: عبري بضم العين وسكون الموحدة وياء نسب نسبة إلى العبر بكسر العين وسكون الموحدة على غير قياس وهو عبر النهي، أي ضفته، له شوك ضعيف في غصونه لا يضير. والصنف الثاني الضال (بضاد ساقطة ولام مخففة) وهو ذو شوك. وأجود السدر الذي ينبت على الماء وهو يشبه شجر العناب، وورقه كورق العناب وورقه يجعل غسولا ينظف به، يخرج مع الماء رغوة كالصابون.
وثمر هذا الصنف هو النبق- بفتح النون وكسر الموحدة وقاف- يشبه ثمر العناب إلا أنه أصفر مز (بالزاي) يفوح الفم ويفوح الثياب ويتفكه به، وأما الضال وهو السدر البري الذي لا ينبت على الماء فلا يصلح ورقه للغسول وثمره عفص لا يسوغ في الحلق ولا ينتفع به ويخبط الرعاة ورقه للراعية، وأجود ثمر السدر ثمر سدر هجر أشد نبق حلاوة
وأطيبه رائحة.." (١)
"بعضهم: افتخر اليهود بأنهم أهل كتاب.
والعرب لا كتاب لهم. فأبطل الله ذلك بشبههم بالحمار يحمل أسفارا.
ومعنى حملوا: عهد بها إليهم وكلفوا بما فيها فلم يفوا بما كلفوا، يقال: حملت فلانا أمر كذا فاحتمله، قال تعالى: إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا سورة الأحزاب [٧٢] .
وإطلاق الحمل وما تصرف منه على هذا المعنى استعارة، بتشبيه إيكال الأمر بحمل الحمل على ظهر الدابة، وبذلك كان تمثيل حالهم بحال الحمار يحمل أسفارا تمثيلا للمعنى المجازي بالمعنى الحقيقي. وهو من لطائف القرآن.
وثم للتراخي الرتبي فإن عدم وفائهم بما عهد إليهم أعجب من تحملهم إياه.
وجملة يحمل أسفارا في موضع الحال من الحمار أو في موضع الصفة لأن تعريف الحمار هنا تعريف جنس فهو معرفة لفظا

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٩٨/٢٧

نكرة معنى، فصح في الجملة اعتبار الحالية والوصف.

وهذا التمثيل مقصود منه تشنيع حالهم وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس المتعارف، ولذلك ذيل بذم حالهم بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله.

وبئس فعل ذم، أي ساء حال الذين كذبوا بكتاب الله فهم قد ضموا إلى جهلهم بمعاني التوراة تكذيبا بآيات الله وهي القرآن.

ومثل القوم، فاعل بئس. وأغنى هذا الفاعل عن ذكر المخصوص بالذم لحصول العلم بأن المذموم هو حال القوم المكذبين فلم يسلك في هذا التركيب طريق الإبهام على شرط التفسير لأنه قد سبقه ما بينه بالمثل المذكور قبله في قوله: كمثل الحمار يحمل أسفارا. فصار إعادة لفظ المثل ثقيلا في الكلام أكثر من ثلاث مرات.

وهذا من تفننات القرآن. والذين كذبوا صفة القوم.

وجملة والله لا يهدي القوم الظالمين تذييل إخبارا عنهم بأن سوء حالهم لا يرجى لهم منه انفكاك لأن الله حرمهم اللطف والعناية بإنقاذهم لظلمهم بالاعتداء." (١)

"ويجوز أن تكون الجملة حالا من ضميري الغيبة في قوله: رأيتهم تعجبك أجسامهم.

ومعناه أن حسن صورهم لا نفع فيه لأنفسهم ولا للمسلمين.

وخشب بضم الخاء وضم الشين جمع خشبة بفتح الخاء وفتح الشين وهو جمع نادر لم يحفظ إلا في ثمرة، وقيل: ثمر جمع ثمار الذي هو جمع ثمرة فيكون ثمر جمع جمع. فيكون خشب على مثال جمع الجمع وإن لم يسمع مفرده. ويقال: خشب بضم فسكون وهو جمع خشبة لا محالة، مثل: بدن جمع بدنة.

وقرأه الجمهور بضمتين. وقرأه قنبل عن ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بضمة فسكون.

والمسندة التي سندت إلى حائط أو نحوه، أي أميلت إليه فهي غليظة طويلة قوية لكنها غير منتفع بها في سقف ولا مشدود بها جدار. شبهوا بالخشب المسندة تشبيه التمثيل في حسن المرأى وعدم الجدوى، أفيد بها أن أجسامهم المعجب بها ومقالهم المصغى إليه خاليان عن النفع كخلو الخشب المسندة عن الفائدة، فإذا رأيتموهم حسبتموهم أرباب لب وشجاعة وعلم ودراية. وإذا اختبرتموهم وجدتموهم على خلاف ذلك فلا تحتفلوا بهم.

يحسبون كل صيحة عليهم.

هذه الجملة بمنزلة بدل البعض من مضمون جملة كأنهم خشب مسندة، أي من مخالفة باطنهم المشوه للظاهر المموه، أي هم أهل جبن في صورة شجعان.

وهذا من جملة ما فضحته هذه السورة من دخائلهم ومطاوي نفوسهم كما تقدم في الآيات السابقة وإن اختلفت مواقعها

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢١٤/٢٨

من تفنن أساليب النظم، فهي مشتركة في التنبيه على أسرارهم.

والصيحة: المرة من الصياح، أي هم لسوء ما يضمرونه للمسلمين من العداوة." (١)

"(١)

لما كان جل ما اشتملت عليه هذه السورة إبطال إشراك المشركين وزجرهم عن دين الإشراك بأسره وعن تفاريعه التي أعظمها إنكارهم البعث وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وتكذيب القرآن وتلك أصول ضلالهم ابتدئت السورة بالإعلان بضلالهم وكفرانهم المنعم عليهم، فإن ما في السماوات والأرض يسبح لله تعالى عن النقائص: إما بلسان المقال مثل الملائكة والمؤمنين أو بلسان الحال مثل عبادة المطيعين من المخلوقات المدركة كالملائكة والمؤمنين، وإما بلسان الحال مثل دلالة حال الاحتياج إلى الإيجاد والإمداد كحاجة

الحيوان إلى الرزق وحاجة الشجرة إلى المطر وما يشهد به حال جميع تلك الكائنات من أنها مربوبة لله تعالى ومسخرة لما أراده منها. وكل تلك المخلوقات لم تنقض دلالة حالها بنقائض كفر مقالها فلم يخرج عن هذا التسبيح إلا أهل الضلال من الإنس والشياطين فإنهم حجبوا بشهادة حالهم لما غشوها به من صرح الكفر.

فالمعنى: يسبح لله ما في السماوات والأرض وأنتم بخلاف ذلك.

وهذا يفيد ابتداء تقرير تنزيه الله تعالى وقوة سلطانه ليزداد الذين آمنوا إيمانا ويكون لهم تعليما وامتنانا ويفيد ثانيا بطريق الكناية تعريضا بالمشركين الذين لم ينزهوه ولا وقروه فنسبوا إليه شركاء.

وجيء بفعل التسبيح مضارعا للدلالة على تجدد ذلك التسبيح ودوامه وقد سبق نظيره في فاتحة سورة الجمعة.

وجيء به في فواتح سور: الحديد، والحشر، والصف بصيغة الماضي للدلالة على أن التسبيح قد استقر في قديم الأزمان. فحصل من هذا التفنن في فواتح هذه السورة كلا المعنيين زيادة على ما بيناه من المناسبة الخاصة بسورة الجمعة، وما في هاته السورة من المناسبة بين تجدد التسبيح والأمر بالعفو عن ذوي القربى والأمر بالتقوى بقدر الاستطاعة والسمع والطاعة لكي لا يكتفي المؤمنون بحصول إيمانهم ليجتهدوا في تعزيزه بالأعمال الصالحة.

وإعادة ما الموصولة في قوله: وما في الأرض لقصد التوكيد اللفظي.

وجملة له الملك استئناف واقع موقع التعليل والتسبب لمضمون يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض فإن ملابسة جميع الموجودات لدلائل تنزيه الله تعالى." (٢)

"وقد حصل في الآية إيجاز حذف إذ استغني عن وصف الطريق بالالتواء في التمثيل الأول لدلالة مقابلته بالاستقامة في التمثيل الثاني.

والفاء التي في صدر الجملة للتفريع على جميع ما تقدم من الدلائل والعبر من أول السورة إلى هنا، والاستفهام تقريري.

والمكب: اسم فاعل من أكب، إذا صار ذا كب، فالهمزة فيه أصلها لإفادة المصير في الشيء مثل همزة: أقشع السحاب،

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٨/٢٤٠

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٨/٢٦٠

إذا دخل في حالة القشع، ومنه قولهم: أنفض القوم إذا هلكت مواشيهم، وأرملوا إذا فني زادهم، وهي أفعال قليلة فيما جاء فيه المجرد متعديا والمهموز قاصرا.

وأهدى مشتق من الهدى، وهو معرفة الطريق وهو اسم تفضيل مسلوب المفاضلة لأن الذي يمشي مكبا على وجهه لا شيء عنده من الاهتداء فهو من باب قوله تعالى:

قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه [يوسف: ٣٣] في قول كثير من الأئمة. ومثل هذا لا يخلو من تهكم أو تمليح بحسب المقام.

والسوي: الشديد الاستواء فعيل بمعنى فاعل قال تعالى: أهدك صراطا سويا [مريم: ٤٣] . و (أم) في قوله: أمن يمشي سويا حرف عطف وهي (أم) المعادلة لهمزة

الاستفهام. و (من) الأولى والثانية في قوله: أفمن يمشي مكبا أو قوله: أمن يمشي سويا موصولتان ومحملهما أن المراد منهما فريق المؤمنين وفريق المشركين، وقيل: أريد شخص معين أريد بالأولى أبو جهل، وبالثانية النبيء صلى الله عليه وسلم أو أبو بكر أو حمزة رضي الله عنهما.

[٢٣]

[سورة الملك (٦٧) : آية ٢٣]

قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون (٢٣)

هذا انتقال من توجيه الله تعالى الخطاب إلى المشركين للتبصير بالحجج والدلائل وما تخلل ذلك من الوعيد أو التهديد إلى خطابهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما سيذكر تفننا في البيان وتنشيطا للأذهان حتى كأن الكلام صدر من قائلين وترفيعا لقدر نبيئه صلى الله عليه وسلم بإعطائه حظا من التذكير معه كما قال تعالى: فإنما يسرناه بلسانك [الدخان:

٥٨] .." (١)

"بتسخير الموجودات وربط أحوال بعضها ببعض على وجه يتم به مراد الله فلذلك جيء بنون المتكلم المشارك فالاستدراج تعلق تنجيزي لقدرة الله فيحصل بواسطة الملائكة الموكلين كما قال تعالى: إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق الآية [الأنفال: ١٢] .

وأما الإملاء فهو علم الله بتأجيل أخذهم. وتعلق العلم ينفرد به الله فلذلك جيء معه بضمير المفرد. وحصل في هذا الاختلاف تفنن في الضميرين.

ونظير هذه الآية قوله في الأعراف [١٨٢- ١٨٣] : والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين باعتبار أنهما وعد للنبيء صلى الله عليه وسلم بالنصر وتثبيت له بأن استمرار الكافرين في نعمة إنما هو استدراج

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤٦/٢٩

وإملاء وضرب يشبه الكيد وأن الله بالغ أمره فيهم، وهذا كقوله: لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل [آل عمران: ١٩٦- ١٩٧] .

وموقع إن موقع التسبب والتعليل كما تقدم عند قوله تعالى: إن أول بيت وضع للناس في سورة آل عمران [٩٦] .

وإطلاق الكيد على إحسان الله لقوم مع إرادة إلحاق السوء بهم إطلاق على وجه الاستعارة لمشابهته فعل الكائد من حيث تعجيل الإحسان وتعقيبه بالإساءة.

[٤٦]

[سورة القلم (٦٨) : آية ٤٦]

أم تسئلهم أجرا فهم من مغرم مثقلون (٤٦)

إضراب آخر للانتقال إلى إبطال آخر من إبطال معاذيرهم في إعراضهم عن استجابة دعوة النبيء صلى الله عليه وسلم المبتدئ من قوله: ما لكم كيف تحكمون أم لكم كتاب [القلم: ٣٦- ٣٧] أم لكم أيمان [القلم: ٣٩] أم لهم شركاء [القلم: ٤١] فإنه بعد أن نفى أن تكون لهم حجة تؤيد صلاح حالهم، أو وعد لهم بإعطاء ما يرغبون، أو أولياء ينصرونهم، عطف الكلام إلى نفي أن يكون عليهم ضر في إجابة دعوة الإسلام، استقصاء لقطع ما يحتمل من المعاذير بافتراض أن الرسول صلى الله عليه وسلم سألهم أجرا على هديه إياهم، فصدهم عن إجابته ثقل عزم المال على نفوسهم.

فالاستفهام الذي تؤذن به أم استفهام إنكار لفرض أن يكون ذلك مما يخامر نفوسهم فرضا اقتضاه استقراء نواياهم من مواقع الإقبال على دعوة الخير والرشد.." (١)

"ويجوز أن يرجع ضمير (عصوا) إلى فرعون ومن قبله والمؤتفكات.

ورسول ربهم هو الرسول المرسل إلى كل قوم من هؤلاء.

فإفراد رسول مراد به التوزيع على الجماعات، أي رسول الله لكل جماعة منهم، والقرينة ظاهرة، وهو أجمل نظما من أن يقال: فعصوا رسل ربهم، لما في إفراد رسول من التفنن في صيغ الكلم من جمع وإفراد تفاديا من تتابع ثلاثة جموع لأن صيغ الجمع لا تخلو من ثقل لقلة استعمالها وعكسه قوله في سورة الفرقان [٣٧] وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم، وإنما كذبوا رسولا واحدا، وقوله: كذبت قوم نوح المرسلين وما بعده في سورة الشعراء [١٠٥] ، وقد تقدم تأويل ذلك في موضعه.

والأخذ: مستعمل في الإهلاك، وقد تقدم عند قوله تعالى: أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون في سورة الأنعام [٤٤] وفي مواضع أخرى.

وأخذة: واحدة من الأخذ، فيراد بها أخذ فرعون وقومه بالغرق، كما قال تعالى: فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر [القمر: ٤٢] ، وإذا أعيد ضمير الغائب إلى فرعون ومن قبله والمؤتفكات

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٠٢/٢٩

كان إفراد الأخذة كإفراد رسول ربهم، أي أخذنا كل أمة منهم أخذة.
والرابية: اسم فاعل من ربا يربو إذا زاد فلما صيغ منه وزن فاعلة، قلبت الواو ياء لوقوعها متحركة إثر كسرة.
واستعير الربو هنا للشدة كما تستعار الكثرة للشدة في نحو قوله تعالى: وادعوا ثبورا كثيرا [الفرقان: ١٤] .
والمراد بالأخذة الرابية: إهلاك الاستئصال، أي ليس في إهلاكهم إبقاء قليل منهم.
[١١- ١٢]

[سورة الحاقة (٦٩) : الآيات ١١ إلى ١٢]
إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية (١١) لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية (١٢)
إن قوله تعالى: ومن قبله [الحاقة: ٩] لما شمل قوم نوح وهم أول الأمم كذبوا الرسل." (١)
"المستقبلة من إدبار الليل بعد نزول الآية، على وزان إذا أسفر في قراءة الجميع، وكل ذلك مستقيم فقد حصل في قراءة نافع وموافقيه تفنن في القسم.
والكبر: جمع الكبرى في نوعها، جمعوه هذا الجمع على غير قياس بابه لأن فعلى حقها أن تجمع جمع سلامة على كبريات، وأما بنية فعل فإنها جمع تكسير لفعلة كغرفة وغرف، لكنهم حملوا المؤنث بالألف على المؤنث بالهاء لأنهم تأولوه بمنزلة اسم للمصيبة العظيمة ولم يعتبروه الخصلة الموصوفة بالكبر، أي أنثى الأكبر فلذلك جعلوا ألف التأنيث التي فيه بمنزلة هاء التأنيث فجمعوه كجمع المؤنث بالهاء من وزن فعلة ولم يفعلوا ذلك في أخواته مثل عظمى.
وانتصب نذيرا على الحال من ضمير إنها، أي إنها لعظمى العظائم في حال إنذارها للبشر وكفى بها نذيرا.
والنذير: المنذر، وأصله وصف بالمصدر لأن نذيرا جاء في المصادر كما جاء النكير، والمصدر إذا وصف به أو أخبر به يلزم الإفراد والتذكير، وقد كثر الوصف ب (النذير) حتى صار بمنزلة الاسم للمنذر.
وقوله: لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر بدل مفصل من مجمل من قوله للبشر، وأعيد حرف الجر مع البدل للتأكيد كقوله تعالى: قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم [الأعراف: ٧٥] ، وقوله: إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم [التكوير: ٢٧، ٢٨] وقوله تعالى: تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا [المائدة: ١١٤] . والمعنى: إنها نذير لمن شاء أن يتقدم إلى الإيمان والخير لينتذر بها، ولمن شاء أن يتأخر عن الإيمان والخير فلا يرعوي بنذارتها لأن التقدم مشي إلى جهة الأمام فكأن المخاطب يمشي إلى جهة الداعي إلى الإيمان وهو كناية عن قبول ما يدعو
إليه، وبعكسه التأخر، فحذف متعلق يتقدم ويتأخر لظهوره من السياق.
ويجوز أن يقدر: لمن شاء أن يتقدم إليها، أي إلى سقر بالإقدام على الأعمال التي تقدمه إليها، أو يتأخر عنها بتجنب ما من شأنه أن يقربه منها.

---
(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٢٢/٢٩

وتعليق نذيرا بفعل المشيئة إنذار لمن لا يتذكر بأن عدم تذكره ناشىء عن عدم مشيئته فتبعته عليه لتفريطه على نحو قول المثل «يداك أوكتا وفوك نفخ» ، وقد تقدم في سورة المزمل [١٩] قوله: إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا." (١)

"وتقدم في قوله تعالى: يوم يكشف عن ساق في سورة القلم [٤٢] .

فمعنى والتفت الساق بالساق طرأت مصيبة على مصيبة.

والخطاب في قوله: إلى ربك التفات عن طريق خطاب الجماعة في قوله: بل تحبون العاجلة [القيامة: ٢٠] لأنه لما كان خطابا لغير معين حسن التفنن فيه.

والتعريف في المساق تعريف الجنس الذي يعم الناس كلهم بما فيهم الإنسان الكافر المردود عليه. ولك أن تعبر عن اللام بأنها عوض عن المضاف إليه، أي مساق

الإنسان الذي يسأل: أيان يوم القيامة [القيامة: ٦] .

والمساق: مصدر ميمي ل (ساق) ، وهو تسيير ماش أمام مسيره إلى حيث يريد مسيره، وضده القود، وهو هنا مجاز مستعمل في معنى الإحضار والإيصال إلى حيث يلقى جزاء ربه.

وسلك في الجمل التي بعد إذا مسلك الإطناب لتهويل حالة الاحتضار على الكافر وفي ذلك إيماء إلى أن الكافر يتراءى له مصيره في حالة احتضاره وقد دل عليه

حديث عبادة بن الصامت في «الصحيح» عن النبيء صلى الله عليه وسلم قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا نكره الموت.

قال: ليس ذاك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه» .

[٣١- ٣٥]

[سورة القيامة (٧٥) : الآيات ٣١ إلى ٣٥]

فلا صدق ولا صلى (٣١) ولكن كذب وتولى (٣٢) ثم ذهب إلى أهله يتمطى (٣٣) أولى لك فأولى (٣٤) ثم أولى لك فأولى (٣٥)

تفريع على قوله: يسئل أيان يوم القيامة [القيامة: ٦] .

فالضمير عائد إلى الإنسان في قوله: أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه [القيامة: ٣] أي لجهله البعث لم يستعد له.." (٢)

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٢٣/٢٩

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٦٠/٢٩

"وجيء بجملة إنا هديناه السبيل بيانا لجملة نبتليه تفننا في نظم الكلام.

وحقيقة الابتلاء: الاختبار لتعرف حال الشيء وهو هنا كناية عن التكليف بأمر عظيم لأن الأمر العظيم يظهر تفاوت المكلفين به في الوفاء بإقامته.

وفرع على خلقه من نطفة أنه جعله سميعا بصيرا، وذلك إشارة إلى ما خلقه الله له من الحواس التي كانت أصل تفكيره وتدبيره، ولذلك جاء وصفه بالسميع البصير بصيغة المبالغة ولم يقل فجعلناه: سامعا مبصرا، لأن سمع الإنسان وبصره أكثر تحصيلا وتمييزا في المسموعات والمبصرات من سمع وبصر الحيوان، فبالسمع يتلقى الشرائع ودعوة الرسل وبالبصر ينظر في أدلة وجود الله وبديع صنعه.

وهذا تخلص إلى ما ميز الله به الإنسان من جعله تجاه التكليف واتباع الشرائع وتلك خصيصة الإنسان التي بها ارتكزت مدنيته وانتظمت جامعاته، ولذلك أعقبت هذه الجملة بقوله: إنا هديناه السبيل الآيات.

[٣]

[سورة الإنسان (٧٦) : آية ٣]

إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا (٣)

استئناف بياني لبيان ما نشأ عن جملة نبتليه [الإنسان: ٢] ولتفصيل جملة فجعلناه سميعا بصيرا [الإنسان: ٢] ، وتخلص إلى الوعيد على الكفر والوعد على الشكر.

وهداية السبيل: تمثيل لحال المرشد. والسبيل: الطريق الجادة إلى ما فيه النفع بواسطة الرسل إلى العقائد الصحيحة والأعمال الصالحة التي هي سبب فوزه بالنعيم الأبدي، بحال من يدل السائر على الطريق المؤدية إلى مقصده من سيره.

وهذا التمثيل ينحل إلى تشبيهات أجزاء الحالة المركبة المشبهة بأجزاء الحالة المشبه بها، فالله تعالى كالهادي، والإنسان يشبه السائر المتحير في الطريق، وأعمال الدين تشبه الطريق، وفوز المتتبع لهدي الله يشبه البلوغ إلى المكان المطلوب.

وفي هذا نداء على أن الله أرشد الإنسان إلى الحق وأن بعض الناس أدخلوا على أنفسهم ضلال الاعتقاد ومفاسد الأعمال، فمن برأ نفسه من ذلك فهو الشاكر." (١)

"المن والأذى في الصدقة أكثر حصولا لكون الصدقة متعلقة بأشخاص معينين، بخلاف الإنفاق في سبيل الله فإن أكثر من تنالهم النفقة لا يعلمهم المنفق.

فالمن على المتصدق عليه هو تذكيره بالنعمة كما تقدم آنفا.

ومن فقرات الزمخشري في «الكلم النوابغ» : «طعم الآلاء أحلى من المن. وهو أمر من الآلاء عند المن» الآلاء الأول النعم والآلاء الثاني شجر مر الورق، والمن الأول شيء شبه العسل يقع كالندى على بعض شجر بادية سينا وهو الذي في قوله تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٧٥/٢٩

وأنزلنا عليكم المن والسلوى [البقرة: ٥٧] ، والمن الثاني تذكير المنعم عليه بالنعمة.

والأذى الإساءة والضر القليل للمنعم عليه قال تعالى: لن يضروكم إلا أذى [آل عمران: ١١١] ، والمراد به الأذى الصريح من المنعم للمنعم عليه كالتطاول عليه بأنه أعطاه، أو أن يتكبر عليه لأجل العطاء، بله تعييره بالفقر، وهو غير الأذى الذي يحصل عند المن.

وأشار أبو حامد الغزالي في كتاب الزكاة من «الإحياء» إلى أن المن له أصل ومغرس وهو من أحوال القلب وصفاته، ثم تتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح. ومنبع الأذى أمران: كراهية المعطي إعطاء ماله وشدة ذلك على نفسه ورؤيته أنه خير من الفقير، وكلاهما منشؤه الجهل فإن كراهية تسليم المال حمق لأن من بذل المال لطلب رضا الله والثواب فقد علم أن ما حصل له من بذل المال أشرف مما بذله، وظنه أنه خير من الفقير جهل بخطر الغنى، أي أن مراتب الناس بما تتفاوت به نفوسهم من التزكية لا بعوارض الغنى والفقر التي لا تنشأ عن درجات الكمال النفساني.

ولما حذر الله المتصدق من أن يؤذي المتصدق عليه علم أن التحذير من الإضرار به كشتمه وضربه حاصل بفحوى الخطاب لأنه أولى بالنهي.

أوسع الله تعالى هذا المقام بيانا وترغيبا وزجرا بأساليب مختلفة وتفننات بديعة فنبهنا بذلك إلى شدة عناية الإسلام بالإنفاق في وجوه البر والمعونة.

وكيف لا تكون كذلك وقوام الأمة دوران أموالها بينها، وأن من أكبر مقاصد الشريعة الانتفاع بالثروة العامة بين أفراد الأمة على وجوه جامعة بين رعي المنفعة العامة ورعي الوجدان الخاص، وذلك بمراعاة العدل مع الذي كد لجمع المال وكسبه،." (١)

"وصالحا لأن يجعل حالا من صفوان أي لا يقدرون على شيء مما كسبوا منه وحذف عائد الصلة لأنه ضمير مجرور بما جر به اسم الموصول. ومعنى لا يقدرون لا يستطيعون أن يسترجعوه ولا انتفعوا بثوابه فلم يبق لهم منه شيء.

ويجوز أن يكون المعنى لا يحسنون وضع شيء مما كسبوا موضعه، فهم يبذلون ما لهم لغير فائدة تعود عليهم في آجلهم، بدليل قوله: الله لا يهدي القوم الكافرين.

والمعنى فتركه صلدا لا يحصدون منه زرعا كما في قوله: فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها [الكهف: ٤٢] .

وجملة والله لا يهدي القوم الكافرين تذييل والواو اعتراضية وهذا التذييل مسوق لتحذير المؤمنين من تسرب أحوال الكافرين إلى أعمالهم فإن من أحوالهم المن على من ينفقون وأذاه.

[٢٦٥]

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٥]

ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤٤/٣

يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير (٢٦٥)

عطف مثل الذين ينفقون أموالهم في مرضاة الله على مثل الذي ينفق ماله رئاء الناس، لزيادة بيان ما بين المرتبتين من البون وتأكيدا للثناء على المنفقين بإخلاص، **وتفننا** في التمثيل. فإنه قد مثله فيما سلف بحبة أنبتت سبع سنابل، ومثله فيما سلف تمثيلا غير كثير التركيب لتحصل السرعة بتخيل مضاعفة الثواب، فلما مثل حال المنفق رئاء بالتمثيل الذي مضى أعيد تمثيل حال المنفق ابتغاء مرضاة الله بما هو أعجب في حسن التخيل فإن الأمثال تبهج السامع كلما كانت أكثر تركيبا وضمنت الهيأة المشبه بها أحوالا حسنة

تكسبها حسنا ليسري ذلك التحسين إلى المشبه، وهذا من جملة مقاصد التشبيه.." (١)

"يقدره الله تعالى عند إرادة الفعل مع سلامة الأسباب والآلات» وما ألزمه إمام الحرمين الأشعري إلزام باطل لأن المراد بما لا يطاق ما لا تتعلق به قدرة العبد الظاهرة، المعبر عنها بالكسب، للفرق البين بين الأحوال الظاهرة، وبين الحقائق المستورة في نفس الأمر، وكذلك لا معنى لإدخال ما علم الله عدم وقوعه، كأمر أبي جهل بالإيمان مع علم الله بأنه لا يؤمن، في مسألة التكليف بما لا يطاق، أو بالمحال لأن علم الله ذلك لم يطلع عليه أحد. وأورد عليه أن النبيء صلى الله عليه وسلم دعا أبا لهب إلى الإسلام وقد علم الله أنه لا يسلم لقوله تعالى: تبت يدا أبي لهب وتب إلى قوله سيصلى نارا ذات لهب [المسد: ١، ٣] فقد يقال: إنه بعد

نزول هذه الآية لم يخاطب بطلب الإيمان وإنما خوطب قبل ذلك، وبذلك نسلم من أن نقول: إنه خارج عن الدعوة، ومن أن نقول: إنه مخاطب بعد نزول الآية.

وهذه الآية تقتضي عدم وقوع التكليف بما لا يطاق في الشريعة، بحسب المتعارف في إرادة البشر وقدرهم، دون ما هو بحسب سر القدر، والبحث عن حقيقة القدرة الحادثة، نعم يؤخذ منها الرد على الجبرية.

وقوله: لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت حال من «نفسا» لبيان كيفية الوسع الذي كلفت به النفس: وهو أنه إن جاءت بخير كان نفعه لها وإن جاءت بشر كان ضره عليها.

وهذا التقسيم حاصل من التعليق بواسطة «اللام» مرة وبواسطة (على) أخرى. وأما كسبت واكتسبت فبمعنى واحد في كلام العرب لأن المطاوعة في اكتسب ليست على بابها، وإنما عبر هنا مرة بكسبت وأخرى باكتسبت **تفننا** وكراهية إعادة الكلمة بعينها، كما فعل ذو الرمة في قوله:

ومطعم الصيد هبال لبغيته ... ألفى أباه بذاك الكسب مكتسبا (١)

وقول النابغة:

فحملت برة واحتملت فجار

وابتدئ أولا بالمشهور الكثير، ثم أعيد بمطاوعه، وقد تكون، في اختيار الفعل الذي أصله دال على المطاوعة، إشارة إلى أن

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣/٥٠

الشرور يأمر بها الشيطان، فتأتمر

---

(١) الهبال: المحتال. والمقصود أنه حذق بالصيد وارثه عن أبيه.." (١)

"و (المقنطرة) أريد بها هنا المضاعفة المتكاثرة، لأن اشتقاق الوصف من اسم الشيء الموصوف، إذا اشتهر صاحب الاسم بصفة، يؤذن ذلك الاشتقاق بمبالغة في الحاصل به كقولهم: ليل أليل، وظل ظليل، وداهية دهياء، وشعر شاعر، وإبل مؤبلة، وآلاف مؤلفة.

والخيل محبوبة مرغوبة، في العصور الماضية وفيما بعدها، لم ينسها ما تفنن فيه البشر من صنوف المراكب برا وبحرا وجوا، فالأمم المتحضرة اليوم مع ما لديم من القطارات التي تجري بالبخار وبالكهرباء على السكك الحديدية، ومن سفائن البحر العظيمة التي تسيرها آلات البخار، ومن السيارات الصغيرة المسيرة باللوالب تحركها حرارة النفط المصفى، ومن الطيارات في الهواء مما لم يبلغ إليه البشر في عصر مضى، كل ذلك لم يغن الناس عن ركوب ظهور الخيل، وجر العربات بمطهمات الأفراس، والعناية بالمسابقة بين الأفراس.

وذكر الخيل لتواطؤ نفوس أهل البذخ على محبة ركوبها، قال امرؤ القيس:

كأني لم أركب جوادا للذة والمسومة الأظهر فيه ما قيل: إنه الراعية، فو مشتق من السوم وهو الرعي، يقال: أسام الماشية إذا رعى بها في المرعى، فتكون مادة فعل للتكثير أي التي تترك في المراعي مددا طويلة وإنما يكون ذلك لسعة أصحابها وكثرة مراعيهم، فتكون خيلهم مكرمة في المروج والرياض

وفي الحديث في ذكر الخيل «فأطال لها في مرج أو روضة» .

وقيل: المسومة من السومة- بضم السين- وهي السمة أي العلامة من صوف أو نحوه، وإنما يجعلون لها ذلك تنويها بكرمها وحسن بلائها في الحرب، قال العتابي:

ولولا هن قد سومت مهري ... وفي الرحمان للضعفاء كاف

يريد جعلت له سومة أفراس الجهاد أي علامتها وقد تقدم اشتقاق السمة والسومة عند قوله تعالى: تعرفهم بسيماهم في سورة البقرة [٢٧٣] .

والأنعام زينة لأهل الوبر قال تعالى: ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون [النحل: ٦] . وفيها منافع عظيمة أشار إليها قوله تعالى: والأنعام خلقها لكم فيها دفء." (٢)

"وأما الاختياري فهو ما أبقاه ذلك التمازج من مشاهدة أخلاق وعوائد، حسنت في أعين رائيها، فاقتبسوها، وأشياء قبحت في أعينهم، فحذروها، وفي كلتا الحالتين نشأت يقظة جديدة، وتأسست مدنيات متفننة، وتهيأت الأفكار إلى قبول التغييرات القوية، فتهيأت جميع الأمم إلى قبول التعاليم الغريبة عن عوائدها وأحوالها، وتساوت الأمم وتقاربت في هذا المقدار،

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٣٧/٣

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٨٢/٣

وإن تفاوتت في الحضارة والعلوم تفاوتا ربما كان منه ما زاد بعضها تهيئوا لقبول التعاليم الصحيحة، وقهقر بعضا عن ذلك بما داخلها من الإعجاب بمبلغ علمها، أو العكوف والإلف على حضارتها.

فبلغ الأجل المراد والمعين لمجيء الشريعة الحق الخاتمة العامة.

فأظهر الله دين الإسلام في وقت مناسب لظهوره، واختار أن يكون ظهوره بين ظهراني أمة لم تسبق لها سابقة سلطان، ولا كانت ذات سيادة يومئذ على شيء من جهات الأرض، ولكنها أمة سلمها الله من معظم رعونات الجماعات البشرية، لتكون أقرب إلى قبول الحق، وأظهر هذا الدين بواسطة رجل منها، لم يكن من أهل العلم. ولا من أهل الدولة، ولا من ذرية ملوك، ولا اكتسب خبرة سابقة بهجرة أو مخالطة، ليكون ظهور هذا تحت الصريح، والعلم الصحيح، من مثله آية على أن ذلك وحي من الله نفح به عباده.

ثم جعل أسس هذا الدين متباعدة عن ذميم العوائد في الأمم، حتى الأمة التي ظهر بينها، وموافقة للحق ولو كان قد سبق إليه أعداؤها، وكانت أصوله مبنية على الفطرة بمعنى ألا تكون ناظرة إلا إلى ما فيه الصلاح في حكم العقل السليم، غير مأسور للعوائد ولا للمذاهب، قال تعالى: فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون [الروم: ٣٠] ، قال الشيخ أبو علي ابن سينا: «الفطرة أن يتوهم الإنسان نفسه حصل في الدنيا دفعة وهو عاقل، لم يسمع

رأيا، ولم يعتقد مذهبا، ولم يعاشر أمة، لكنه شاهد المحسوسات، ثم يعرض على ذهنه الأشياء شيئا فشيئا فإن أمكنه الشك في شيء فالفطرة لا تشهد به، وإن لم يمكنه الشك فيه فالفطرة توجبه، وليس كل ما توجبه الفطرة بصادق، بل الصادق منه ما تشهد به فطرة القوة التي تسمى عقلا، قبل أن يعترضه الوهم» .." (١)

"الأسلوب. والمعنى: يدعون إلى اتباع القرآن والنظر في معانيه ليحكم بينهم فيأبون.

ويجوز أن يكون كتاب الله عين المراد من الكتاب، وإنما غير اللفظ تفننا وتنويها بالمدعو إليه، أي يدعون إلى كتابهم ليتأملوا منه، فيعلموا تبشيره برسول يأتي من بعد، وتلميحه إلى صفاته.

روي، في سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مدراس اليهود فدعاهم إلى الإسلام، فقال له نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد: على أي دين أنت- قال: على ملة إبراهيم- قالا: فإن إبراهيم كان يهوديا. فقال لهما: إن بيننا وبينكم التوراة فهلموا إليها، فأبيا،

وقوله: ثم يتولى فريق منهم (ثم) عاطفة جملة يتولى فريق منهم على جملة يدعون فالمعطوفة هنا في حكم المفرد فدلت (ثم) على أن توليهم مستمر في أزمان كثيرة تبعد عن زمان الدعوة، أي أنهم لا يرعوون فهم يتولون ثم يتولون لأن المرء قد يعرض غضبا، أو لعظم المفاجأة بالأمر غير المترقب، ثم يثوب إليه رشده، ويراجع نفسه، فيرجع، وقد علم أن توليهم إثر الدعوة دون تراخ حاصل بفحوى الخطاب.

فدخول ثم للدلالة على التراخي الرتبي لأنهم قد يتولون إثر الدعوة، ولكن أريد التعجيب من حالهم كيف يتولون بعد أن

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٩٣/٣

أوتوا الكتاب ونقلوه، فإذا دعوا إلى كتابهم تولوا. والإتيان بالمضارع في قوله: يتولون للدلالة على التجدد كقول جعفر ابن علبة الحارثي:

ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة ... يرى غمرات الموت ثم يزورها

والتولي مجاز عن النفور والإباء، وأصله الإعراض والانصراف عن المكان.

وجملة وهم معرضون حال مؤكدة لجملة يتولى فريق إذ التولي هو الإعراض، ولما كانت حالا لم تكن فيها دلالة على الدوام والثبات فكانت دالة على تجدد الإعراض، منهم المفاد أيضا من المضارع في قوله: ثم يتولى فريق منهم.

وقوله: ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الإشارة إلى توليهم وإعراضهم، والباء للسببية: أي أنهم فعلوا ما فعلوا بسبب زعمهم أنهم في أمان من العذاب إلا أياما قليلة." (١)

"وحكي فعل السؤال بصيغة المضارع للدلالة على تجدد هذا السؤال وتكرره.

والساعة: هي الطامة فذكر الساعة إظهار في مقام الإضمار لقصد استقلال الجملة بمدلولها مع تفنن في التعبير عنها بهذين الاسمين الطامة [النازعات: ٣٤] والساعة وأيان مرساها جملة مبينة للسؤال.

وأيان اسم يستفهم به عن تعيين الوقت.

والاستفهام مستعمل في الاستبعاد كناية وهو أيضا كناية عن الاستحالة ومرساها مصدر ميمي لفعل أرسى، والإرساء: جعل السفينة عند الشاطئ لقصد النزول منها.

واستعير الإرساء للوقوع والحصول تشبيها للأمر المغيب حصوله بسفينة ماخرة البحر لا يعرف وصولها إلا إذا رست، وعليه ف أيان ترشيح للاستعارة، وتقدم نظير هذه في سورة الأعراف.

وقوله: فيم أنت من ذكراها واقع موقع الجواب عن سؤالهم عن الساعة باعتبار ما يظهر من حال سؤالهم عن الساعة من إرادة تعيين وقتها وصرف النظر عن إرادتهم به الاستهزاء، فهذا الجواب من تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وهو من تلقي السائل بغير ما يتطلب تنبيها له على أن الأولى به أن يهتم بغير ذلك، وهو مضمون قوله:

إنما أنت منذر من يخشاها وهذا ما يسمى بالأسلوب الحكيم، ونظيره ما

روي في الصحيح أن رجلا سأل النبيء صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال له: «ماذا أعددت لها؟»

، أي كان الأولى لك أن تصرف عنايتك إلى الاستكثار من الحسنات إعدادا ليوم الساعة.

والخطاب وإن كان موجها إلى النبيء صلى الله عليه وسلم فالمقصود بلوغه إلى مسامع المشركين فلذلك اعتبر اعتبار جواب عن كلامهم وذلك مقتضى فصل الجملة عن التي قبلها شأن الجواب والسؤال.

و (ما) في قوله: فيم اسم استفهام بمعنى: أي شيء؟ مستعملة في التعجيب من سؤال السائلين عنها ثم توبيخهم. و (في) للظرفية المجازية بجعل المشركين في إحفائهم بالسؤال عن وقت الساعة كأنهم جعلوا النبيء صلى الله عليه وسلم محوطا." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢١٠/٣

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٩٥/٣٠

"[سورة عبس (٨٠) : الآيات ٢٤ إلى ٣٢]

فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقضبا (٢٨)

وزيتونا ونخلا (٢٩) وحدائق غلبا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢)

إما مفرع على قوله: لما يقض ما أمره [عبس: ٢٣] فيكون مما أمره الله به من النظر، وإما على قوله: ما أكفره [عبس: ١٧] فيكون هذا النظر مما يبطل ويزيل شدة كفر

الإنسان. والفاء مع كونها للتفريع تفيد معنى الفصيحة، إذ التقدير: إن أراد أن يقضي ما أمره فلينظر إلى طعامه أو إن أراد نقض كفره فلينظر إلى طعامه. وهذا نظير الفاء في قوله تعالى: إن كل نفس لما عليها حافظ فلينظر الإنسان مم خلق [الطارق: ٤، ٥] ، أي إن أراد الإنسان الخلاص من تبعات ما يكتبه عليه الحافظ فلينظر مم خلق ليهتدي بالنظر فيؤمن فينجو.

وهذا استدلال آخر على تقريب كيفية البعث انتقل إليه في معرض الإرشاد إلى تدارك الإنسان ما أهمله وكان الانتقال من الاستدلال بما في خلق الإنسان من بديع الصنع من دلائل قائمة بنفسه في آية: من أي شيء خلقه [عبس: ١٨] إلى الاستدلال بأحوال موجودة في بعض الكائنات شديدة الملازمة لحياة الإنسان ترسيخا للاستدلال، وتفننا فيه، وتعريضا بالمنة على الإنسان في هذه الدلائل، من نعمة النبات الذي به بقاء حياة الإنسان وحياة ما ينفعه من الأنعام.

وتعدية فعل النظر هنا بحرف إلى تدل على أنه من نظر العين إشارة إلى أن العبرة تحصل بمجرد النظر في أطواره. والمقصود التدبر فيما يشاهده الإنسان من أحوال طعامه بالاستدلال بها على إيجاد الموجودات من الأرض. وجعل المنظور إليه ذات الطعام مع أن المراد النظر إلى أسباب تكونه وأحوال تطوره إلى حالة انتفاع الإنسان به وانتفاع أنعام الناس به.

وذلك من أسلوب إناطة الأحكام بأسماء الذوات، والمراد أحوالها مثل قوله تعالى:

حرمت عليكم الميتة [المائدة: ٣] أي أكلها، فأمر الله الإنسان بالتفكير في أطوار تكون الحبوب والثمار التي بها طعامه، وقد وصف له تطور ذلك ليتأمل ما أودع إليه في." (١)

"وقد تقدم عند قوله تعالى: وما أملك لك من الله من شيء في سورة الممتحنة [٤] .

وعموم نفس الأولى والثانية في سياق النفي يقتضي عموم الحكم في كل نفس.

وشيئا اسم يدل على جنس الموجود، وهو متوغل في الإبهام يفسره ما يقترن به في الكلام من تمييز أو صفة أو نحوهما، أو من السياق، ويبينه هنا ما دل عليه فعل لا تملك ولام العلة، أي شيئا يغني عنها وينفعها كما في قوله تعالى: وما أغني عنكم من الله من شيء في سورة يوسف [٦٧] ، فانتصب شيئا على المفعول به لفعل لا تملك، أي ليس في قدرتها شيء ينفع نفسا أخرى.

وهذا يفيد تأييس المشركين من أن تنفعهم أصنامهم يومئذ كما قال تعالى: وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٢٩/٣٠

شركاء [الأنعام: ٩٤] .

والأمر يومئذ لله وجملة والأمر يومئذ لله تذييل، والتعريف في الأمر للاستغراق. والأمر هنا بمعنى: التصرف والإذن وهو واحد الأوامر، أي لا يأمر إلا الله ويجوز أن يكون الأمر مرادفا للشيء فتغيير التعبير للتفنن.

والتعريف على كلا الوجهين تعريف الجنس المستعمل لإرادة الاستغراق، فيعم كل

الأمور وبذلك العموم كانت الجملة تذييلا.

وأفادت لام الاختصاص مع عموم الأمر أنه لا أمر يومئذ إلا لله وحده لا يصدر من غيره فعل، وليس في هذا التركيب صيغة حصر ولكنه آيل إلى معنى الحصر على نحو ما تقدم في قوله تعالى: الحمد لله [الفاتحة: ٢] .

وفي هذا الختام رد العجز على الصدر لأن أول السورة ابتدئ بالخبر عن بعض أحوال يوم الجزاء وختمت السورة ببعض أحواله.." (١)

"له فاطلع على هذه المدينة وأنه لما رجع أخبر الناس فذهبوا إلى المكان الذي زعم أنه وجد فيه المدينة فلم يجدوا شيئا.

وهذه أكاذيب مخلوطة بجهالة إذ كيف يصح أن يكون اسمها إرم ويتبع بذات العماد بفتح إرم وكسر ذات فلو كان الاسم مركبا مزجيا لكان بناء جزأيه على الفتح، وإن كان الاسم مفردا وذات صفة له فلا وجه لكسر ذات، على أن موقع هذا الاسم عقب قوله تعالى: بعاد يناكد ذلك كله.

ومنع ثمود من الصرف لأن المراد به الأمة المعروفة، ووصف باسم الموصول لجمع المذكر في قوله: الذين جابوا دون أن يقول التي جابت الصخر بتأويل القوم

فلما وصف عدل عن تأنيثه تفننا في الأسلوب.

ومعنى جابوا: قطعوا، أي نحتوا الصخر واتخذوا فيه بيوتا كما قال تعالى:

وتنحتون من الجبال بيوتا [الشعراء: ١٤٩] وقد قيل: إن ثمود أول أمم البشر نحتوا الصخر والرخام.

والصخر: الحجارة العظيمة.

والواد: اسم لأرض كائنة بين جبلين منخفضة، ومنه سمي مجرى الماء الكثير وادا وفيه لغتان: أن يكون آخره دالا، وأن يكون آخره ياء ساكنة بعد الدال.

وقرأ الجمهور بدون ياء. وقرأه ابن كثير ويعقوب بياء في آخره وصلا ووقفا، وقرأه ورش عن نافع بياء في الوصل وبدونها في الوقف وهي قراءة مبنية على مراعاة الفواصل مثل ما تقدم في قوله تعالى: والليل إذا يسر [الفجر: ٤] وهو مرسوم في المصحف بدون ياء والقراءات تعتمد الرواية بالسمع لا رسم المصحف إذ المقصود من كتابة المصاحف أن يتذكر بها الحفاظ ما عسى أن ينسوه.

والواد: علم بالغلبة على منازل ثمود، ويقال له: وادي القرى، بإضافته إلى «القرى» التي بنتها ثمود فيه ويسمى أيضا «الحجر»

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٨٥/٣٠

بكسر الحاء وسكون الجيم، ويقال لها: «حجر ثمود» وهو واد بين خيبر وتيماء في طريق الماشي من المدينة إلى الشام، ونزله اليهود بعد ثمود لما نزلوا بلاد العرب، ونزله من قبائل العرب قضاعة وجهينة، وعذرة وبلي.." (١)

"من توقع معاملته إياهم بمثل ما عامل به المكذبين الأولين. أي أن الله بالمرصاد لكل طاغ مفسد.

وعلى كونها جواب القسم تكون كناية عن تسليط العذاب على المشركين إذ لا يراد من الرصد إلا دفع المعتدي من عدو ونحوه، وهو المقسم عليه وما قبله اعتراضا تفننا في نظم الكلام إذ قدم على المقصود بالقسم ما هو استدلال عليه وتنظير بما سبق من عقاب أمثالهم من الأمم من قوله: ألم تر كيف فعل ربك بعاد إلخ، وهو أسلوب من أساليب الخطابة إذ يجعل البيان والتنظير بمنزلة المقدمة ويجعل الغرض المقصود بمنزلة النتيجة والعلة إذا كان الكلام صالحا للاعتبارين مع قصد الاهتمام بالمقدم والمبادرة به.

والعدول عن ضمير المتكلم أو اسم الجلالة إلى ربك في قوله: فصب عليهم ربك سوط عذاب وقوله: إن ربك لبالمرصاد إيماء إلى أن فاعل ذلك ربه الذي شأنه أن ينتصر له، فهو مؤمل بأن يعذب الذين كذبوه انتصارا له انتصار المولى لوليه.

والمرصاد: المكان الذي يترقب فيه الرصد، أي الجماعة المراقبون شيئا، وصيغة مفعال تأتي للمكان وللزمان كما تأتي للآلة، فمعنى الآلة هنا غير محتمل، فهو هنا إما للزمان أو المكان إذ الرصد الترقب.

وتعريف «المرصاد» تعريف الجنس وهو يفيد عموم المتعلق، أي بالمرصاد لكل فاعل، فهو تمثيل لعموم علم الله تعالى بما يكون من أعمال العباد وحركاتهم، بحال اطلاع الرصد على تحركات العدو والمغيرين، وهذا المثل كناية عن مجازاة كل عامل بما عمله وما يعمله إذ لا يقصد الرصد إلا للجزاء على العدوان، وفي ما يفيده من التعليل إيماء إلى أن الله لم يظلمهم فيما أصابهم به.

والباء في قوله لبالمرصاد للظرفية." (٢)

"[سورة الليل (٩٢) : الآيات ٥ إلى ١١]

فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠) وما يغني عنه ماله إذا تردى (١١)

فأما تفريع وتفصيل للإجمال في قوله: إن سعيكم لشتى [الليل: ٤] فحرف (أما) يفيد الشرط والتفصيل وهو يتضمن أداة شرط وفعل شرط لأنه بمعنى: مهما يكن من شيء، والتفصيل: التفكيك بين متعدد اشتركت آحاده في حالة وانفرد بعضها عن بعض بحالة هي التي يعتنى بتمييزها. وقد تقدم تحقيقه عند قوله تعالى: فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه في سورة الفجر [١٥] .

والمحتاج للتفصيل هنا هو السعي المذكور، ولكن جعل التفصيل ببيان الساعين

بقوله: فأما من أعطى لأن المهم هو اختلاف أحوال الساعين ويلازمهم السعي فإيقاعهم في التفصيل بحسب مساعيهم

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٢٠/٣٠

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٢٣/٣٠

يساوي إيقاع المساعي في التفصيل، وهذا تفنن من أفانين الكلام الفصيح يحصل منه معنيان كقول النابغة:

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتي ... على وعل في ذي المطارة عاقل

أي على مخافة وعل.

ومنه قوله تعالى: ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر إلخ في سورة البقرة [١٧٧] .

وقوله تعالى: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر [التوبة: ١٩] الآية، أي كإيمان من آمن بالله.

وانحصر تفصيل «شتى» في فريقين: فريق ميسر لليسرى وفريق ميسر للعسرى، لأن الحالين هما المهم في مقام الحث على الخير، والتحذير من الشر، ويندرج فيهما مختلف الأعمال كقوله تعالى: يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره في سورة الزلزلة [٦- ٨] . ويجوز أن يجعل تفصيل «شتى» هم من أعطى واتقى وصدق بالحسنى، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى وذلك عدد يصح أن يكون بيانا لشتى.." (١)

"عام الخندق، بعد انصراف الأحزاب، وكان انصرافهم آخر سنة خمس. قال ابن إسحاق: وولي تلك الحجة المشركون. وفي مقدمات ابن رشد ما يقتضي أن الشافعي يقول: إن الحج وجب سنة تسع، وأظهر من هذه الأقوال قول رابع تمالأ عليه الفقهاء وهو أن دليل وجوب الحج قوله تعالى: ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا.

وقد استدل الشافعي بها على أن وجوبه على التراخي، فيكون وجوبه على المسلمين قد تقرر سنة ثلاث، وأصبح المسلمون منذ يومئذ محصرين عن أداء هذه الفريضة إلى أن فتح الله مكة ووقعت حجة سنة تسع.

وفي هذه الآية من صيغ الوجوب صيغتان: لام الاستحقاق، وحرف (على) الدال على تقرر حق في ذمة المجرور بها. وقد تعسر أو تعذر قيام المسلمين بأداء الحج عقب نزولها، لأن المشركين كانوا لا يسمحون لهم بذلك، فلعل حكمة إيجاب الحج يومئذ أن يكون المسلمون على استعداد لأداء الحج مهما تمكنوا من ذلك، ولتقوم الحجة على المشركين بأنهم يمنعون هذه العبادة، ويصدون عن المسجد الحرام، ويمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه.

وقوله: من استطاع إليه سبيلا بدل من الناس لتقييد حال الوجوب، وجوز الكسائي أن يكون فاعل حج، ورد بأنه يصير الكلام: لله على سائر الناس أن يحج المستطيع منهم، ولا معنى لتكليف جميع الناس بفعل بعضهم، والحق أن هذا الرد لا يتجه لأن العرب تتفنن في الكلام لعلم السامع بأن فرض ذلك على الناس فرض مجمل يبينه فاعل حج، وليس هو كقولك: استطاع الصوم، أو استطاع حمل الثقل، ومعنى استطاع إليه سبيلا وجد سبيلا وتمكن منه، والكلام بأواخره. والسبيل هنا مجاز فيما يتمكن به المكلف من الحج.

وللعلماء في تفسير السبيل أقوال اختلفت ألفاظها، واتحدت أغراضها، فلا ينبغي بقاء الخلاف بينهم لأجلها مثبتا في كتب

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٨١/٣٠

التفسير وغيرها، فسبيل القريب من البيت الحرام سهل جدا، وسبيل البعيد الراحلة والزاد، ولذلك قال مالك: السبيل القدرة والناس على قدر طاقتهم وسيرهم وجلدهم. واختلف فيمن." (١)

"[سورة آل عمران (٣) : آية ١٢٠]

إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط (١٢٠)

إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها.

زاد الله كشفا لما في صدورهم بقوله: إن تمسسكم حسنة تسؤهم أي تصبكم حسنة والمس الإصابة، ولا يختص أحدهما بالخير والآخر بالشر، فالتعبير بأحدهما في جانب الحسنة، وبالآخر في جانب السيئة، تفنن، وتقدم عند قوله تعالى: كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس في سورة البقرة [٢٧٥] .

والحسنة والسيئة هنا الحادثة أو الحالة التي تحسن عند صاحبها أو تسوء وليس المراد بهما هنا الاصطلاح الشرعي.

وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط.

أرشد الله المؤمنين إلى كيفية تلقي أذى العدو: بأن يتلقوه بالصبر والحذر، وعبر عن الحذر بالاتقاء أي اتقاء كيدهم وخداعهم، وقوله لا يضركم كيدهم شيئا أي بذلك ينتفي الضر كله لأنه أثبت في أول الآيات أنهم لا يضرون المؤمنين إلا أذى، فالأذى ضر خفيف، فلما انتفى الضر الأعظم الذي يحتاج في دفعه إلى شديد مقاومة من القتال وحراسة وإنفاق، كان انتفاء ما بقي من الضر هينا، وذلك بالصبر على الأذى، وقلة الاكتراث به، مع الحذر منهم أن يتوسلوا بذلك الأذى إلى ما يوصل ضرا عظيما.

وفي الحديث: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله يدعون له ندا وهو يرزقهم» .

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: لا يضركم- بكسر الضاد وسكون الراء- من ضاره يضيره بمعنى أضره. وقرأه ابن عامر، وحمزة، وعاصم، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف- بضم الضاد." (٢)

"الثانية لأن القتل في سبيل الله قد

يظن أنه بعيد عن أن يعقبه الحشر، مع ما فيه من التفنن، ومن رد العجز على الصدر وجعل القتل مبدأ الكلام وعوده. [١٥٩]

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٥٩]

فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين (١٥٩)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٢/٤

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٦٨/٤

الفاء للتفريع على ما اشتمل عليه الكلام السابق الذي حكي فيه مخالفة طوائف لأمر الرسول من مؤمنين ومنافقين، وما حكي من عفو الله عنهم فيما صنعوا. ولأن في تلك الواقعة المحكية بالآيات السابقة مظاهر كثيرة من لين النبيء صلى الله عليه وسلم للمسلمين، حيث استشارهم في الخروج، وحيث لم يثربهم على ما صنعوا من مغادرة مراكزهم، ولما كان عفو الله عنهم يعرف في معاملة الرسول إياهم، ألان الله لهم الرسول تحقيقا لرحمته وعفوه، فكان المعنى: ولقد عفا الله عنهم برحمته فلان لهم الرسول بإذن الله وتكوينه إياه راحما، قال تعالى: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين [الأنبياء: ١٠٧] .

والباء للمصاحبة، أي لنت مع رحمة الله: إذ كان لينه في ذلك كله لينا لا تفريط معه لشيء من مصالحهم، ولا مجاراة لهم في التساهل في أمر الدين، فلذلك كان حقيقا باسم الرحمة.

وتقديم المجرور مفيد للحصر الإضافي، أي: برحمة من الله لا بغير ذلك من أحوالهم، وهذا القصر مفيد التعريض بأن أحوالهم كانت مستوجبة الغلظ عليهم، ولكن الله ألان خلق رسوله رحمة بهم، لحكمة علمها الله في سياسة هذه الأمة.

وزيدت (ما) بعد باء الجر لتأكيد الجملة بما فيه من القصر، فتعين بزيادتها كون التقديم للحصر، لا لمجرد الاهتمام، ونبه عليه في «الكشاف» .." (١)

"شاع تصبير المحزون وتعزيته بتذكيره ما هو فيه من النعم، وله مزيد ارتباط بقوله: فبما رحمة من الله لنت لهم [آل عمران: ١٥٩] ، وكذلك جاءت آي هذا الغرض في قصة أحد ناشئا بعضها عن بعض، متفننة في مواقعها بحسب ما سمحت به فرص الفراغ من غرض والشروع في غيره فما تجد طراد الكلام يغدو طلقا في حلبة الاستطراد إلا وتجد له رواحا إلى منبعثه.

والمن هنا: إسداء المنة أي النعمة، وليس هو تعداد النعمة على المنعم عليه مثل الذي في قوله: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى في سورة البقرة [٢٦٤] ، وإن كان ذكر هذا المن منا بالمعنى الآخر. والكل محمود من الله تعالى لأن المن إنما كان مذموما لما فيه من إبداء التطاول على المنعم عليه، وطول الله ليس بمجحود.

والمراد بالمؤمنين هنا المؤمنون يومئذ وهم الذين كانوا مع النبيء صلى الله عليه وسلم بقرينة السياق وهو قوله: إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم أي من أمتهم العربية.

و (إذ) ظرف ل (من) لأن الإنعام بهذه النعمة حصل أوقات البعث.

ومعنى من أنفسهم المماثلة لهم في الأشياء التي تكون المماثلة فيها سببا لقوة التواصل، وهي هنا النسب، واللغة، والوطن. والعرب تقول: فلان من بني فلان من أنفسهم، أي من صميمهم ليس انتسابه إليهم بولاء أو لصق، وكأنه هذا وجه إطلاق النفس عليه التي هي في معنى المماثلة، فكونه من أهل نسبهم أي كونه عربيا يوجب أنسهم به والركون إليه وعدم الاستيحاش منه، وكونه يتكلم بلسانهم يجعلهم سريعين إلى فهم ما يجيء به، وكونه جارا لهم وربيا فيهم يعجل لهم التصديق برسالته، إذ

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٤٤/٤

يكونون قد خبروا أمره، وعلموا فضله، وشاهدوا استقامته ومعجزاته. وعن النقاش: قيل ليس في العرب قبيلة إلا ولها ولادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تغلب، وبذلك فسر: «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى» .." (١)

"[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٦٦ إلى ١٦٨]

وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين (١٦٦) وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون (١٦٧) الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين (١٦٨)

عطف على قوله: أولما أصابتكم مصيبة [آل عمران: ١٦٥] وهو كلام وارد على معنى التسليم أي: هبوا أن هذه مصيبة، ولم يكن عنها عوض، فهي بقدر الله، فالواجب

التسليم، ثم رجع إلى ذكر بعض ما في ذلك من الحكمة.

وقوله: وما أصابكم أراد به عين المراد بقوله: أصابتكم مصيبة وهي مصيبة الهزيمة. وإنما أعيد ما أصابكم ليعين اليوم بأنه يوم التقى الجمعان. وما موصولة مضمنة معنى الشرط كأنه قيل: وأما ما أصابكم، لأن قوله: وما أصابكم معناه بيان سببه وحكمته، فلذلك قرن الخبر بالفاء. ويوم التقى الجمعان هو يوم أحد. وإنما لم يقل وهي بإذن الله لأن المقصود إعلان ذكر المصيبة وأنها بإذن الله إذ المقام مقام إظهار الحقيقة، وأما التعبير بلفظ ما أصابكم دون أن يعاد لفظ المصيبة فتفنن، أو قصد الإطناب.

والإذن هنا مستعمل في غير معناه إذ لا معنى لتوجه الإذن إلى المصيبة فهو مجاز في تخلية الله تعالى بين أسباب المصيبة وبين المصابين، وعدم تدارك ذلك باللطف. ووجه الشبه أن الإذن تخلية بين المأذون ومطلوبه ومراده، ذلك أن الله تعالى رتب الأسباب والمسببات في هذا العالم على نظام، فإذا جاءت المسببات من قبل أسبابها فلا عجب، والمسلمون أقل من المشركين عددا وعددا فانتصار المسلمين يوم بدر كرامة لهم، وانهزامهم يوم أحد عادة وليس بإهانة. فهذا المراد بالإذن.

وقوله: وليعلم المؤمنين عطف على فبإذن الله عذف العلة على السبب. والعلم هنا كناية عن الظهور والتقرر في الخارج كقول إياس بن قبيصة الطائي:." (٢)

"(١٩٤)

هذا غرض أنف بالنسبة لما تتابع من أغراض السورة، انتقل به من المقدمات والمقصد والمتخللات بالمناسبات، إلى غرض جديد هو الاعتبار بخلق العوالم وأعراضها والتنويه بالذين يعتبرون بما فيها من آيات.

ومثل هذا الانتقال يكون إيذانا بانتهاء الكلام على أغراض السورة، على تفننها، فقد كان التنقل فيها من الغرض إلى مشاكله وقد وقع الانتقال الآن إلى غرض عام: وهو الاعتبار بخلق السماوات والأرض وحال المؤمنين في الاتعاظ بذلك، وهذا النحو في الانتقال يعرض للخطيب ونحوه من أغراضه عقب إيفائها حقها إلى غرض آخر إيذانا بأنه أشرف على

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٥٨/٤

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٦٢/٤

الانتهاء، وشأن القرآن أن يختم بالموعظة لأنها أهم أغراض الرسالة، كما وقع في ختام سورة البقرة.

وحرف (إن) للاهتمام بالخبر.

والمراد ب خلق السماوات والأرض هنا: إما آثار خلقها، وهو النظام الذي جعل فيها، وإما أن يراد بالخلق المخلوقات كقوله تعالى: هذا خلق الله [لقمان: ١١] . وأولوا الألباب أهل العقول الكاملة لأن لب الشيء هو خلاصته. وقد قدمنا في سورة البقرة بيان ما في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار من الآيات عند قوله تعالى:

إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك [البقرة: ١٦٤] إلخ.

ويذكرون الله إما من الذكر اللساني وإما من الذكر القلبي وهو التفكر، وأراد بقوله: قياما وقعودا وعلى جنوبهم عموم الأحوال كقولهم: ضربه الظهر والبطن، وقولهم: اشتهر كذا عند أهل الشرق والغرب، على أن هذه الأحوال هي متعارف أحوال البشر في السلامة، أي أحوال الشغل والراحة وقصد النوم. وقيل: أراد أحوال المصلين:

من قادر، وعاجز، وشديد العجز. وسياق الآية بعيد عن هذا المعنى.

وقوله: ويتفكرون في خلق السماوات والأرض عطف مرادف إن كان المراد بالذكر فيما سبق التفكر، وإعادته لأجل اختلاف المتفكر فيه، أو هو عطف مغاير إذا كان المراد من قوله: يذكرون ذكر اللسان. والتفكر عبادة عظيمة. روى ابن القاسم عن مالك رحمه الله في جامع العتبية قال: قيل لأم الدرداء: ما كان." (١)

"وجعل لفظ (واللذان) للنوعين لأن مفرده وهو الذي صالح للدلالة على النوع، إذ النوع يعبر عنه بالمذكر مثل الشخص، ونحو ذلك، وحصل مع ذلك كله تفنن بديع في العبارة فكانت بمجموع ذلك هاته الآية غاية في الإعجاز، وعلى هذا الوجه فالمراد من النساء معنى ما قابل الرجال وهذا هو الذي يجدر حمل معنى الآية عليه.

والأذى أريد به هنا غير الحبس لأنه سبق تخصيصه بالنساء وغير الجلد، لأنه لم يشرع بعد، فقيل: هو الكلام الغليظ والشتم والتعيير. وقال ابن عباس: هو النيل باللسان واليد وضرب النعال، بناء على تأويله أن الآية شرعت عقوبة للزنا قبل عقوبة الجلد.

واتفق العلماء على أن هذا حكم منسوخ بالجلد المذكور في سورة النور، وبما ثبت في السنة من رجم المحصنين وليس تحديد هذا الحكم بغاية قوله: أو يجعل الله لهن سبيلا بصارف معنى النسخ عن هذا الحكم كما توهم ابن العربي، لأن الغاية جعلت مبهمة، فالمسلمون يترقبون ورود حكم آخر، بعد هذا، لا غنى لهم عن إعلامهم به.

واعلم أن شأن النسخ في العقوبات على الجرائم التي لم تكن فيها عقوبة قبل الإسلام، أن تنسخ بأثقل منها، فشرع الحبس والأذى للزناة في هذه السورة، وشرع الجلد بآية سورة النور، والجلد أشد من الحبس ومن الأذى، وقد سوي في الجلد بين المرأة

والرجل، إذ التفرقة بينهما لا وجه لبقائها، إذ كلاهما قد خرق حكما شرعيا تبعا لشهوة نفسية أو طاعة لغيره.

ثم إن الجلد المعين شرع بآية سورة النور مطلقا أو عاما على الاختلاف في محمل التعريف في قوله: الزانية والزاني [النور: ٢]

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٩٦/٤

فإن كان قد وقع العمل به كذلك في الزناة والزواني: محصنين أو أبكارا، فقد نسخه الرجم في خصوص المحصنين منهم، وهو ثابت بالعمل المتواتر، وإن كان الجلد لم يعمل به إلا في البكرين فقد قيد أو خصص بغير المحصنين، إذ جعل حكمهما الرجم. والعلماء متفقون على أن حكم المحصنين من الرجال والنساء الرجم. والمحصن هو من تزوج بعقد شرعي صحيح ووقع البناء بعد ذلك العقد بناء صحيحا. وحكم الرجم ثبت من قبل الإسلام في شريعة." (١)

"يوجهوا مذهبهم بعلة بينة، ولا أن يستظهروا عليه بأثر. وعلة تحريم المرأة على زوج ابنتها تساوي علة تحريم ربيبة الرجل عليه، ويظهر أن الله ذكر أمهات النساء قبل أن يذكر الربائب، فلو أراد اشتراط الدخول بالأمهات في تحريمهن على أزواج بناتهن لذكره في أول الكلام قبل أن يذكره مع الربائب.

وهنالك رواية عن زيد بن ثابت أنه قال: إذا طلق الأم قبل البناء فله التزوج بابنتها، وإذا ماتت حرمت عليه ابنتها. وكأنه نظر إلى أن الطلاق عدول عن العقد، والموت أمر قاهر، فكأنه كان ناويا الدخول بها، ولا حظ لهذا القول.

وقوله: وحلائل أبنائكم الحلائل جمع الحليلة فعيلة بمعنى فاعلة، وهي الزوجة، لأنها تحل معه، وقال الزجاج: هي فعيلة بمعنى مفعولة، أي محللة إذ أباحها أهلها له، فيكون من مجيء فعيل للمفعول من الرباعي في قولهم حكيم، والعدول عن أن يقال: وما نكح أبناؤكم- أو- ونساء أبنائكم إلى قوله: وحلائل أبنائكم تفنن لتجنب تكرير أحد اللفظين السابقين وإلا فلا فرق في الإطلاق بين الألفاظ الثلاثة.

وقد سمي الزوج أيضا بالحليل وهو يحتمل الوجهين كذلك. وتحريم حليلة الابن واضح العلة، كتحريم حليلة الأب.

وقوله: الذين من أصلابكم تأكيد لمعنى الأبناء لدفع احتمال المجاز، إذ كانت العرب تسمي المتبنى ابنا، وتجعل له ما للابن، حتى أبطل الإسلام ذلك وقوله تعالى:

ادعوهم لآبائهم [الأحزاب: ٥] فما دعي أحد لمتبنيه بعد، إلا المقداد بن الأسود وعدت خصوصية. وأكد الله ذلك بالتشريع الفعلي بالإذن لرسوله صلى الله عليه وسلم بتزوج زينب ابنة جحش، بعد أن طلقها زيد بن حارثة الذي كان تبناه، وكان يدعى زيد بن محمد. وابن الابن وابن البنت، وإن سفلا، أبناء من الأصلاب لأن للجد عليهم ولادة لا محالة.

وقوله: وأن تجمعوا بين الأختين هذا تحريم للجمع بين الأختين فحكمته دفع

الغيرة عمن يريد الشرع بقاء تمام المودة بينهما، وقد علم أن." (٢)

"الاستعمال ما يشهد لهذا، وقد تقدم عند قوله: وسيصلون سعيرا في هذه السورة [النساء: ١٠] . و (نصليه) نجعله صاليا أو محترقا، وقد مضى فعل صلي أيضا، ووجه نصب (نارا) هنالك، والآية دلت على كليتين من كليات الشريعة: وهما حفظ الأموال، وحفظ الأنفس، من قسم المناسب الضروري.

[٣١]

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤/٢٧٣

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤/٣٠٠

[سورة النساء (٤) : آية ٣١]
إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما (٣١)
اعتراض ناسب ذكره بعد ذكر ذنبين كبيرين: وهما قتل النفس، وأكل المال بالباطل، على عادة القرآن في التفنن من أسلوب إلى أسلوب، وفي انتهاز الفرص في إلقاء التشريع عقب المواعظ وعكسه.
وقد دلت إضافة كبائر إلى ما تنهون عنه على أن المنهيات قسمان: كبائر، ودونها وهي التي تسمى الصغائر، وصفا بطريق المقابلة، وقد سميت هنا سيئات. ووعد بأنه يغفر السيئات للذين يجتنبون كبائر المنهيات، وقال في آية النجم [٣٢] الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم فسمى الكبائر فواحش وسمى مقابلها اللمم، فثبت بذلك أن المعاصي عند الله قسمان: معاص كبيرة فاحشة، ومعاص دون ذلك يكثر
أن يلم المؤمن بها، ولذلك اختلف السلف في تعيين الكبائر. فعن علي: هي سبع الإشراك بالله، وقتل النفس، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، والفرار يوم الزحف، والتعرب بعد الهجرة. واستدل لجميعها بما في القرآن من أدلة جازم النهي عنها.
وفي حديث البخاري عن النبيء صلى الله عليه وسلم «اتقوا السبع الموبقات ... »
فذكر التي ذكرها علي إلا أنه جعل السحر عوض التعرب. وقال عبد الله بن عمر: هي تسع بزيادة الإلحاد في المسجد الحرام، وعقوق الوالدين. وقال ابن مسعود: هي ما نهي عنه من أول سورة النساء إلى هنا. وعن ابن عباس: كل ما ورد عليه وعيد نار أو عذاب أو لعنة فهو كبيرة. وعن ابن عباس: الكبائر ما نهى الله عنه في كتابه. وأحسن ضبط الكبيرة قول إمام الحرمين: هي كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين." (١)
"(٩٢)
انتقال الغرض يعيد نشاط السامع بتفنن الأغراض، فانتقل من تحديد أعمال المسلمين مع العدو إلى أحكام معاملة المسلمين بعضهم مع بعض: من وجوب كف عدوان بعضهم على بعض.
والمناسبة بين الغرض المنتقل منه والمنتقل إليه: أنه قد كان الكلام في قتال المتظاهرين بالإسلام الذين ظهر نفاقهم، فلا جرم أن تتشوف النفس إلى حكم قتل
المؤمنين الخلص وقد روي أنه حدث حادث قتل مؤمن خطأ بالمدينة ناشئ عن حزازات أيام القتال في الشرك أخطأ فيه القاتل إذ ظن المقتول كافرا. وحادث قتل مؤمن عمدا ممن كان يظهر الإيمان، والحادث المشار إليه بقوله: يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا [النساء: ٩٤] وأن هذه الآيات نزلت في ذلك، فتزداد المناسبة وضوحا لأن هذه الآية تصير كالمقدمة لما ورد بعدها من الأحكام في القتل.
هول الله تعالى أمر قتل المسلم أخاه المسلم، وجعله في حيز ما لا يكون، فقال:
وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ فجاء بصيغة المبالغة في النفي، وهي صيغة الجحود، أي ما وجد لمؤمن أن يقتل مؤمنا

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٦/٥

في حال من الأحوال إلا في حال الخطأ، أو أن يقتل قتلا من القتل إلا قتل الخطأ، فكان الكلام حصرا وهو حصر ادعائي مراد به المبالغة كأن صفة الإيمان في القاتل والمقتول تنافي الاجتماع مع القتل في نفس الأمر منافاة الضدين لقصد الإيذان بأن المؤمن إذا قتل مؤمنا فقد سلب عنه الإيمان وما هو بمؤمن، على نحو «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» فتكون هذه الجملة مستقلة عما بعدها، غير مراد بها التشريع، بل هي كالمقدمة للتشريع، لقصد تفظيع حال قتل المؤمن المؤمن قتلا غير خطأ، وتكون خبرية لفظا ومعنى، ويكون الاستثناء حقيقيا من عموم الأحوال، أي." (١)

"ثم ينكرون نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم وينكرون القرآن، حسدا من عند أنفسهم، ويكرهون بعض الملائكة لذلك، وهم اليهود، والتنبيه على أن المسلمين أكمل الأمم إيمانا، وأولى الناس برسل الله وكتبه، فهم أحرياء بأن يسودوا غيرهم لسلامة إيمانهم من إنكار فضائل أهل الفضائل، ويدل لذلك قوله عقبه «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه» ، ويزيد ذلك تأييدا أنه قال: واليوم الآخر فعطفه على الأشياء التي من يكفر بها فقد ضل، مع أنه لم يأمر المؤمنين بالإيمان باليوم الآخر فيما أمرهم به، لأن الإيمان به يشاركهم فيه اليهود فلم يذكره فيما يجب الإيمان به، وذكره بعد ذلك تعريضا بالمشركين.

المسلك الثالث: أن يراد بالأمر بالإيمان الدوام عليه تثبيتا لهم على ذلك، وتحذيرا لهم من الارتداد، فيكون هذا الأمر تمهيدا وتوطئة لقوله: ومن يكفر بالله وملائكته، ولقوله: إن الذين آمنوا ثم كفروا [النساء: ١٣٧] الآية.

المسلك الرابع: أن الخطاب للمنافقين، يعني: يا أيها الذين أظهروا الإيمان أخلصوا إيمانكم حقا.

المسلك الخامس: روي عن الحسن تأويل الأمر في قوله: آمنوا بالله بأنه طلب لثباتهم على الإيمان الذي هم عليه، واختاره الجبائي. وهو الجاري على ألسنة أهل العلم، وبناء عليه جعلوا الآية شاهدا لاستعمال صيغة الأمر في طلب الدوام. والمراد بالكتاب الذي أنزل من قبل الجنس، والتعريف للاستغراق يعني: والكتب التي أنزل الله من قبل القرآن، ويؤيده قوله بعده «وكتبه ورسله» .

وقرأ نافع. وعاصم. وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف: «نزل- وأنزل» - كليهما بالبناء للفاعل- وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو- بالبناء للنائب-.

وجاء في صلة وصف الكتاب الذي نزل على رسوله بصيغة التفعيل، وفي صلة الكتاب الذي أنزل من قبل بصيغة الإفعال **تفننا**، أو لأن القرآن حينئذ بصدد النزول نجوما، والتوراة يومئذ قد انقضى نزولها. ومن قال: لأن القرآن أنزل منجما بخلاف غيره من الكتب فقد أخطأ إذ لا يعرف كتاب نزل دفعة واحدة.." (٢)

"(١٦٢)

إن كان متعلق قوله: فبما نقضهم [النساء: ١٥٥] محذوفا على أحد الوجهين المتقدمين كان قوله: فبظلم مفرعا على مجموع جرائمهم السالفة. فيكون المراد بظلمهم ظلما آخر غير ما عدد من قبل، وإن كان قوله: فبما نقضهم [النساء: ١٥٥] متعلقا بقوله: حرمنا عليهم فقوله: فبظلم الخ بدل مطابق من جملة فبما نقضهم ميثاقهم [النساء: ١٥٥] بإعادة العامل في

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٥٦/٥

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٣٠/٥

البدل منه لطول الفصل. وفائدة الإتيان به أن يظهر تعلقه بقوله: حرمنا عليهم طيبات إذ بعد ما بينه وبين متعلقه، وهو قوله: فبما نقضهم ميثاقهم [النساء: ١٥٥] ليقوى ارتباط الكلام. وأتي في جملة البدل بلفظ جامع للمبدل منه وما عطف عليه: لأن نقض الميثاق، والكفر، وقتل الأنبياء، وقولهم قلوبنا غلف، وقولهم على مريم بهتانا، وقولهم قتلنا عيسى: كل ذلك ظلم. فكانت الجملة الأخيرة بمنزلة الفذلكة لما تقدم، كأنه قيل: فبذلك كله حرمنا عليهم، لكن عدل إلى لفظ الظلم لأنه أحسن تفننا، وأكثر فائدة من الإتيان باسم الإشارة. وقد مر بيان ذلك قريبا عند قوله تعالى: فبما نقضهم [النساء: ١٥٥] . ويجوز أن يكون ظلما آخر أجمله القرآن.

وتنكير (ظلم) للتعظيم، والعدول عن أن يقول «فبظلمهم» ، حتى تأتي الضمائر متتابعة من قوله: فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم إلى آخره، إلى الاسم الظاهر وهو الذين هادوا لأجل بعد الضمير في الجملة المبدل منها: وهي فبما نقضهم [النساء: ١٥٥] .

ولأن في الموصول وصلته ما يقتضي التنزه عن الظلم لو كانوا كما وصفوا أنفسهم، فقالوا: إنا هدنا إليك [الأعراف: ١٥٦] فصدور الظلم عن الذين هادوا محل استغراب.

والآية اقتضت: أن تحريم ما حرم عليهم إنما كان عقابا لهم، وأن تلك المحرمات ليس فيها من المفاسد ما يتقضي تحريم تناولها، وإلا لحرمت عليهم من أول مجيء

الشريعة. وقد قيل: إن المراد بهذه الطيبات هو ما ذكر في قوله تعالى: وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما- إلى قوله- ذلك جزيناهم ببغيهم في سورة الأنعام [١٤٦] ، فهذا هو الجزاء على ظلمهم.." (١)

"والمراد بالمؤمنين في قوله: والمؤمنون الذين هداهم الله للإيمان من أهل الكتاب، ولم يكونوا من الراسخين في العلم منهم، مثل اليهودي الذي كان يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به.

وعطف المقيمين بالنصب ثبت في المصحف الإمام، وقرأه المسلمون في الأقطار دون نكير فعلمنا أنه طريقة عربية في عطف الأسماء الدالة على صفات محامد، على أمثالها، فيجوز في بعض المعطوفات النصب على التخصيص بالمدح، والرفع على الاستئناف للاهتمام، كما فعلوا ذلك في النعوت المتتابعة، سواء كانت بدون عطف أم بعطف، كقوله تعالى: ولكن البر من آمن- إلى قوله- والصابرين [البقرة: ١٧٧] . قال سيبويه في «كتابه» «باب ما ينتصب في التعظيم والمدح وإن شئت جعلته صفة فجرى على الأول، وإن شئت قطعته فابتدأته» . وذكر من قبيل ما نحن بصدده هذه الآية فقال: «فلو كان كله رفعا كان جيدا» ، ومثله والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء [البقرة: ١٧٧] ، ونظيره قول الخرنق:

لا يبعدن قومي الذي هُمو ... سم العداة وآفة الجزر

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٦/٦

النازلون بكل معترك ... والطيبين معاقد الأزر

في رواية يونس عن العرب: برفع (النازلون) ونصب (الطيبين) ، لتكون نظير هذه الآية. والظاهر أن هذا مما يجري على قصد التفنن عند تكرر المتتابعات، ولذلك تكرر وقوعه في القرآن في معطوفات متتابعات كما في سورة البقرة وفي هذه الآية، وفي قوله:

والصابئون في سورة المائدة [٦٩] .

وروي عن عائشة وأبان بن عثمان أن نصب المقيمين خطأ، من كاتب المصحف وقد عدت من الخطأ هذه الآية. وقوله: ولكن البر من آمن بالله- إلى قوله- والصابرين في البأساء [البقرة: ١٧٧] وقوله: إن هذان لساحران [طه: ٦٣] . وقوله: الصابئون في سورة المائدة [٦٩] . وقرأها عائشة، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، والحسن، ومالك بن دينار، والجحدري، وسعيد بن جبير، وعيسى بن عمر، وعمرو بن عبيد:

والمقيمون- بالرفع-. ولا ترد قراءة الجمهور المجمع عليها بقراءة شاذة.." (١)

"عند جميع المليين، فكلام الله صفة له ثبتت بالشرع لا يدل عليها الدليل العقلي على التحقيق إذ لا تدل الأدلة العقلية على أن الله يجب له إبلاغ مراده الناس بل يجوز أن يوجد الموجودات ثم يتركها وشأنها، فلا يتعلق علمه بحملها على ارتكاب حسن الأفعال وتجنب قبائحها. ألا ترى أنه خلق العجماوات فما أمرها ولا نهى، فلو ترك الناس فوضى كالحيوان لما ستحال ذلك. وأنه إذا أراد حمل المخلوقات على شيء يريده فطرها على ذلك فانساقت إليه بجبلاتها، كما فطر النحل على إنتاج العسل، والشجر على الإثمار. ولو شاء لحمل الناس أيضا على جبلة لا يعدونها، غير أننا إذ قد علمنا أنه عالم، وأنه حكيم، والعلم يقتضي انكشاف حقائق الأشياء على ما هي عليه عنده، فهو إذ يعلم حسن الأفعال وقبحها، يريد حصول المنافع وانتفاء المضار، ويرضى بالأولى، ويكره الثانية، وإذ اقتضت حكمته وإرادته أن جعل البشر قابلا للتعلم والصلاح، وجعل عقول البشر صالحة لبلوغ غايات الخير، وغايات الشر، والتفنن فيهما، بخلاف الحيوان الذي يبلغ فيما جبل عليه من خير أو شر إلى غاية فطر عليها لا يعدوها، فكان من المتوقع طغيان الشر على الخير بعمل فريق الأشرار من البشر كان من مقتضى الحكمة أن يحمل الناس على فعل الخير الذي يرضاه، وترك الشر الذي يكرهه، وحملهم على هذا قد يحصل بخلق أفاضل الناس وجبلهم على الصلاح والخير، فيكونون دعاة للبشر، لكن حكمة الله وفضله اقتضى أن يخلق الصالحين القابلين للخير، وأن يعينهم على بلوغ ما جبلوا عليه بإرشاده وهديه، فخلق النفوس القابلة للنبوة والرسالة وأمدها بالإرشاد الدال على مراده المعبر عنه بالوحي، كما اقتضاه قوله

تعالى: الله أعلم حيث يجعل رسالته [الأنعام: ١٢٤] فأثبت رسالة وتهيئة المرسل لقبولها ومن هنا ثبتت صفة الكلام. فعلمنا بأخبار الشريعة المتواترة أن الله أراد من البشر الصلاح وأمرهم به، وأن أمره بذلك بلغ إلى البشر في عصور، كثيرة وذلك يدل على أن الله يرضى بعض أعمال البشر ولا يرضى بعضها وأن ذلك يسمى كلاما نفسيا، وهو أزلي.

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٩/٦

ثم إن حقيقة صفة الكلام يحتمل أن تكون من متعلقات صفة العلم، أو من متعلقات صفة الإرادة، أو صفة مستقلة متميزة عن الصفتين الأخريين." (١)

"وقد تفنن الاستثناء في قوله: إلا ما يتلى عليكم وقوله: غير محلي الصيد، فجيء بالأول بأداة الاستثناء، وبالثاني بالحالين الدالين على مغايرة الحالة المأذون فيها، والمعنى: إلا الصيد في حالة كونكم محرمين، أو في حالة الإحرام. وإنما تعرض لحكم

الصيد للمحرم هنا لمناسبة كونه مستثنى من بهيمة الأنعام في حال خاص، فذكر هنا لأنه تحريم عارض غير ذاتي، ولولا ذلك لكان موضع ذكره مع الممنوعات المتعلقة بحكم الحرم والإحرام عند قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله [المائدة: ٢] الآية.

والصيد يجوز أن يكون هنا مصدرا على أصله، وأن يكون مطلقا على اسم المفعول:

كالخلق على المخلوق، وهو إطلاق شائع أشهر من إطلاقه على معناه الأصلي، وهو الأنسب هنا لتكون مواقعه في القرآن على وتيرة واحدة، فيكون التقدير: غير محلي إصابة لصيد. والصيد بمعنى المصدر: إمساك الحيوان الذي لا يألف، باليد أو بوسيلة ممسكة، أو جارحة: كالشباك، والحبائل، والرماح، والسهام، والكلاب، والبزاة وبمعنى المفعول هو المصيد. وانتصب غير على الحال من الضمير المجرور في قوله: لكم. وجملة وأنتم حرم في موضع الحال من ضمير (محلي) ، وهذا نسج بديع في نظم الكلام استفيد منه إباحة وتحريم: فالإباحة في حال عدم الإحرام، والتحريم له في حال الإحرام.

وجملة إن الله يحكم ما يريد تعليل لقوله: أوفوا بالعقود، أي لا يصرفكم عن الإيفاء بالعقود أن يكون فيما شرعه الله لكم شيء من ثقل عليكم، لأنكم عاقدتم على عدم العصيان، وعلى السمع والطاعة لله، والله يحكم ما يريد لا ما تريدون أنتم. والمعنى أن الله أعلم بصالحكم منكم.." (٢)

"والأمر بالتقوى عقب ذلك لأنها أظهر للشكر، فعطف الأمر بالتقوى بالواو للدلالة على أن التقوى مقصودة لذاتها، وأنها شكر لله بدلالة وقوع الأمر عقب التذكير بنعمة عظمى.

وقوله: وعلى الله فليتوكل المؤمنون أمر لهم بالاعتماد على الله دون غيره. وذلك التوكل يعتمد امتثال الأوامر واجتناب المنهيات فناسب التقوى. وكان من مظاهره تلك النعمة التي ذكروا بها.

[١٢]

[سورة المائدة (٥) : آية ١٢]

ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٦/٦

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٨٠/٦

ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل (١٢)

ناسب ذكر ميثاق بني إسرائيل عقب ذكر ميثاق المسلمين من قوله: وميثاقه الذي واثقكم به [المائدة: ٧] تحذيرا من أن يكون ميثاقنا كميثاقهم. ومحل الموعظة هو قوله:

فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل. وهكذا شأن القرآن في التفنن ومجيء الإرشاد في قالب القصص، والتنقل من أسلوب إلى أسلوب.

وتأكيد الخبر الفعلي بقد وباللام للاهتمام به، كما يجيء التأكيد بإن للاهتمام وليس ثم متردد ولا منزل منزلته. وذكر مواثيق بني إسرائيل تقدم في سورة البقرة.

والبعث أصله التوجيه والإرسال، ويطلق مجازا على الإقامة والإنهاض." (١)

"غيره من أن يفعل مثل فعله أو أكثر، فشابه التسابق. ولتضمين فعل استبقوا بمعنى خذوا، أو ابتدروا، عدي الفعل إلى الخيرات بنفسه وحقه أن يعدى بإلى، كقوله سابقوا إلى مغفرة من ربكم [الحديد: ٢١] . وقوله: فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون أي من الاختلاف في قبول الدين.

[٤٩]

[سورة المائدة (٥) : آية ٤٩]

وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون (٤٩)

يجوز أن يكون قوله وأن احكم معطوفا عطف جملة على جملة، بأن يجعل معطوفا على جملة فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم [المائدة: ٤٨] ، فيكون رجوعا إلى ذلك الأمر لتأكيده، وليبنى عليه قوله: واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك كما بني على نظيره قوله: لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا [المائدة: ٤٨]

وتكون (أن) تفسيرية. و (أن) التفسيرية تفيد تقوية ارتباط التفسير بالمفسر، لأنها يمكن الاستغناء عنها، لصحة أن تقول: أرسلت إليه افعل كذا، كما تقول: أرسلت إليه أن افعل كذا. فلما ذكر الله تعالى أنه أنزل الكتاب إلى رسوله رتب عليه الأمر بالحكم بما أنزل به بواسطة الفاء فقال: فاحكم بينهم [المائدة: ٤٨] ، فدل على أن الحكم بما فيه هو من آثار تنزيله. وعطف عليه ما يدل على أن الكتاب يأمر بالحكم بما فيه بما دلت عليه (أن) التفسيرية في قوله: وأن احكم بينهم بما أنزل الله، فتأكد الغرض بذكره مرتين مع تفنن الأسلوب وبداعته، فصار التقدير: وأنزلنا إليك الكتاب بالحق أن احكم بينهم بما أنزل الله فاحكم بينهم به. ومما حسن عطف التفسير هنا طول الكلام الفاصل بين الفعل المفسر وبين تفسيره. وجعله صاحب «الكشاف» من عطف المفردات. فقال: عطف أن احكم على الكتاب في قوله: وأنزلنا إليك." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٣٩/٦

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٢٥/٦

"والرؤية في قوله: وترى بصرية، أي أن حالهم في ذلك بحيث لا يخفى على أحد. والخطاب لكل من يسمع.

وتقدم معنى يسارعون عند قوله: لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر [النساء:
٤١] .

والإثم: المفاسد من قول وعمل، أريد به هنا الكذب، كما دل عليه قوله: عن قولهم الإثم. والعدوان: الظلم، والمراد به الاعتداء على المسلمين إن استطاعوه.

والسحت تقدم في قوله: سماعون للكذب أكالون للسحت [المائدة: ٤٢] .

ولولا تحضيض أريد منه التوبيخ.

والربانيون والأحبار تقدم بيان معناهما في قوله تعالى: يحكم بها النبيون [المائدة: ٤٤] الآية.

واقتصر في توبيخ الربانيين على ترك نهيهم عن قول الإثم وأكل السحت، ولم يذكر العدوان إيماء إلى أن العدوان يزجرهم عنه المسلمون ولا يلتجئون في زجرهم إلى غيرهم، لأن الاعتماد في النصرة على غير المجني عليه، ضعف.

وجملة لبئس ما كانوا يصنعون مستأنفة، ذم لصنيع الربانيين والأحبار في سكوتهم عن تغيير المنكر، ويصنعون بمعنى يعلمون، وإنما خولف هنا ما تقدم في الآية قبلها للتفنن، وقيل: لأن يصنعون أدل على التمكن في العمل من يعملون.

واللام للقسم.

[٦٤]

[سورة المائدة (٥) : آية ٦٤]

وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين (٦٤)

وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء.

عطف على جملة وإذا جاؤكم قالوا آمنا [المائدة: ٦١] ، فإنه لما كان أولئك من اليهود والمنافقين انتقل إلى سوء معتقدهم وخبث طويتهم ليظهر فرط التنافي بين معتقدهم ومعتقد أهل الإسلام، وهذا قول اليهود الصرحاء غير المنافقين فلذلك أسند إلى اسم (اليهود) .." (١)

"وقوله: انظر كيف نبين لهم الآيات استئناف للتعجيب من حال الذين ادعوا الإلهية لعيسى. والخطاب مراد به غير معين، وهو كل من سمع الحجج السابقة. واستعمل الأمر بالنظر في الأمر بالعلم لتشبيه العالم بالرأي والعلم بالرؤية في الوضوح والجلاء، وقد تقدمت نظائره. وقد أفاد ذلك معنى التعجيب. ويجوز أن يكون الخطاب للرسول- عليه السلام-. والمراد هو وأهل القرآن. وكيف اسم استفهام معلق لفعل انظر عن العمل في مفعولين، وهي موضع المفعول به ل انظر، والمعنى انظر

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٤٨/٦

جواب هذا الاستفهام. وأريد مع الاستفهام التعجيب كناية، أي انظر ذلك تجد جوابك أنه بيان عظيم الجلاء يتعجب الناظر من وضوحه. والآيات جمع آية، وهي العلامة على وجود

المطلوب، استعيرت للحجة والبرهان لشبهة بالمكان المطلوب على طريق المكنية، وإثبات الآيات له تخييل، شبهت بآيات الطريق الدالة على المكان المطلوب.

وقوله: ثم انظر أنى يؤفكون (ثم) فيه للترتيب الرتبي والمقصود أن التأمل في بيان الآيات يقتضي الانتقال من العجب من وضوح البيان إلى أعجب منه وهو انصرافهم عن الحق مع وضوحه. ويؤفكون يصرفون، يقال: أفكه من باب ضرب، صرفه عن الشيء.

وأنى اسم استفهام يستعمل بمعنى من أين، ويستعمل بمعنى كيف. وهو هنا يجوز أن يكون بمعنى كيف (كما) في «الكشاف» ، وعليه فإنما عدل عن إعادة كيف تفننا. ويجوز أن تكون بمعنى من أين، والمعنى التعجيب من أين يتطرق إليهم الصرف عن الاعتقاد الحق بعد ذلك البيان المبالغ غاية الوضوح حتى كان بمحل التعجيب من وضوحه. وقد علق ب أنى فعل انظر الثاني عن العمل وحذف متعلق يؤفكون اختصارا، لظهور أنهم يصرفون عن الحق الذي بينته لهم الآيات.." (١)

(١١٠)"

جملة يوم يجمع الله الرسل استئناف ابتدائي متصل بقوله: فأثابهم الله بما قالوا- إلى قوله- وذلك جزاء المحسنين [المائدة: ٨٥] . وما بينهما جمل معترضة نشأ بعضها عن بعض، فعاد الكلام الآن إلى أحوال الذين اتبعوا عيسى- عليه السلام-، فبدل كثير منهم تبديلا بلغ بهم إلى الكفر ومضاهاة المشركين، للتذكير بهول عظيم من أهوال يوم القيامة تكون فيه شهادة الرسل على الأمم وبراءتهم مما أحدثه أممهم بعدهم في الدين مما لم

يأذن به الله، والتخلص من ذلك إلى شهادة عيسى على النصارى بأنه لم يأمرهم بتأليهه وعبادته. وهذا متصل في الغرض بما تقدم من قوله تعالى: ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى [المائدة: ٨٢] . فإن في تلك الآيات ترغيبا وترهيبا، وإبعادا وتقريبا، وقع الانتقال منها إلى أحكام تشريعية ناسبت ما ابتدعه اليهود والنصارى، وذلك من قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم [المائدة: ٨٧] وتفنن الانتقال إلى هذا المبلغ، فهذا عود إلى بيان تمام نهوض الحجة على النصارى في مشهد يوم القيامة. ولقد جاء هذا مناسبا للتذكير العام بقوله تعالى: واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين [المائدة: ١٠٨] . ولمناسبة هذا المقام التزم وصف عيسى بابن مريم كلما تكرر ذكره في هذه الآيات أربع مرات تعريضا بإبطال دعوى أنه ابن لله تعالى.

ولأنه لما تم الكلام على الاستشهاد على وصايا المخلوقين ناسب الانتقال إلى شهادة الرسل على وصايا الخالق تعالى، فإن الأديان وصايا الله إلى خلقه. قال تعالى:

شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى [الشورى: ١٣] . وقد سماهم الله تعالى شهداء في قوله: فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا [النساء: ٤١] .

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٨٧/٦

فقوله: يوم يجمع ظرف، والأظهر أنه معمول لعامل محذوف يقدر بنحو: اذكر يوم يجمع الله الرسل، أو يقدر له عامل يكون بمنزلة الجواب للظرف، لأن الظرف إذا تقدم يعامل معاملة الشرط في إعطائه جوابا. وقد حذف هذا العامل لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن من التهويل، تقديره يوم يجمع الله الرسل يكون هول عظيم لا يبلغه طول التعبير فينبغي طيه. ويجوز أن يكون متعلقا بفعل." (١)

"تلك المقالة. وكانت المبادرة بتنزيه الله تعالى أهم من تبرئته نفسه، على أنها مقدمة للتبري لأنه إذا كان ينزه الله عن ذلك فلا جرم أنه لا يأمر به أحدا. وتقدم الكلام على سبحانك في قوله تعالى: قالوا سبحانك لا علم لنا في سورة البقرة [٣٢].

وبرأ نفسه فقال: ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق فجملة ما يكون لي أن أقول مستأنفة لأنها جواب السؤال. وجملة سبحانك تمهيد.

وقوله: ما يكون لي مبالغة في التبرئة من ذلك، أي ما يوجد لدي قول ما ليس لي بحق، فاللام في قوله: ما يكون لي للاستحقاق، أي ما يوجد حق أن أقول. وذلك أبلغ من لم أقله لأنه نفى أن يوجد استحقاقه ذلك القول.

والباء في قوله بحق زائدة في خبر ليس لتأكيد النفي الذي دلت عليه ليس. واللام في قوله ليس لي بحق متعلقة بلفظ بحق على رأي المحققين من النحاة أنه يجوز تقديم المتعلق على متعلقه المجرور بحرف الجر. وقدم الجار والمجرور للتنصيص على أنه ظرف لغو متعلق بحق لئلا يتوهم أنه ظرف مستقر صفة لحق حتى يفهم منه أنه نفى كون ذلك حقا له ولكنه حق لغيره الذين قالوه وكفروا به، وللمبادرة بما يدل على تنصله من ذلك بأنه ليس له. وقد أفاد الكلام تأكيد كون ذلك ليس حقا له بطريق المذهب الكلامي لأنه نفى أن يباح له أن يقول ما لا يحق له، فعلم أن ذلك ليس حقا له وأنه لم يقله لأجل كونه كذلك. فهذا تأكيد في غاية البلاغة **والتفنن**.

ثم ارتقى في التبري فقال: إن كنت قلته فقد علمته، فالجملة مستأنفة لأنها دليل وحجة لمضمون الجملة التي قبلها، فكانت كالبيان فلذلك فصلت. والضمير المنصوب في قلته عائد إلى الكلام المتقدم. ونصب القول للمفرد إذا كان في معنى الجملة شائع كقوله تعالى: كلا إنها كلمة هو قائلها [المؤمنون: ١٠٠] ، فاستدل على انتفاء أن يقوله بأن الله يعلم أنه لم يقله، وذلك لأنه يتحقق أنه لم يقله، فلذلك أحال على علم الله تعالى.

وهذا كقول العرب: يعلم الله أني لم أفعل، كما قال الحارث بن عباد:

لم أكن من جناتعا علم الله وأني لحرها اليوم صال." (٢)

"فجملة وللبسنا عليهم ما يلبسون من تمام الدليل والحجة عليهم بعدم جدوى إرسال الملك.

واللبس: خلط يعرض في الصفات والمعاني بحيث يعسر تمييز بعضها عن بعض.

وقد تقدم عند قوله تعالى: ولا تلبسوا الحق بالباطل في سورة البقرة [] . وقد عدي هنا بحرف (على) لأن المراد لبس فيه

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٩٨/٧

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٤/٧

غلبة لعقولهم.
والمعنى: وللبسنا على عقولهم، فشكوا في كونه ملكا فكذبوه، إذ كان دأب عقولهم تطلب خوارق العادات استدلالا بها على الصدق، وترك إعمال النظر الذي يعرف به صدق الصادق.
وما في قوله: ما يلبسون مصدرية مجردة عن الظرفية، والمعنى على التشبيه، أي وللبسنا عليهم لبسهم الذي وقع لهم حين قالوا: لولا أنزل عليه ملك، أي مثل لبسهم السابق الذي عرض لهم في صدق محمد عليه الصلاة والسلام.
وفي الكلام احتباك لأن كلا اللبسين هو بتقدير الله تعالى، لأنه حرمهم التوفيق.
فالتقدير: وللبسنا عليهم في شأن الملك فيلبسون على أنفسهم في شأنه كما لبسنا عليهم في شأن محمد صلى الله عليه وسلم إذ يلبسون على أنفسهم في شأنه. وهذا الكلام كله منظور فيه إلى حمل اقتراحهم على ظاهر حاله من إرادتهم الاستدلال، فلذلك أجيبوا عن كلامهم إرخاء للعنان، وإلا فإنهم ما أرادوا بكلامهم إلا التعجيز والاستهزاء، ولذلك عقبه بقوله: ولقد استهزئ برسل من قبلك الآية.
[١٠]

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠]
ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن (١٠)
عطف على جملة: وقالوا لولا أنزل عليه ملك لبيان تفننهم في المكابرة والعناد تصلبا في شركهم وإصرارا عليه، فلا يتركون وسيلة من وسائل التنفير من قبول دعوة الإسلام إلا توسلوا بها. ومناسبة عطف هذا الكلام على قوله: وقالوا لولا أنزل عليه ملك." (١)

"استعمال شائع، وليس فيه شيء من اللوم ولا من التوبيخ، كما توهمه كثير من المفسرين.
وقوله: ولو شاء الله لجمعهم على الهدى شرط امتناعي دل على أن الله لم يشأ ذلك، أي لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم عليه فمفعول المشيئة محذوف لقصد البيان بعد الإبهام على الطريقة المسلوكة في فعل المشيئة إذا كان تعلقه بمفعوله غير غريب وكان شرطا لإحدى أدوات الشرط كما هنا، وكقوله: إن يشأ يذهبكم [النساء: ١٣٣] .
ومعنى: لجمعهم على الهدى لهداهم أجمعين. فوقع تفنن في أسلوب التعبير فصار تركيبا خاصيا عدل به على التركيب المشهور في نحو قوله تعالى: فلو شاء لهداكم أجمعين [الأنعام: ١٤٩] للإشارة إلى تمييز الذين آمنوا من أهل مكة على من بقي فيها من المشركين، أي لو شاء لجمعهم مع المؤمنين على ما هدى إليه المؤمنين من قومهم.
والمعنى: لو شاء الله أن يخلقهم بعقول قابلة للحق لخلقهم بها فلقبلوا الهدى،
ولكنه خلقهم على ما وصف في قوله: وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا [الأنعام: ٢٥] الآية، كما تقدم

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٤٦/٧

بيانه. وقد قال تعالى: ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة [هود: ١١٨] ، وبذلك تعلم أن هذه مشيئة كلية تكوينية، فلا تعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى في آخر هذه السورة [١٤٨] سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا الآية. فهذا من المشيئة المتعلقة بالخلق والتكوين لا من المشيئة المتعلقة بالأمر والتشريع. وبينهما بون، سقط في مهواته من لم يقدر له صون.

وقوله: فلا تكونن من الجاهلين تذييل مفرع على ما سبق.

والمراد ب الجاهلين يجوز أن يكون من الجهل الذي هو ضد العلم، كما في قوله تعالى خطابا لنوح إني أعظك أن تكون من الجاهلين [هود: ٤٦] ، وهو ما حمل عليه المفسرون هنا. ويجوز أن يكون من الجهل ضد الحلم، أي لا تضق صدرا بإعراضهم.

وهو أنسب بقوله: وإن كان كبر عليك إعراضهم. وإرادة كلا المعنيين ينتظم مع مفاد الجملتين: جملة: وإن كان كبر عليك إعراضهم وجملة ولو شاء الله لجمعهم على الهدى. ومع كون هذه الجملة تذييلا للكلام السابق فالمعنى: فلا يكبر عليك إعراضهم." (١)

"[سورة الأنعام (٦) : آية ٣٧]

وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون (٣٧)

عطف على جملة: وإن كان كبر عليك إعراضهم [الأنعام: ٣٥] الآيات، وهذا عود إلى ما جاء في أول السورة [٤] من ذكر إعراضهم عن آيات الله بقوله وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين. ثم ذكر ما تفننوا به من المعاذير من قولهم:

لولا أنزل عليه ملك [الأنعام: ٨] وقوله: وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها [الأنعام: ٢٥] أي وقالوا: لولا أنزل عليه آية، أي على وفق مقترحهم، وقد اقترحوا آيات مختلفة في مجادلات عديدة. ولذلك أجملها الله تعالى هنا اعتمادا على علمها عند الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فقال: وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه.

فجملة: وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه وقع عطفها معترضا بين جملة والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون [الأنعام: ٣٦] وجملة وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه [الأنعام: ٣٨] إلخ. وفي الإتيان بفعل النزول ما يدل على أن الآية المسئولة من قبيل ما يأتي من السماء، مثل قولهم لولا أنزل عليه ملك [الأنعام: ٨] وقولهم: ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه [الإسراء: ٩٣] وشبه ذلك.

وجرد نزل من علامة التأنيث لأن المؤنث الذي تأنيثه لفظي بحت يجوز تجريد فعله من علامة التأنيث فإذا وقع بين الفعل ومرفوعه فاصل اجتمع مسوغان لتجريد الفعل من علامة التأنيث، فإن الفصل بوحده مسوغ لتجريد الفعل من العلامة. وقد صرح في «الكشاف» بأن تجريد الفعل عن علامة التأنيث حينئذ حسن.

ولولا حرف تحضيض بمعنى (هلا) . والتحضيض هنا لقطع الخصم وتعجيزه،

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٧/٢٠٦

كما تقدم في قوله تعالى آنفا وقالوا لولا أنزل عليه ملك [الأنعام: ٨] .

وتقدم الكلام على اشتقاق آية عند قوله تعالى: والذين كفروا وكذبوا بآياتنا في سورة البقرة." (١)

"أخرج أحمد بن حنبل عن عقبة بن عامر عن النبيء صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

[٤٦]

[سورة الأنعام (٦) : آية ٤٦]

قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون (٤٦)

استئناف ابتدائي عاد به إلى الجدال معهم في إشراكهم بالله تعالى بعد أن انصرف الكلام عنه بخصوصه من قوله تعالى: قل أي شيء أكبر شهادة [الأنعام: ١٩] وما تفنن عقب ذلك من إثبات البعث وإثبات صدق الرسول وذكر القوارع والوعيد إلى قوله: قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة [الأنعام: ٤٠] الآيات. وتكرير الأمر بالقول للوجه الذي تقدم آنفا عند قوله تعالى: قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله [الأنعام: ٤٠] الآية.

والرؤية قلبية متعدية إلى مفعولين، وليس هذا من قبيل الاستعمال المتقدم آنفا في قوله تعالى: قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة [الأنعام: ٤٠] الآية.

واختلاف القراء في أرأيتم كاختلافهم في مثله من قوله تعالى: قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله [الأنعام: ٤٠] الآية.

والأخذ: انتزاع الشيء وتناوله من مقره، وهو هنا مجاز في السلب والإعدام، لأن السلب من لوازم الأخذ بالنسبة إلى المأخوذ منه فهو مجاز مرسل. ولك أن تجعله تمثيلا لأن الله هو معطي السمع والبصر فإذا أزالها كانت تلك الإزالة كحالة أخذ ما كان." (٢)

"وجملة إلا يعلمها خبر مفرغ له حرف الاستثناء. ولا حبة عطف على المبتدأ بإعادة حرف النفي، وفي ظلمات الأرض صفة ل حبة، أي ولا حبة من بذور النبت مظروفة في طبقات الأرض إلى أبعد عمق يمكن، فلا يكون حبة معمولا لفعل تسقط لأن

الحبة التي تسقط لا تبلغ بسقوطها إلى ظلمات الأرض. ولا رطب ولا يابس معطوفان على المبتدأ المجرور ب من. والخبر عن هذه المبتدءات الثلاثة هو قوله: إلا في كتاب مبين لوروده بعد الثلاثة، وذلك ظاهر وقوع الإخبار به عن الثلاثة، وأن

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٠٩/٧

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٣٣/٧

الخبر الأول راجع إلى قوله: من ورقة.

والمراد بالكتاب المبين العلم الثابت الذي لا يتغير، وما عسى أن يكون عند الله من آثار العلم من كتابة أو غيرها لم يطلعنا على كنهها.

وقيل: جر حبة عطف على ورقة مع إعادة حرف النفي، وفي ظلمات الأرض وصف ل حبة. وكذلك قوله: ولا رطب ولا يابس بالجر عطفا على حبة وورقة، فيقتضي أنها معمولة لفعل تسقط، أي ما يسقط رطب ولا يابس، ومقيدة بالحال في وقوله: إلا يعلمها.

وقوله: إلا في كتاب مبين تأكيد لقوله: إلا يعلمها لأن المراد بالكتاب المبين علم الله تعالى سواء كان الكتاب حقيقة أم مجازا عن الضبط وعدم التبديل. وحسن هذا التأكيد تجديد المعنى لبعد الأول بالمعطوفات وصفاتها، وأعيد بعبارة أخرى تفننا.

وقد تقدم القول في وجه جمع ظلمات عند قوله تعالى: وجعل الظلمات والنور في هذه السورة [١] . ومبين إما من أبان المتعدي، أي مبين لبعض مخلوقاته ما يريده كالملائكة، أو من أبان القاصر الذي هو بمعنى بان، أي بين، أي فصل بما لا احتمال فيه ولا تردد.

وقد علم من هاته الآيات عموم علمه تعالى بالكليات والجزئيات. وهذا متفق عليه عند أهل الأديان دون تصريح به في الكتب السابقة وما أعلنه إلا القرآن في نحو قوله:." (١)

"وقرأ الجمهور أنجيتنا- بمثناة تحتية بعد الجيم ومثناة فوقية بعد التحتية-. وقرأه عاصم، وحمزة، والكسائي وخلف أنجانا- بألف بعد الجيم- والضمير عائد إلى من في قوله: قل من ينجيكم.

والإشارة ب هذه إلى الظلمة المشاهدة للمتكلم باعتبار ما ينشأ عنها، أو باعتبار المعنى المجازي وهو الشدة، أو إلى حالة يعبر عنها بلفظ مؤنث مثل الشدة أو الورطة أو الربقة.

والشاكر هو الذي يراعي نعمة المنعم فيحسن معاملته كلما وجد لذلك سبيلا. وقد كان العرب يرون الشكر حقا عظيما ويعيرون من يكفر النعمة.

وقولهم: من الشاكرين أبلغ من أن يقال: لنكونن شاكرين، كما تقدم عند قوله تعالى: قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين [الأنعام: ٥٦] .

وجملة: قل الله ينجيكم منها تلقين لجواب الاستفهام من قوله: من ينجيكم أن يجيب عن المسئولين، ولذلك فصلت جملة قل لأنها جارية مجرى القول في المحاورة، كما تقدم في هذه السورة. وتولى الجواب عنهم لأن هذا الجواب لا يسعهم إلا الاعتراف به.

وقدم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة الاختصاص، أي الله ينجيكم لا غيره، ولأجل ذلك صرح بالفعل المستفهم عنه. ولولا هذا لاقتصر على قل الله. والضمير في منها للظلمات أو للحادثة. وزاد من كل كرب لإفادة التعميم، وأن الاقتصار على ظلمات البر والبحر بالمعنيين لمجرد المثال.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٧٣/٧

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وهشام عن ابن عامر، ويعقوب ينجيكم- بسكون النون وتخفيف الجيم- على أنه من أنجاه، فتكون الآية جمعت بين الاستعمالين.

وهذا من التفنن لتجنب الإعادة. ونظيره فمهل الكافرين أمهلهم [الطارق: ١٧] .." (١)

"الجنس كالتعريف في قوله: ومن النخل. والمراد بالزيتون والرمان شجرهما. وهما في الأصل اسمان للثمرتين ثم أطلقا على شجرتيهما كما تقدم في الأعناب. وهاتان الشجرتان وإن لم تكونا مثل النخل في الأهمية عند العرب إلا أنهما لعزة وجودهما في بلاد العرب ولتنافس العرب في التفكه بثمرهما والإعجاب باقتنائهما ذكرا في مقام التذكير بعجيب صنع الله تعالى ومنته. وكانت شجرة الزيتون موجودة بالشام وفي سينا، وشجرة الرمان موجودة بالطائف.

وقوله: مشتبها وغير متشابه حال ومعطوف عليه، والواو للتقسيم بقرينة أن الشيء

الواحد لا يكون مشتبها وغير متشابه، أي بعضه مشتبه وبعضه غير متشابه. وهما حالان من «الزيتون والرمان» معا، وإنما أفرد ولم يجمع اعتبارا بإفراد اللفظ. والتشابه والاشتباه مترادفان كالتساوي والاستواء، وهما مشتقان من الشبه. والجمع بينهما في الآية للتفنن كراهية إعادة اللفظ، ولأن اسم الفاعل من التشابه أسعد بالوقف لما فيه من مد الصوت بخلاف مشتبه. وهذا من بديع الفصاحة.

والتشابه: التماثل في حالة مع الاختلاف في غيرها من الأحوال، أي بعض شجره يشبه بعضا وبعضه لا يشبه بعضا، أو بعض ثمره يشبه بعضا وبعضه لا يشبه بعضا، فالتشابه مما تقارب لونه أو طعمه أو شكله مما يتطلبه الناس من أحواله على اختلاف أميالهم، وعدم التشابه ما اختلف بعضه عن البعض الآخر فيما يتطلبه الناس من الصفات على اختلاف شهواتهم، فمن أعواد الشجر غليظ ودقيق، ومن ألوان ورقه قاتم وداكن، ومن ألوان ثمره مختلف ومن طعمه كذلك، وهذا كقوله تعالى: ونفضل بعضها على بعض في الأكل [الرعد: ٤] . والمقصود من التقييد بهذه الحال التنبيه على أنها مخلوقة بالقصد والاختيار لا بالصدفة.

ويجوز أن تجعل هذه الحال من جميع ما تقدم من قوله: نخرج منه حبا متراكبا." (٢)

"والقيم- بفتح القاف وتشديد الياء- كما قرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: وصف مبالغة قائم بمعنى معتدل غير معوج، وإطلاق القيام على الاعتدال والاستقامة مجاز، لأن المرء إذا قام اعتدلت قامته، فيلزم الاعتدال القيام.

والأحسن أن نجعل القيم للمبالغة في القيام بالأمر، وهو مرادف القيوم، فيستعار القيام للكفاية بما يحتاج إليه والوفاء بما فيه صلاح المقوم عليه، فالإسلام قيم بالأمة وحاجتها، يقال: فلان قيم على كذا، بمعنى مدبر له ومصلح، ومنه وصف الله تعالى بالقيوم، وهذا أحسن لأن فيه زيادة على مفاد مستقيم الذي أخذ جزءا من التمثيلية، فلا تكون إعادة لبعض التشبيه.

وقرأ عاصم، وحمزة، وابن عامر، والكسائي، وخلف: قيما- بكسر القاف وفتح الياء مخففة- وهو من صيغ مصادر قام،

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٨٢/٧

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤٠٢/٧

فهو وصف للدين بمصدر القيام المقصود به كفاية المصلحة للمبالغة، وهذه زنة قليلة في المصادر، وقلب واوه ياء بعد الكسرة على غير الغالب: لأن الغالب فيه تصحيح لامه لأنها مفتوحة، فسواء في خفتها وقوعها على الواو أو على الياء، مثل عوض وحول، وهذا كشذوذ جياد جمع جواد، وانتصب قيما على الوصف ل دينا.

وقوله: ملة إبراهيم حال من: دينا أو من: صراط مستقيم أو عطف بيان على دينا.

والملة، الدين: فهي مرادفة الدين، فالتعبير بها هنا للتفنن ألا ترى إلى قوله تعالى:

ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين [البقرة: ١٣٢] .

وملة فعلة بمعنى المفعول، أي المملول، من أمللت الكتاب إذا لقنت الكاتب ما يكتب، وكان حقها أن لا تقترن بهاء التأنيث لأن زنة (فعل) بمعنى المفعول تلزم التذكير، كالذبح، إلا أنهم." (١)

"تصحيح أو تحسين العطف يحصل بكل فاصل بين الفعل الرافع للمستتر وبين المعطوف، لا خصوص الضمير، كأن يقال: ويا آدم اسكن الجنة وزوجك، فما اختير الفصل بالضمير المنفصل إلا لما يفيد من التعريض بغيره. وهذه نكتة فاتني العلم بها في آية سورة البقرة فضمها إليها أيضا.

والكلام على قوله: اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين يعلم مما مضى من الكلام على نظيره من سورة البقرة.

سوى أن الذي وقع في سورة البقرة [٣٥] وكلا بالواو وهنا بالفاء، والعطف بالواو أعم، فالآية هنا أفادت أن الله تعالى أذن آدم بأن يتمتع بثمار الجنة عقب أمره بسكنى الجنة. وتلك منة عاجلة تؤذن بتمام الإكرام، ولما كان ذلك حاصلا في تلك الحضرة، وكان فيه زيادة تنغيص لإبليس، الذي تكبر وفضل نفسه عليه، كان الحال مقتضيا إعلام السامعين به في المقام الذي حكي فيه الغضب على إبليس وطرده، وأما آية البقرة فإنما أفادت السامعين أن الله امتن على آدم بمنة سكنى الجنة والتمتع بثمارها، لأن المقام هنالك لتذكير بني إسرائيل بفضل آدم وبذنبه وتوبته، والتحذير من كيد الشيطان ذلك الكيد الذي هم واقعون في شيء منه عظيم.

على أن آية البقرة [٣٥] لم تخل عن ذكر ما فيه تكرمة له وهو قوله: رغدا لأنه مدح للممتن به أو دعاء لآدم، فحصل من مجموع الآيتين عدة مكارم لآدم، وقد وزعت على عادة القرآن في توزيع أغراض القصص على مواقعها، ليحصل تجديد الفائدة، تنشيطا للسامع، وتفننا في أساليب الحكاية، لأن الغرض الأهم من القصص في القرآن إنما هو العبرة والموعظة والتأسي.

وقوله: ولا تقربا هذه الشجرة أشد في التحذير من أن ينهى عن الأكل منها، لأن النهي عن قربانها سد لذريعة الأكل منها وقد تقدم نظيره في سورة البقرة.." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٨-أ/١٩٩

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٨-ب/٥٤

"كيفما تفننت أساليبه وتناسق نظمه، وأيا ما كان فالمقصود الأول من هذه الخطابات أو من حكايتها هم مشركو العرب ومكذبو محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك تخللت هذه الخطابات مستطردات وتعريضات مناسبة لما وضعه المشركون من التكاذيب في نقض أمر الفطرة.

والجمل الثلاث من قوله: يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا- وقوله- يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان [الأعراف: ٢٧]- وقوله- يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد [الأعراف: ٣١] متصلة تمام الاتصال بقصة فتنة الشيطان لآدم وزوجه، أو متصلة بالقول المحكي بجملة: قال فيها تحيون [الأعراف: ٢٥] على طريقة تعداد المقول تعدادا يشبه التكرير.

وهذا الخطاب يشمل المؤمنين والمشركين، ولكن الحظ الأوفر منه للمشركين: لأن حظ المؤمنين منه هو الشكر على يقينهم بأنهم موافقون في شؤونهم لمرضاة ربهم، وأما حظ المشركين فهو الإنذار بأنهم كافرون بنعمة ربهم، معرضون لسخطه وعقابه.

وابتدئ الخطاب بالنداء ليقع إقبالهم على ما بعده بشراشر قلوبهم، وكان لاختيار استحضارهم عند الخطاب بعنوان بني آدم مرتين وقع عجيب، بعد الفراغ من ذكر قصة خلق آدم وما لقيه من وسوسة الشيطان: وذلك أن شأن الذرية أن تثأر لآبائها، وتعادي عدوهم، وتحترس من الوقوع في شركه.

ولما كان إلهام الله آدم أن يستر نفسه بورق الجنة منة عليه، وقد تقلدها بنوه، خوطب الناس بشمول هذه المنة لهم بعنوان يدل على أنها منة موروثة، وهي أوقع وأدعى للشكر، ولذلك سمي تيسير اللباس لهم وإلهامهم إياه إنزالا، لقصد تشريف هذا المظهر، وهو أول مظاهر الحضارة، بأنه منزل على الناس من عند الله، أو لأن الذي كان منه على آدم نزل به من الجنة إلى الأرض التي هو فيها، فكان له في معنى الإنزال مزيد اختصاص،." (١)

"والذي يظهر لي: أن يكون الذي صادقا على نبات الأرض، والمعنى: والنبت الذي خبث لا يخرج إلا نكدا، ويكون في الكلام احتباك إذ لم يذكر وصف الطيب بعد نبات البلد الطيب، ولم تذكر الأرض الخبيثة قبل ذكر النبات الخبيث، لدلالة كلا الضدين على الآخر. والتقدير: والبلد الطيب يخرج نباته طيبا بإذن ربه، والنبات الذي خبث يخرج نكدا من البلد الخبيث، وهذا صنع دقيق لا يهمل في الكلام البليغ.

وقرأ الجميع لا يخرج- بفتح التحتية وضم الراء- إلا ابن وردان عن أبي جعفر قرأ بضم التحتية وكسر الراء- على خلاف المشهور عنه، وقيل إن نسبة هذا لابن وردان توهم.

والنكد وصف من النكد- بفتح الكاف وهو مصدر نكد الشيء إذا كان غير صالح يجر على مستعمله شرا. وقرأ أبو جعفر إلا نكدا، بفتح الكاف.

وفي تفصيل معنى الآية

جاء الحديث الصحيح عن النبيء صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع بها الله الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٨-ب/٧٣

الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع لذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» .

والإشارة بقوله: كذلك نصرف الآيات إلى تفنن الاستدلال بالدلائل الدالة على عظيم القدرة المقتضية الوحدانية، والدالة أيضا على وقوع البعث بعد الموت، والدالة على اختلاف قابلية الناس للهدى والانتفاع به بالاستدلال الواضح البين المقرب في جميع ذلك، فلذلك تصريف أي تنويع وتفنين للآيات." (١)

"للملأ من قومه هو أيضا يتضمن دعوة عامة، كما هو بين، وتقدم آنفا نكتة التعبير في ندائهم بوصف القوم المضاف إلى ضميره، فأعاد ذلك مرة ثانية

استنزالا لطائر نفوسهم مما سيعقب النداء من الرد عليهم وإبطال قولهم إنا لنراك في ضلال مبين [الأعراف: ٦٠] .

والضلالة مصدر مثل الضلال، فتأنيثه لفظي محض، والعرب يستشعرون التأنيث غالبا في أسماء أجناس المعاني، مثل الغواية والسفاهة، فالتاء لمجرد تأنيث اللفظ وليس في هذه التاء معنى الوحدة لأن أسماء أجناس المعاني لا تراعى فيها المشخصات، فليس الضلال بمنزلة اسم الجمع للضلالة، خلافا لما في «الكشاف» ، وكأنه حاول إثبات الفرق بين قول قومه له إنا لنراك في ضلال [الأعراف: ٦٠] ، وقوله هو: ليس بي ضلالة وتبعه فيه الفخر، وابن الأثير في «المثل السائر» ، وقد تكلف لتصحيحه التفتازاني، ولا حاجة إلى ذلك، لأن التخالف بين كلمتي ضلال وضلالة اقتضاه التفنن حيث سبق لفظ ضلال، وموجب سبقه إرادة وصفه ب مبين [الأعراف: ٦٠] ، فلو عبر هنالك بلفظ ضلالة لكان وصفها بمبينة غير مألوف الاستعمال، ولما تقدم لفظ ضلال [الأعراف: ٦٠] استحسن أن يعاد بلفظ يغايره في السورة دفعا لثقل الإعادة فقوله: ليس بي ضلالة رد لقولهم:

إنا لنراك في ضلال مبين [الأعراف: ٦٠] بمساويه لا بأبلغ منه.

والباء في قوله: بي للمصاحبة أو الملابسة، وهي تناقض معنى الظرفية المجازية من قولهم في ضلال [الأعراف: ٦٠] فإنهم جعلوا الضلال متمكنا منه، فنفى هو أن يكون للضلال متلبس به.

وتجريد ليس من تاء التأنيث مع كون اسمها مؤنث اللفظ جرى على الجواز في تجريد الفعل من علامة التأنيث، إذا كان مرفوعه غير حقيقي التأنيث، ولمكان الفصل بالمجرور.

والاستدراك الذي في قوله ولكني رسول لرفع ما توهموه من أنه في ضلال حيث خالف دينهم، أي هو في حال رسالة عن الله، مع ما تقتضي الرسالة." (٢)

"التي بين حضرموت وعمان.

والأخ هنا مستعمل في مطلق القريب، على وجه المجاز المرسل ومنه قولهم يا أخا العرب، وقد كان هود من بني عاد، وقيل: كان ابن عم إرم، ويطلق الأخ مجازا أيضا على المصاحب الملازم، كقولهم: هو أخو الحرب، ومنه إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين [الإسراء: ٢٧]- وقوله- وإخوانهم يمدونهم في الغي [الأعراف: ٢٠٢] . فالمراد أن هودا كان من ذوي نسب

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٨-ب/١٨٦

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٨-ب/١٩٢

قومه عاد، وإنما وصف هود وغيره بذلك، ولم يوصف نوح بأنه أخ لقومه: لأن الناس في زمن نوح لم يكونوا قد انقسموا شعوبا وقبائل، والعرب يقولون:

للواحد من القبيلة: أخو بني فلان، قصدا لعزوه ونسبته تمييزا للناس إذ قد يشتركون في الأعلام، ويؤخذ من هذه الآية ونظائرها أن نظام القبائل ما حدث إلا بعد الطوفان.

وفصلت جملة: قال يا قوم ولم تعطف بالفاء كما عطف نظيرها المتقدم في قصة نوح لأن الحال اقتضى هنا أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا لأن قصة هود لما وردت عقب قصة نوح المذكور فيها دعوته قومه صار السامع مترقبا معرفة ما خاطب به هود قومه حيث بعثه الله إليهم، فكان ذلك مثار سؤال في نفس السامع أن يقول: فماذا دعا هود قومه وبماذا أجابوا؟ فيقع الجواب بأنه قال: يا قوم اعبدوا الله إلخ مع ما في هذا الاختلاف من التفنن في أساليب الكلام، ولأن الفعل المفرع عنه القول بالعطف لما كان محذوفا لم يكن التفريع حسنا في صورة النظم.

والربط بين الجمل حاصل في الحالتين لأن فاء العطف رابط لفظي للمعطوف بالمعطوف عليه، وجواب السؤال رابط جملة الجواب بجملة مثار السؤال ربطا معنويا.

وجملة: ما لكم من إله غيره مستأنفة ابتدائية. وقد شابهت دعوة هود قومه دعوة نوح قومه في المهم من كلامها: لأن الرسل مرسلون." (١)

"من الله والحكمة من الإرسال واحدة، فلا جرم أن تتشابه دعواتهم،

وفي الحديث: «الأنبياء أبناء علات»

وقال تعالى:

شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى

وعيسى

[الشورى: ١٣] .

وجملة: أفلا تتقون استفهامية إنكارية معطوفة بفاء التفريع على جملة: ما لكم من إله غيره. والمراد بالتقوى الحذر من عقاب الله تعالى على إشراكهم غيره في العبادة واعتقاد الإلهية. وفيه تعريض بوعيدهم إن استمروا على ذلك. وإنما ابتدأ بالإنكار عليهم إغلاظا في الدعوة وتهويلا لفظاعة الشرك، إن كان قال ذلك في ابتداء دعوته، ويحتمل أن ذلك حكاية قول من أقواله في تكرير الدعوة بعد أن دعاهم المرة بعد المرة ووعظهم، كما قال نوح إني دعوت قومي ليلا ونهارا [نوح: ٥] كما اقتضاه بعض توجيهات تجريد حكاية كلامه عن فاء التفريع المذكور آنفا.

ووصف الملأ ب الذين كفروا هنا، دون ما في قصة نوح، وصف كاشف وليس للتقييد تفننا في أساليب الحكاية ألا ترى أنه قد وصف ملأ قوم نوح ب الذين كفروا في آية سورة هود، والتوجيه الذي في «الكشاف» هنا غفلة عما في سورة هود.

والرؤية قلبية، أي إنا لنعلم أنك في سفاهة.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٨-ب/٢٠١

والسفاهة سخافة العقل، وقد تقدم القول في هذه المادة عند قوله تعالى: قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء [البقرة: ١٣]- وقوله- ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه في سورة البقرة [١٣٠] . جعلوا قوله: ما لكم من إله غيره كلاما لا يصدر إلا عن مختل العقل لأنه من قول المحال عندهم.

وأطلقوا الظن على اليقين في قولهم: وإنا لنظنك من الكاذبين وهو استعمال كثير كما في قوله تعالى: الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وقد تقدم في سورة البقرة [٤٦] ، وأرادوا تكذيبه في قوله ما لكم من إله غيره، وفيما يتضمنه قوله ذلك من كونه رسولا إليهم من الله.." (١)

"قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون فهو من بلاغة القرآن في حكاية كلامهم وليس من بلاغة كلامهم.

ثم إن تقديم المجرورين في قوله: بما أرسل به وبالذي آمنتم به على عامليهما يجوز أن يكون من نظم حكاية كلامهم وليس له معادل في كلامهم المحكي، وإنما هو لتتقوم الفاصلتان، ويجوز أن يكون من المحكي: بأن يكون في كلامهم ما دل على الاهتمام بمدلول الموصولين، فجاء في نظم الآية مدلولا عليه بتقديم المعمولين.

وقرأ الجمهور: قال الملأ بدون عطف جريا على طريقة أمثاله في حكاية المحاورات. وقرأه ابن عامر: وقال- بحرف العطف- وثبتت الواو في المصحف المبعوث إلى الشام خلافا لطريقة نظائرها، وهو عطف على كلام مقدر دل عليه قوله:

قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون والتقدير: فآمن به بعض قومه، وقال الملأ من قومه إلخ، أو هو عطف على: قال يا قوم اعبدوا الله [الأعراف: ٧٣] الآية، ومخالفة نظائره تفنن.

[٧٧، ٧٨]

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٧٧ إلى ٧٨]

فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين (٧٧) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٧٨)

الفاء للتعقيب لحكاية قول الذين استكبروا: إنا بالذي آمنتم به كافرون [الأعراف:

٧٦] ، أي قالوا ذلك فعقروا، والتعقيب في كل شيء بحسبه، وذلك أنهم حين قالوا ذلك كانوا قد صدعوا بالتكذيب، وصمموا عليه، وعجزوا عن المحاجة والاستدلال، فعزموا على المصير إلى النكاية والإغاظة لصالح عليه السلام ومن آمن به، ورسموا لابتداء عملهم أن يعتدوا على الناقة." (٢)

"وجملة: أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم واقعة موقع مفرد، هو فاعل يهد، ف (إن) مخففة من الثقيلة وهي من حروف التأكيد والمصدرية واسمها في حالة التخفيف، ضمير شأن مقدر، وجملة شرط (لو) وجوابه خبر (أن) .

و (لو) حرف شرط يفيد تعليق امتناع حصول جوابه لأجل امتناع حصول شرطه: في الماضي، أو في المستقبل، وإذ قد كان

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٨-ب/٢٠٢

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٨-ب/٢٢٤

فعل الشرط هنا مضارعا كان في معنى الماضي، إذ لا يجوز اختلاف زمني فعلي الشرط والجواب، وإنما يخالف بينهما في الصورة لمجرد التفنن كراهية تكرير الصورة الواحدة، فتقدير قوله: لو نشاء أصبناهم انتفى أخذنا إياهم في الماضي بذنوب تكذيبهم، لأجل انتفاء مشيئتنا ذلك لحكمة إمهالهم لا لكونهم أعز من الأمم البائدة أو أفضل حالا منهم، كما قال تعالى: فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم [غافر: ٢١] الآية، وفي هذا تهديد بأن الله قد يصيبهم بذنوبهم في المستقبل، إذ لا يصده عن ذلك غالب، والمعنى: أغرهم تأخر العذاب مع تكذيبهم فحسبوا أنفسهم في منعة منه، ولم

يهتدوا إلى أن انتفاء نزوله بهم معلق على انتفاء مشيئتنا وقوعه لحكمة، فما بينهم وبين العذاب إلا أن نشاء أخذهم، والمصدر الذي تفيده (أن) المخففة، إذا كان اسمها ضمير شأن، يقدر ثبوتا متصيدا مما في (أن) وخبرها من النسبة المؤكدة، وهو فاعل يهد فالتقدير في الآية: أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ثبوت هذا الخبر المهم وهو لو نشاء أصبناهم بذنوبهم.

والمعنى: أعجبوا كيف لم يهتدوا إلى أن تأخير العذاب عنهم هو بمحض مشيئتنا وأنه يحق عليهم عند ما نشاؤه.

وجملة: ونطبع على قلوبهم ليست معطوفة على جملة: أصبناهم حتى تكون في حكم جواب (لو) لأن هذا يفسد المعنى، فإن هؤلاء الذين ورثوا الأرض من بعد أهلها قد طبع على قلوبهم فلذلك لم تجد فيهم دعوة محمد صلى الله عليه وسلم منذ بعث إلى زمن نزول هذه السورة، فلو كان جوابا ل (لو) لصار الطبع على قلوبهم." (١)

"وتشمل عاقبة الخير في الآخرة لأنها أهم ما يلاحظه المؤمنون.

والمتقون: المؤمنون العاملون.

وجيء في جملتي: إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين بلفظين عامين، وهما: من يشاء من عباده والمتقين، لتكون الجملتان تذييلا للكلام وليحرص السامعون على أن يكونوا من المتقين.

وقد علم من قوله: والعاقبة للمتقين أن من يشاء الله أن يورثهم الأرض هم المتقون إذا كان في الناس متقون وغيرهم، وأن تمليك الأرض لغيرهم إما عارض وإما لاستواء أهل الأرض في عدم التقوى.

[١٢٩]

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٢٩]

قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون (١٢٩)

قالوا حكاية جواب قوم موسى إياه، فلذلك فصلت جملة القول على طريقة المحاورة، وهذا الخبر مستعمل في الشكاية واستئثارهم موسى ليدعو ربه أن يفرج كربهم.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٨/٩

والإيذاء: الإصابة بالأذى، والأذى ما يؤلم ويحزن من قول أو فعل، وقد تقدم عند قوله تعالى: لن يضروكم إلا أذى في سورة آل عمران [١١١] ، وقوله: فصبروا على ما كذبوا وأوذوا في سورة الأنعام [٣٤] ، وهو يكون ضعيفا وقويا، ومرادهم هنا القوي منه، وهو ما لحقهم من الاستعباد وتكليفهم الأعمال الشاقة عليهم في خدمة فرعون وما توعدهم به فرعون بعد بعثة موسى من القطع والصلب وقتل الأبناء، وكأنهم أرادوا التعريض بنفاد صبرهم وأن الأذى الذي مسهم بعد بعثة موسى لم يكن بداية الأذى، بل جاء بعد طول مدة في الأذى، فلذلك جمعوا في كلامهم ما لحقهم قبل بعثة موسى.

وقد توهم بعض المفسرين أن هذا امتعاض منهم مما لحقهم بسبب موسى وبواسطته

مستندا إلى أن قتل الذكور منهم كان قبل مجيء موسى بسبب توقع ولادة موسى، وكان الوعيد بمثله بعد مجيئه بسبب دعوته، وليس ذلك بمتجه لأنه لو كان هو المراد لما كان للتعبير بقوله: من قبل أن تأتينا موقع، والإتيان والمجيء مترادفان، فذكر المجيء بعد الإتيان ليس لاختلاف المعنى، ولكنه للتفنن وكراهية إعادة اللفظ.." (١)

"بمعنى أجزته، كما قالوا: ذهبت به بمعنى أذهبته، فمعنى قوله هنا: وجاوزنا ببني إسرائيل البحر قدرنا لهم جوازه ويسرناه لهم.

والبحر هو بحر القلزم- المعروف اليوم بالبحر الأحمر- وهو المراد باليم في الآية السابقة، فالتعريف للعهد الحضوري، أي البحر المذكور كما هو شأن المعرفة إذا أعيدت معرفة، واختلاف اللفظ تفنن، وتجنبا للإعادة، والمعنى: أنهم قطعوا البحر وخرجوا على شاطئه الشرقي.

وفأتوا على قوم معناه أتوا قوما، ولما ضمن فأتوا معنى مروا عدي بعلى، لأنهم لم يقصدوا الإقامة في القوم، ولكنهم ألفوهم في طريقهم.

والقوم هم الكنعانيون ويقال لهم عند العرب العمالقة ويعرفون عند متأخري المؤرخين بالفنيقيين.

والأصنام كانت صور البقر، وقد كان البقر يعبد عند الكنعانيين، أي الفنيقيين باسم (بعل) ، وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى: ثم اتخذتم العجل من بعده في سورة البقرة [٥١] .

والعكوف: الملازمة بنية العبادة، وقد تقدم عند قوله تعالى: ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد في سورة البقرة [١٨٧] ، وتعدية العكوف بحرف (على) لما فيه من معنى النزول وتمكنه كقوله: قالوا لن نبرح عليه عاكفين [طه: ٩١] .

وقرىء يعكفون- بضم الكاف- للجمهور، وبكسرها لحمزة والكسائي، وخلف، وهما لغتان في مضارع عكف.

واختير طريق التنكير في أصنام ووصفه بأنها لهم، أي القوم دون طريق الإضافة ليتوسل بالتنكير إلى إرادة تحقير الأصنام وأنها مجهولة، لأن التنكير يستلزم خفاء المعرفة.

وإنما وصفت الأصنام بأنها لهم ولم يقتصر على قوله: أصنام قال ابن عرفة التونسي: «عادتهم يجيبون بأنه زيادة تشنيع بهم وتنبيه على جهلهم وغوايتهم في أنهم يعبدون ما هو ملك لهم فيجعلون مملوكهم إلا ههم» .." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٦١/٩

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٨٠/٩

"وكذلك اختلاف التعبير في قوله هنا: وكلوا وقوله في سورة البقرة [٥٨] فكلوا فإنه قد قيل لهم بما يرادف فاء التعقيب، كما جاء في سورة البقرة، لأن التعقيب معنى زائد على مطلق الجمع الذي تفيده واو العطف، واقتصر هنا على حكاية أنه قيل لهم، وكانت آية البقرة أولى بحكاية ما دلت عليه فاء التعقيب، لأن آية البقرة سيقت مساق التوبيخ فناسبها ما هو أدل على المنة، وهو تعجيل الانتفاع بخيرات القرية، وآيات الأعراف سيقت لمجرد العبرة بقصة بني إسرائيل.

ولأجل هذا الاختلاف ميزت آية البقرة بإعادة الموصول وصلته في قوله: فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا [البقرة: ٥٩] وعوض عنه هنا بضمير الذين ظلموا، لأن القصد في آية البقرة بيان سبب إنزال العذاب عليهم مرتين أشير إلى أولاهما بما يومئ إليه الموصول من علة الحكم، وإلى الثانية بحرف السببية، واقتصر هنا على الثاني.

وقد وقع في سورة البقرة [٥٩] لفظ فأنزلنا ووقع هنا لفظ فأرسلنا ولما قيد كلاهما بقوله: من السماء كان مفادهما واحدا، فالاختلاف لمجرد التفنن بين القصتين.

وعبر هنا بما كانوا يظلمون وفي البقرة [٥٩] بما كانوا يفسقون لأنه لما اقتضى الحال في القصتين تأكيد وصفهم بالظلم وأدي ذلك في البقرة [٥٩] بقوله: فأنزلنا على الذين ظلموا، استثقلت إعادة لفظ الظلم هنالك ثالثة، فعدل عنه إلى ما يفيد مفاده، وهو الفسق، وهو أيضا أعم، فهو أنسب بتذييل التوبيخ، وجيء هنا بلفظ يظلمون لئلا يفوت تسجيل الظلم عليهم مرة ثالثة، فكان تذييل آية البقرة أنسب بالتغليظ في ذمهم، لأن مقام التوبيخ يقتضيه.

ووقع في هذه الآية فبدل الذين ظلموا منهم ولم يقع لفظ منهم في سورة البقرة، ووجه زيادتها هنا التصريح بأن تبديل القول لم يصدر من جميعهم، وأجمل ذلك في سورة البقرة لأن آية البقرة لما سيقت مساق التوبيخ ناسب إرهابهم بما يوهم أن الذين فعلوا ذلك هم جميع القوم، لأن تبعات بعض القبيلة تحمل على جماعتها.

وقدم في سورة البقرة [٥٨] قوله: وادخلوا الباب سجدا على قوله: وقولوا حطة [البقرة: ٥٨] وعكس هنا وهو اختلاف في الإخبار لمجرد التفنن، فإن كلا القولين واقع قدم أو أخر.." (١)

"وذكر في البقرة [٥٨] : فكلوا منها حيث شئتم رغدا ولم يذكر وصف رغدا هنا، وإنما حكي في سورة البقرة، لأن زيادة المنة أدخل في تقوية التوبيخ.

وجملة سنزيد المحسنين مستأنفة استئنافا بيانا لأن قوله: تغفر لكم في مقام الامتنان بإعطاء نعم كثيرة مما يثير سؤال سائل يقول: وهل الغفران هو قصارى جزائهم؟

فأجيب بأن بعده زيادة الأجر على الإحسان، أي على الامتثال.

وفي نظير هذه الآية من سورة البقرة [٥٨] ذكرت جملة وسنزيد المحسنين معطوفة بالواو على تقدير: قلنا لهم ذلك وقلنا لهم سنزيد المحسنين، فالواو هنالك لحكاية الأقوال، فهي من الحكاية لا من المحكي أي قلنا وقلنا سنزيد.

وقرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب تغفر- بمثناة فوقية مبنيا للمجهول، وخطيئاتكم- بصيغة جمع السلامة للمؤنث- وقرأه ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: نغفر- بالنون مبنيا للفاعل- وخطيئاتكم- بصيغة جمع المؤنث السالم أيضا-

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٤٥/٩

وقرأه أبو عمرو نغفر- بالنون وخطاياكم- بصيغة جمع التكسير، مثل آية البقرة، وقرأ ابن عامر: تغفر- بالفوقية- وخطيئتكم- بالإفراد.

والاختلاف بينها وبين آية البقرة في قراءة نافع ومن وافقه: تفنن في حكاية القصة.

[١٦٣]

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٦٣]

وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون (١٦٣)

غير أسلوب الخبر عن بني إسرائيل هنا: فابتدئ ذكر هذه القصة بطلب أن يسأل سائل بني إسرائيل الحاضرين عنها، فنعلم من ذلك أن لهذه القصص الآتية شأنا غير شأن القصص الماضية، ولا أحسب ذلك إلا من أجل أن هذه القصة ليست مما كتب في توراة اليهود ولا في كتب أنبيائهم، ولكنها مما كان مرويا عن أحبارهم، ولذلك افتتحت بالأمر بسؤالهم عنها، لإشعار يهود العصر النبوي بأن الله أطلع نبيه عليه الصلاة والسلام عليها،

وهم كانوا يكتمونها، وذلك أن الحوادث التي تكون مواعظ للأمة فيما." (١)

"منه ليس فيه معنى الحدث، فلم يجيء منه فعل مجرد، فاحتيج إلى اللام، لتبيين تعلق المفعول بفعله.

وأما قولهم: أملى للبعير بمعنى أطال له في طوله في المرعى، فهو جاء من هذا المعنى بضرب من المجاز أو الاستعارة.

فجملة: إن كيدي متين في موضع العلة للجملتين قبلها، فإن الاستدراج والإملاء ضرب من الكيد، وكيد الله متين أي قوي لا انفلات منه للمكيد.

وموقع (إن) هنا موقع التفريع والتعليل، كما قال عبد القاهر: إنها تغني في مثل هذا الموقع غناء الفاء، وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى: إن أول بيت وضع للناس في سورة آل عمران [٩٦] ، أي: يكون ذلك الاستدراج وذلك الإملاء بالغين ما أردناه بهم لأن كيدي قوي.

ولما كان أملي معطوفا على سنستدرجهم، فهو مشارك له في الدخول تحت حكم الاستقبال، أي: وسأملي لهم.

والمغايرة بين فعلي (نستدرج) و (أملي) في كون ثانيهما بهمزة المتكلم، وأولهما بنون العظمة مغايرة اقتضتها الفصاحة من جهة ثقل الهمزة بين حرفين متماثلين في النطق في سنستدرجهم وللتفنن والاكتفاء بحصول معنى التعظيم الأول.

و (الكيد) لم يضبط تحديد معناه في كتب اللغة، وظاهرها أنه يرادف المكر والحيلة، وقال الراغب: «ضرب من الاحتيال، وقد يكون مذموما وممدوحا وإن كان يستعمل في المذموم أكثر وهو يقتضي أن الكيد أخص من الاحتيال وما ذلك إلا لأنه غلب استعماله في الاحتيال على تحصيل ما لو اطلع عليه المكيد لاحترز منه، فهو احتيال فيه مضرة ما على المفعول به، فمراد الراغب بالمذموم المذموم عند المكيد لا في نفس الأمر» وقال ابن كمال باشا: الكيد الأخذ على خفاء، ولا يعتبر

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٤٦/٩

فيه إظهار الكائد خلاف ما يبطنه.

ويتحصل من هذه التدقيقات: أن الكيد أخص من الحيلة ومن الاستدراج.

ووقوع جملة: إن كيدي متين موقع التعليل يقتضي أن استدراجهم والإملاء لهم كيد، فيفيد أنه استدراج إلى ما يكرهونه، وتأجيل لهم إلى حلول ما يكرهونه." (١)

"وقال جماعة من المفسرين إن آيات يا أيها النبيء حسبك الله- إلى- لا يفقهون [الأنفال: ٦٤، ٦٥] نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل ابتداء القتال، فتكون تلك الآية نزلت قبل نزول أول السورة.

نزلت هذه السورة بعد سورة البقرة، ثم قيل هي الثانية نزولا بالمدينة، وقيل نزلت البقرة ثم آل عمران ثم الأنفال، والأصح أنها ثانية السور بالمدينة نزولا بعد سورة البقرة.

وقد بينت في المقدمات أن نزول سورة بعد أخرى لا يفهم منه أن التالية تنزل بعد انقضاء نزول التي قبلها، بل قد يبتدأ نزول سورة قبل انتهاء السورة التي ابتدئ نزولها قبل، ولعل سورة الأنفال قد انتهت قبل انتهاء نزول سورة البقرة، لأن الأحكام التي تضمنتها سورة الأنفال من جنس واحد وهي أحكام المغانم والقتال، وتفننت أحكام سورة البقرة أفانين كثيرة: من أحكام المعاملات الاجتماعية، ومن الجائز أن تكون البقرة نزلت بعد نزولها بقليل سورة آل عمران، وبعد نزول آل عمران بقليل نزلت الأنفال، فكان ابتداء نزول الأنفال قبل انتهاء نزول البقرة وآل عمران.

وفي «تفسير ابن عطية» عند قوله تعالى: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم من هذه السورة [٣٣] قالت فرقة نزلت هذه الآية كلها بمكة قال ابن أبزى نزل قوله: وما كان الله ليعذبهم بمكة إثر قولهم أو ائتنا بعذاب أليم [الأنفال: ٣٢] ونزل قوله: وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون [الأنفال: ٣٣] عند خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وقد بقي بمكة مؤمنون يستغفرون، ونزل قوله: وما لهم ألا يعذبهم الله [الأنفال: ٣٤] بعد بدر.

وقد عدت السورة التاسعة والثمانين في عداد نزول سور القرآن في رواية جابر بن زيد عن ابن عباس، وإنها نزلت بعد سورة آل عمران وقبل سورة الأحزاب.

وعدد آيها، في عد أهل المدينة. وأهل مكة وأهل البصرة: ست وسبعون، وفي عد أهل الشام سبع وسبعون، وفي عد أهل الكوفة خمس وسبعون.

ونزولها بسبب اختلاف أهل بدر في غنائم يوم بدر وأنفاله، وقيل: بسبب ما سأله بعض الغزاة النبيء صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم من الأنفال، كما سيأتي عند تفسير أول آية منها.." (٢)

"«الأساطير» جمع أسطورة بضم الهمزة- وهي القصة، وتقدم عند قوله تعالى:

حتى إذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين في سورة الأنعام [٢٥] .

والمخالفة بين شرط لو وجوابها إذ جعل شرطها مضارعا والجزاء ماضيا جرى على الاستعمال في (لو) غالبا، لأنها موضوعة

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٩٢/٩

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٤٦/٩

للماضي فلزم أن يكون أحد جزأي جملتها ماضيا، أو كلاهما. فإذا أريد **التفنن** خولف بينهما، فالتقدير: لو شئنا لقلنا، ولا يبعد عندي في مثل هذا التركيب أن يكون احتباكا قائما مقام شرطين وجزاءين فإحدى الجملتين مستقبلة والأخرى ماضية، فالتقدير لو نشاء أن نقول نقول، ولو شئنا القول في الماضي لقلنا فيه، فذلك أوعب للأزمان، ويكون هذا هو الفرق بين قوله: ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها [السجدة: ١٣]- وقوله: أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا [الرعد: ٣١] فهم لما قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا ادعوا القدرة على قول مثله في الماضي وفي المستقبل إغراقا في النفاجة والوقاحة.

[٣٢، ٣٣]

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٣٢ إلى ٣٣]

وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم (٣٢) وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون (٣٣)

عطف على وإذ يمكر بك الذين كفروا [الأنفال: ٣٠] أو على قالوا قد سمعنا [الأنفال: ٣١] وقائل هذه المقالة هو النضر بن الحارث صاحب المقالة السابقة، وقالها أيضا أبو جهل وإسناد القول إلى جميع المشركين للوجه الذي أسند له قول النضر قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا [الأنفال: ٣١] فارجع إليه، وكذلك طريق حكاية كلامهم إنما هو جار على نحو ما قررته هنالك من حكاية المعنى.

وكلامهم هذا جار مجرى القسم، وذلك أنهم يقسمون بطريقة الدعاء على أنفسهم إذا كان ما حصل في الوجود على خلاف ما يحكونه أو يعتقدونه، وهم يحسبون أن دعوة المرء على نفسه مستجابة، وهذه طريقة شهيرة في كلامهم قال النابغة:

ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه ... إذن فلا رفعت سوطي إلي يدي." (١)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٣١/٩